محمد الحسني
رئيس تحرير مجلة البعث الاسلامى
بالهند

الإسلام الممتحن

تقديم المفكر الاسلامى الكبير
أبو الحسن الندوى

المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة - ص.ب ١٧٠٧

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

هذا الكتاب تعود قصته الى ابريل ١٩٥٤م

وذلك حين نشرت مجلة المسلمون ·· فى القاهرة أول مقال لصاحبه وهو فى العقد الثانى من عمره ، تحت عنوان « العالم الاسلامى على مفترق الطرق » ·

وكان أخير ما صدر عن هذا القلم عند كتابة هذه السطور مقالة عن الامام الشهيد تحت عنوان « حسن البنا فى محراب التاريخ الاسلامى » وهى ضريبة حب أحببت أن أدفعها - وان تأخرت - راضيا مسرورا ، ومع ذلك الفاصل الطويل بين عام ١٩٥٤ وعام ١٩٧٥ الذى ليس طويلا بحساب الزمن بقدر ما هو طويل بحساب المد الفكرى وانحساره - جاءت هذه المقالات أو الافتتاحيات التى نشرت فى مجلة « البعث الاسلامى » فى أوقات متفاوتة ، وتنوعت موضوعاتها وظروفها وملابساتها ، تضرب على وتر واحد ، وتربطها رابطة واحدة ، يطيب لى أن أعبر عنها برابطة « الحب فى الله والبغض فى الله » ·

وذلك كله دفعنى الى أن أتوجه بهذا الكتاب الى من علمنى الكتابة وأنشأ فى نفسى - الى جنب والدى رحمه الله -

حب هذه اللغة الكريمة وحب أهلها ، وحب الاسلام والمسلمين والاهتمام بشؤن العالم الاسلامى الفكرية والاجتماعية والسياسية ، وهو عمنا سماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى اطال الله بقاءه ، فتفضل مشكورا بتقديم هذا الكتاب .

والله تعالى أسأل أن ينفع به كاتبه وقارئه ، ويجد فيه الشاب المسلم الحائر ما يعيد ثقته بهذا الدين ، ويقوى ايمانه بالله ، ويشرح صدره للاسلام ، ويثبت أقدامه فى صراع الحق والضلال ، والنور والظلام .

وقفة قد يقفها القارىء حين لا يرى فى هذه المقالات وقد كتبت فى أدق فترة وأحرجها في تاريخ هذه الأمة الحديث انعكاسا لهذه الحوادث ودراسة لهذه الأوضاع ، وتفسيرا لهذه التطورات التي شهدتها أرض النيل ، لا سيما اذ أخذت هذه الحوادث والتطورات « وأبطالها وشخصياتها » بوجه خاص قسطا كبيرا من وقت الكاتب وقلمه ، وموعدنا مع هذا الجزء الهام من التاريخ فى كتاب مستقل أسميته « مصر تتنفس » ولعلها تنفست ، ولعلها تستجيب ، وموعدنا مع هذا الكتاب الجديد ـ اذا شاءت ارادة الله وحكمته وسمحت مصر الموقرة وسمحت ـ قريب .

لكهنؤ (الهند)

محمد الحسنى
غرة ربيع الأول ١٣٩٥ هـ

تقديم الكتاب

بقلم :

أبى الحسن على الحسنى الندوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ٠

أما بعد ، فقد بقيت فترة من الزمن ، أتهيب تقديم هذه المجموعة من مقالات ابن أخى محمد الحسنى ، التى أسماها « الاسلام الممتحن » ، وما كان تقديم الكتب والمؤلفات لمشاهير الكتاب والمغمورين منهم ، بدعا من الأمر ، بالنسبة الى ، حتى خفت أن يطغى التقديم على التأليف ، وأتهم بالتوسع والسخاء فى تقديم الكتب وتصديرها ٠ وما ذلك الا لأن الصلة بينى وبين صاحب هذا الكتاب صلة الأب بالابن والأستاذ بالتلميذ ، وكنت أشعر ـ وأنا أحدث نفسى بكتابة هذا التقديم ـ بأنى أقدم لكتاب من كتبى ، وأتورط بذلك أحيانا فى الاعتراف لنفسى بالاجادة والتوفيق والتهنئة والتقريظ ، وذلك مما لم تستحسنه الشرائع ، وعلم الأخلاق ، والآداب السليمة ، وتحاشيت عنه بقدر الامكان ٠

ثم حاسبت نفسى على هذا الشعور ، محاسبة أمينة محايدة ، وحللته تحليلا نفسيا ، فوجدت أن نصيب العاطفة فيه أكبر من نصيب العقل ، والخوف من قالة الناس وحديثهم

قد غذى هذا الشعور ، وأفاض عليه لونا خلقيا ، ورأيت أننى اذا استسلمت لهذا الشعور ، فقد فرطت فى تأدية أمانة والقيام بشهادة ، والشهادة للأقربين ليست أقل وجوبا من الشهادة على الأقربين ، فان الله تعالى حين يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين »(١) فانه يقول كذلك : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا »(٢) .

ثم ان قصة البيئة التى نشأ فيها الكاتب ، والعوامل التى كونت هذه العقلية التى صدرت عنها هذه الفكرة ، والدوافع التى دفعته الى كتابة هذه المقالات ، والتركيب النفسى والمزيج الثقافى الحضارى الذى ورثه عن آبائه ، وتلقاه من مجتمعه ، والأحداث الجسيمة الأليمة التى وقعت فى الوطن الاسلامى الكبير ، فعاصرها وعاشها ، واكتوى بنارها ، وساهم فى عارها ، لا يحسن حكايتها الا من شهد فصولها ، وخاض معركتها ، وساير ركبها ، وقد كان فى بعض الأحيان شاهد عيان ، والسابق الى الميدان .

ان صاحب هذه المجموعة نشأ فى بيئة آمنت بأن

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٥.

(٢) سورة النساء الآية ٥٨ .

الاسلام هو رسالة الله الأخيرة الخالدة ، وأنها هو الحق الذى ليس بعــده الا الضـــلال ، والسعادة التى ليس وراءها الا الشقاوة ، وأنه للانسانية كسفينة نوح ، لا ينجـو الا من ركبها وأوى اليها ، وأن نهاية كل من استغنى عنها واعتصم بجبل ، نهاية ولده الشارد المارد الذى قال « سآوى الى جبل يعصمنى من الماء » وكان جواب نوح « لا عاصم اليوم من أمر الله » وكانت عاقبته أن حال بينهما الموج فكان من المغرقين ٠

وآمنت بأن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى العربى – صلى الله عليه وسلم – خاتم الرسل ، وامام الكل ، ومنير السبل ، لكل عصر ولكل جيل ، وأن الله قــد ربط مصير العرب بمصير الاسلام ، وعقـــد ناصيتهم به ، فلا عز لهم ولا سعادة ، ولا نهوض لهم ولا قيادة ، الا بالانضواء الى رايته ، والانصهار فى بوتقة تعاليمه ، والتفانى فى سبيله، وان أعدى عدو لهم من ينادى بالجاهلية ، ويهتف بالقوميــة والعنصرية ، أو الوطنية والاشتراكية ، أو فلسفـــة من الفلسفات الملحدة ، فيحاول أن يحول بينهم وبين الاسلام ٠

وآمنت بأن الاسلام وحدة لا تتجزأ ، ومنهج للحيـــاة كامل شامل ، وأنه عقيدة وأخلاق ، وسياسة وعلم ، وعقل وعاطفة ، وحضارة وثقافة ، وله موازينه الخاصة ، وقيمه المعينة ، ومقاديره المحدودة ، ومقاييسه المعروفة ، ولا يحتاج الى تلفيق أو تطعيم ، أو مساومة أو تنازل ٠

انه قد عاش فى ظلال تاريخ الدعوة الاسلامية ، وقصة

بطولاتها ومعجزاتها وصنائعها وعجائبهـــا . تتلى فى بيته وأسرته الملاحم الاسلامية التى نظمها بعض أفراد أسرتــه المتقدمين فى الشعر الأردى القوى المثير ، مقتبسة من فتــوح الشام للواقدى والأغانى الشعرية الخاصة بالسيرة النبويـــة وأخبار الصحابة وفضل الحضارة الاســلامية ودور العرب فى بناء العالم الجديد . وانقاذ الانسانية من أعدائها . فامتزج كله بلحمه ودمه ، وتكونت به عـــقليته ونفسيته . وأحب الرسول وأصحابه والعرب حبا لا يمكن تجريده منه فى مرحلة من مراحل الثقافة ، وفى فترة من فترات الحياة ، وفى بيئة من البيئات . وأصبح هذا الحب ، وهذه العاطفـــة ، تلهب شـــعوره ، وتدفق قريحته ، وتجرى قلمــه ، وأصبحت له مصدر الالهام ومنبع الايمان والحنان .

انه ولد فى أسرة كان شعارها منذ زمن طويل ، الجمع بين العقيدة السلفية النقية ، وبين الربانية الصحيحة الصافية، وبين الزهادة والعبادة ، وبين بذل الجهد لاعلاء كلمة الله ورفع راية الجهاد حينا بعد حين ، والسعى الحثيث فى الجمع بين اشراق القلب وصفاء الروح وقوة العاطفة ، وبين التفنن فى العلوم والذوق الأصيل للأدب والشعر . وأورث كل ذلك من تراث وتاريخ ودم وعرق تقديره لاكسير الحب وقوة العاطفة ، وسلم بذلك من الجفاف الروحى والاستخفاف بالعاطفة والحاجة الى تزكية النفس والشحنة الايمانية الروحية ، الاستخفــاف الذى أصبح شعار الــكتاب والدعاة فى عصره ، الذين نشأوا بعيدين عن هذه البيئة الجامعة والتربية المزدوجة .

انه نشأ وترعرع فى عصر تغنى بشعر اقبال ، وكانت له فيه دولة وصولة ، وهو شعر الحب والطموح ، وشعر الايمان والحنان ، وشعر الثقة بصلاحية الاسلام ، والايمان بخلوده ، فأساغه عقله المتفتح وذوقه الناشى ، وجعله جزءا من أجزاء ثقافته وأساسا من أسس تفكيره ٠

انه نشأ فى حجر والد مؤمن جمع بين سلامة العقيدة وقوة الايمان والقلب المتفتح والعقل النير الواسع ، والعلم الحديث الأحدث وحب الواقعية والجد ، لا يرى تناقضا بين العلم والدين والقديم والحديث ، وقد اقتبس من الثقافتين : القديمة والحديثة والغربية والشرقية ، أفضل عناصرهما وأجملها ، فمزج بينها مزجا جميلا ، فأصبح برزخا بين بحرين لا يبغيان ، شديد الحب لله ولرسوله ولعشيرته وقومه وللغته وبلادة ، شديد البغض شديد البراءة عن كل ما يخالف الدين الحنيف من عقائد وأعمال وفلسفات واتجاهات ، عميق الفهم للاسلام ، ووثيق الصلة بمنابعه الأصيلة الصافية ، شديد الغيرة على الاسلام ، عظيم الحب لمركزه ومقدساته ، متقشفا فى الحياة الفردية ، متوسعا فى فهم القضايا العلمية والاسلامية ، شديدا فى الحدود والنصوص ، مرنا فى المباحات والاستفادة بالحكمة والتجارب ٠

ذلكم أخى وأستاذى ومربى عقلى وثقافتى ، ذلكم والد هذا الكاتب العزيز الدكتور عبد العلى بن العلامة عبد الحى الحسنى ٠

نشأ هذا الشاب تحت ظلال هذه التربية وفى حجر هذه البيئة ، ثم لما عقل وثقف وعاصر الأحداث ، فتح عينيه على مجتمع اسلامى حائر بين الاسلام والجاهلية والدين والعلمانية ، قادة الفكر فيه مذبذبون وأولياء الأمور فيه مضطربون ، وأكثرهم منافقون ، يتخذون الدين حيلة ووسيلة للوصول الى أغراضهم ، والهتاف بالاسلام سلما للوصول الى كراسى الحكم ، وقنطرة للعبور الى شاطىء السيادة والقيادة والركوب على أعناق الشعوب المسلمة الساذجة التى لا تفهم الا لغة القرآن والحب والحنان ، ولا تتحرك ولا تتحمس الا بحكايات الصحابة وأبطال الاسلام وفضائل الجهاد والشهادة ٠

انه أحب اللغة العربية من صباه ، وحب الصبا شديد ، وأحب أبناءها وكل ما يمت اليها بصلة ، وكان يتمثل العرب فى قصص الرعيل الأول للاسلام وطليعة الدعاة والمجاهدين ، الذين سمع حكايات بطولاتهم وفدائهم فى قصائد الملحمة الاسلامية ٠ فآمن بأنهم لا يزالون سائرين على دربهم ، لا يعدلون بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ انسانا ، وقائدا ، واماما ، ولا يعدلون بالاسلام دينا ، ومنهجا ، وبالقومية الاسلامية قومية ٠ فلما صار يعى ويشدو ، ويقرأ ويكتب ، فتح عينيه على كتابات للعرب ، لو كتبت تحتها أسماء الكتاب الأوربيين والمؤلفين المستشرقين والدعاة المنحرفين لم يكن بعيدا ، ولما كان بين هذه الكتابات وبين شهرة هؤلاء الكتاب

ودعوتهم فجـــوة ومنافاة · رأى أن كثيرا من هؤلاء الكتاب العرب ينظرون الى الاسلام كدين أدى دوره وبطارية قد نفدت شحنتها ، فليس من العقل والكياسة التشبث به والدعـوة اليه ، ومواجهة الواقع والعصر الراقى بحلولـــه وأحكامه ، وخيرهم من ينظر الى الاسلام كدين من الأديان الكثيرة ومنهج للحياة من مناهجها المتنوعة ، وخير أحواله أن يسمح له بالبقاء فى دائرة ضيقة محدودة وفى حياة فردية سلمية ·

وكان كل ذلك مفاجأة أليمة لم يكن يتوقعها بل لم يكن يتصورها فى بيئته التى صورت له الاسلام كدين حى خالد ، خليق به ليقود ويسود ، والعرب كرائد أول وقائد أفضــل لهذه الدعوة الاسلامية ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، وكانت صدمة عنيفة لعقله وقلبه ·

ثم جاءت الفترة الحالكة التى هبت فيها عاصفة القومية العربية الهوجاء فى الخمسينات الأولى ، ووقع أكثر أبناء العرب وشبابهم وكثير من كهولهم وعلمائهم تحت تأثير قيادة ترى التخلص من أثر الاسلام فى النفوس والعقــول والحيـــاة الاجتماعية والسياسية أهم وأقدم من محاربة الصهيونيـــة واستعادة المقدسات الاسلامية ، وترى ازالة هذه الأنقاض أو الركام ـ على حد تعبيرها ـ شرطا لبناء المجتمع الجديـــد ، وازالة آثار العدوان الأجنبى ، وتحـــل القـــومية العربية والاشتراكية العلمية محل العقيدة الاســـلامية والدعـــوة الاسلامية ، لها كل ما للدين من ايمان وحماس ، وعصبيـــة

وحمية ، وتعتمد على الهتافات والدعايات ، والدعاوى الفارغة، ما لا تعتمد على السلاح والقـوة الحربيـــة والروح المعنوية والايمـان الراسخ ، وكانت فتنة عمياء ، أعمت ، وأصمت ، وسحرت العقـــول والنفوس ، وقلبت الحقـائق ، وأنكرت البديهيـــات . وكانت موجة عارمـــة فى الشرق العربي ، اكتسحت الصحافة والأدب ودور العلم ومراكز النشر ، وما صمد فى وجهها الا أفراد قلائل يعدون على رؤوس الأصابع . وكانت مجابهتها ونقدها العلمى مثل « كلمة حق عند سلطان جائر » فقد تجاوب معها الشباب المتحمس الطموح، والصحافة القوية التى سميت فى الغرب ب « صاحبة الجلالة » .

فى كل هذه الظروف والملابسات الدقيقة المثيرة وفى هذه البيئة الحساسة المكهربة ، أمسك الكاتب الناشىء صاحب هذه المجموعة الذى كان لا يزال فى شرخ الشباب قلمه ليخط مقالات افتتاحية لمجلة « البعث الاسلامى » التى كان يرأس تحريرها على حداثة سنه ، ليعبر عن شعوره الجريح الفياض ، وقلبه المكلوم المتألم ، ويدافع عن الفكرة الاسلامية التى آمن بها ، واحتضنها ، وأحبها ويذكر العرب بصفـــة خاصـــة برسالتهم وبتاريخهم وبمركزهم فى العالم ، وميزاتهم بين الامم ، وبالدور الذى يستطيع الاسلام أن يمثله فى هـــذه المعركة الحامية ، والساعة الدقيقة الحاسمة ، والدور الذى يجب أن يمثله العرب ، على المسرح العالمى الذى أصبح مركزا للمسرحيات الهازلة والتمثيليـــات السخيفة ، وكانت الامم

والبلاد كرة دائرة ودمى متحركـــة فيها ، لا تملك ارادة ، ويذكر المسلمين برسالة الاسلام الأصيلة الخالدة وفضلهـا وقيمتها والعناصر التى تركبت منها ، وحاجة الانسانية اليها، وينقل اليهم همساتها ودقات قلبها ،حين تراهم قد تخلوا عن مركزهم فى القيادة وجروا وراء القيادات الزائفة ، وتطفلوا على مائدتها ، ويدعو الى الاسلام الكامل الذى يعطى كل ذى حق حقه ، وينير العقول ، ويشعل مجامر القلوب ، ويهذب الاخلاق ، وينظم الحياة ، ويضبط الأمم ، ويقود المدنية ، ويشعل المواهب ، وينشىء الرجال ، ويربى القادة والعباقرة ، لا هو جاف قشنيب ، ولا هو رقيق مائع ، ولا هو رهبانيـة وهجر للدنيا ، ولا هو مادية ونهامة للحياة ، انما هو الدين الذى جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونطق به القرآن ، وتمثل فى حياة الصحابة ، والقرون المشهود لها بالخـير ، والتابعين لهم باحسان ، من الجـــامعين بين العقل والقلب والعقيدة والعمل ، والجهاد والربانية ٠

وكان متأثرا فى كل ذلك بطبيعة الحـال بالبيئة التى نشأ فيها ، ودعوة المجدد الكبير والمجاهد العظيم السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد الذى كان من سلفه وعظماء أسرته فى الماضى القريب(١) ، وبفكرة « الاخوان المسلمون » ورائدهم

(١) ليراجع للتفصيل كتاب : اذا هبت ريح الايمان » لكاتب هـــذه السطور طبع دار الرسالة ، بيروت ٠

الامام الشهيد حسن البناء الذى تعرف به وأحبه عن طريق عمه كاتب هذه السطور ، الذى كان له صلات وثيقة بأصحاب هذه الدعوة وزملاء الفقيد الشهيد وتلاميذه النجباء ، فتجلى تأثير كل هذه العوامل القوية والدراسات العصرية ومطالعة الكتابات الاسلامية التى أنتجتها هاتان الحركتان القويتان ، فى المقالات التى كتبها بين آونة وأخرى ، وتتكون بها هذه المجموعة .

وأحدثت هذه الجوانب المتناقضة - جانب تربيته ودراسته الاسلامية وجانب الواقع المرير والمشاهد القاسى - صراعا فى نفسه حول قلمه الى شلال يتدفق بقوة ، وينحدر بقوة ، فصدرت هذه المقالات ، فى أسلوب قوى ملتهب ، هو نتيجة كل صراع نفسى ، رافقته قدرة بيانية ، وقلم سيال رشيق ، وثروة لغوية ، وهذا الأسلوب له قيمته فى ايقاظ الشعور وفى تحريك النفوس والعقول ، ومحاربة « مركب النقص » واعادة الثقة بصلاحية الرسالة والأمة والاعتزاز بالقيم والمفاهيم ، خصوصا اذا كان مدعما بالدلائل والوثائق ، ومسلحا بالشواهد والتجارب ، وهى طليعة كل اصلاح وانقلاب ، ورائد كل نهضة وتقدم ، وهو الأسلوب الذى استعان به الخطباءوالكتاب فى العصر الاسلامى الأول ، واستعان به السيد جمال الدين الأفغانى وصاحبه الشيخ محمد عبده فى مقالات « العروة الوثقى » التى أشعلت العالم الاسلامى حماسا وحمية وحملت الحكومات الغربية الاستعمارية على منع دخولها ، فى الأقطار التى كانت تحكمها ، ولعبت

دورا لا يستهان بقيمته فى ايقاظ الشعور الاسلامى وايجاد الوعى السياسى •

مع هذه السمة البارزة لهذه المقالات فانها تدعو الى التأمل العميق ، وتغذى الفكرة ، وتفتح آفاقا جديدة للفكر الاسلامى ، وتزود العاملين فى مجال الدعوة والفكرة الاسلامية ببعض معلومات جديدة ، ووثائق وحقائق عن الحضارة الغربية ، والفلسفات المادية ، ومدى افلاس الغرب واحتياره وسآمته وخوائه الروحى ، وما يعانيه من أزمات وعقد ومشكلات ، فان الكاتب يعيش فى بلد قد اكتوى بنار الغرب، وخاض المعركة الفكرية الحضارية السياسية التى قامت وحميت فى شبه القارة الهندية ، ثم خرج منها الشعب المسلم محتفظا بجزء كثير من شخصيته ، معتزا بحضارته وقيمه ، خبيرا بمواضع الضعف فى الغرب ومساويه ، وقصة فشله واخفاقه ، فى حل القضايا المعاصرة ، فأكسبه كل ذلك ثقة بدعوته ، وقوة فى كتاباته ، وقيمة لما يقول ويدعو اليه •

فى ضوء قصة هذه البيئة والتربية والأحداث والتجارب، والميول والعواطف ، والأهداف والمثل ، وصدق النية وحسن القصد ، ينبغى أن تقرأ هذه المقالات التى كتبت فى أوقات شتى تحت عناوين مختلفة تجمع بينها وحدة هى وحدة « منهج الفكر الاسلامى السليم » والدعوة الى الحق والى الصراط المستقيم •

أبو الحسن الندوى

العالم الاسلامى على مفترق الطرق

كتبنا هذا المقال فى أوائل عام ١٩٥٤ م ونشر اذ ذاك فى مجلة « المسلمون » وها نحن نستهل به هذا الكتاب ونكرر هذا الرجاء مرة ثانية فالأمر غمة والطريق واحد فهل يستجيب العالم الاسلامى لهذا النداء ويحقق هذا الرجاء وهل يعود الى رشده وصوابه وسبيل ربه ؟

هذه الفترة من الزمن التى يجتازها العالم الاسلامى بوجه عام والعالم العربى بوجه خاص ، فترة خطيرة ذات أهمية فى تاريخ المسلمين ، انها ساعة لا تتوفر أمثالها فى تاريخ الأمم والشعوب ، وفى امكانية العالم الاسلامى اليوم أن يؤدى واجبا ضخما نحو الانسانية ، ويلعب دورا هاما فى حقل السياسة العالمية ، ويغير مجرى التاريخ ، ويحول القيادة من الجاهلية الآثمة الى الاسلام السمح العادل ، ويحقق ذلك الغرض الأكبر والهدف الأسمى الذى بعثت له تلك الأمة الاسلامية ، ان ذلك يقتضى سرعة لكن بحيطة وحذر ، ويطلب شهامة واقتحاما ولكن بعد تأمل وتريث ، ويحتاج الى هجوم عنيف على غريمه والانقضاض عليه كما ينقض الصقر على الطير والأسد الجائع على الشاة ولكن بعد اكتمال رصيده

الايمانى والروحى ، واستعداده المـــادى والحربى ، وتنظيمه العلمى الجديد ، وتوحيد صفوفه الموزعة ، وهذا هو الذى قد فات العالم الاسلامى فى أحيان كثيرة ، فسقط صريعا أمام ثورة العقل والفكر ، ومعجزات البطولة والاختراع ، وقـوة الحديد والنار ، ولمعان المدنية المتطرفة ٠

وكفى أن العالم الاسلامى اليوم ، نال مكانة عظيمة فى خريطة العالم ، وبلغ من الأهمية الاستراتيجية ما لم تبلغـه الدول الأخرى على وجه الأرض ، وملك من ينابيـع الذهب الأسود الذى يسير عجلة الحياة الصناعيـة فى العالم ومن القوى التى لم تخرج ولم تنتج ، ومن المجموعة الانسانية التى لم ترب ولم تثقف ما جعله فى كفاية وغناء عن أى اســـتيراد من الخارج ٠

وثانيا وهو الأهم من ذلك كله : أن المجتمع البشرى اليوم قد سئم ومل ويئس – أقر بذلك أم لا – من منبع أوربا الذى فقد زينته وآن أوانه وانقضى عمره ، وجف ماؤه ، ولم يستطع خلال كل هذه النهضة الهائلة الطويلة ، أن يضيف الى رصيد الانسان الا الحديد والنار والبارود والدخـــان ، والقنابل المدمرة ، والغازات السامة ، والآلات المبيدة ، الا الضمير الذى اعتاد الجريمة وتعود العصيان والتمرد ، ونشأ فيه ميل أكيد ورغبة جارفة الى الاثم والفاحشة، ضمير لا يؤمن الا بالنفعية ويؤثر العاجل على الآجـــل ، حتى ان المدنيـــة والثقافة والفن والحضارة التى نقرأ قصصها ورواياتها كأنها

روايات الجنة أو قصص الجزيرة الخيالية Utopia للسير مور ، من الحرية والأخاء والصداقة وعدم السرقة والخيانة وانجاز الوعد ، والنزاهة فى الحياة اليومية ، كل ذلك تابع لمبدأ النفعية ، وقد صدق من قال : ان الغربى لا يصوم اذ يصوم ليرفع فى روحانيته واشراقه ، انه يصوم ليقوى هيجانه وشهوته الى الطعام ، انه يربى بنى وطنه واخوانه ويعلمهم ويثقفهم ، لا لأن يكونوا قدوة للناس ، وأئمة يدعون الى الهدى ، بل ليقووا على استعمار الأمم والشعوب وهضم الحقوق وانتهاك الحرمات والمقدسات ، وشراء الأسواق ، ويريدون علوا فى الأرض وفسادا ، فبينما ترى الغربى صادقا فى وعده اذا حدد الموعد مع رجل فلا يتأخر دقيقة واحدة ، اذا هو يكذب فاضحا بدون حياء ويخدع بدون انسانية فى فلسطين وفى كل بلد شرقى ليس له به علاقة الدم واللون ، وبينما هو يتجنب سرقة فلس Peny فى مملكته ، يراه الناس سارقا غاصبا فى الشرق ، مستخدما فى ذلك كل وسيله مهما غرقت فى الدناءة والاسفاف ، وموجز القول ان المدنية الغربية قد افتضحت فى قارعة الطريق ، وظهرت علاتها وسوءاتها أمام العيون فى وجه النهار ، وهذا هو الجو العالمى والأوضاع المحيطة بالعالم الاسلامى ، وصلت بالعالم الاسلامى الى مفترق الطرق ، وأخذت بيده فى جادة الامتحان .

وانها تكون من الخيانة المردية والجناية العظيمة أن تقف

الأمة الاسلامية التى تملك رسالة السماء وتحمل فى يدهـا مشعل الهداية موقف المتفرج أو المتطفل ، وتخلع هذا القميص الذى كساها الله من قيادة الأمم واقامة الوصاية الالهية عـلى الأرض وتوجيه المجتمع البشرى ، فاذا عقد العالم الاسلامى نيته أن يتحرر من عبودية النفس ونير الاستعمار ، وينقـذ ملايين الملايين من الناس من عذاب الذل والهوان ، ويخلص الانسانية من أعدائها ويمسح دموعها ، ويأخذ بيد المجموعة البشرية المنتشرة على الأرض الى أفق أوسع وأرحب ، وحياة أنعم وأرغد ، وفوز فى الدنيا والآخرة ، فهو يحتاج الى جهاد طويل ، وكفاح شاق مرير ، وتضحيات واسعة النطـاق ، ويتطلب خبرة نادرة وتربية دقيقة ، ولكنها تتفق مع رسالتها، بل هى عين رسالتها وغرض بعثها ، وحجر الزاويـة التى يرتفع عليها الصرح الاسلامى .

انها تقتضى قبل كل شىء نفخ الايمان الجديد ، والروح الجديدة الوثابة ، والفكر الاسلامى الجريىء الثائر ، فى جماهير العالم الاسلامى ، لا سيما فى الشباب ، ومحاربـة مركب النقص فى قلوبهم الذى أكلهم وطغى عليهم من أجل التبشير والاستعمار ، والتعليم والتربية اللذين يتفقان مع روح الغرب وآرائه ، ووضع نظام تعليمى حر يتفق ومطالب الاسـلام ، ويبنى على حقائقه الخالدة التى لا تتغير ولا تتأثر ، وأن يقبل كل صالح جديد فالحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها ، ويخرج فوجا جديدا ، جديدا فى روحه ، جديدا فى فكرته ، جديدا فى ايمانه ، فهذا هـو الشىء الذى ينقص

المجتمع البشرى اليوم ، مع امتلائه من كل جديد وطريف ، ومن كل نادر وغال ٠

أما عن التعليم والتربية فقد يجب علينا أن نختار موقفا حاسما تجاه علوم الغرب ، ونأخذ منها ما ينفع والذى أعطاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم اسم « العلم النافع » فالعلم الذى لا ينفع ولا يفيد ليس علما من وجهة نظر الاسلام وانما هو قتل الوقت الثمين الذى يجب أن يبذل فى ميدان الدعوة والجهاد ، والهداية والارشاد ، فاذا قررنا الفلسفة الغربية الحديثة فى منهاج التعليم كنظرية دارون وفرويد ، واقتصاديات هيجل وماركس ، وفلسفة التفسير المادى للتاريخ مثلا ، فاننا نضعها منا موضع النقد لا موضع التقديس كما هو الحال اليوم فى العالم الاسلامى كله ، أما تفاهات الفلسفه التى تعنى بالغيب وما بعد الطبعيات ، وتريد أن نطلع على ألغاز الكون التى لا يعلمها الا الله وتعالج أمرا ليس فى قدرتها ، فهو فى نظرنا لا يقل عن جهالة علماء اليونان والرومان فى شىء ، وحكمنا فى كليهما واحد ، ويجب علينا أن لا نضيع وقت أبنائنا بهذه السخافات التى لا تتصل بالعمل والحياة وانما الشىء الذى يهمنا هو مجرد علم الطبيعه Exact science والعلم التطبيقى Applid science وعليه تركز قوتنا ، ونضعه فى الصف الأول ونعطيه أهمية كبيرة فى نهضتنا الصناعية والعلمية الجديدة ، وبالعلم التطبيقى وحده يستطيع العالم الاسلامى أن يقوم بأعبائه كاملة ٠

أما الصناعة بأوسع معناها فانها أيضا تتوقف على العلم التطبيقى ، وهو أمر مهم جدا ، ولعل الأهم منها « الصناعة الحربية » فى الوقت الحاضر ، عدا الصناعات الأخرى التى يجب علينا أن نحذفها ، ونضعها فى محل الصناعات التى نستوردها من الخارج ، والصناعة الحربية تتطلب أهمية كبيرة ومهارة فنية ودقة وحذاقة ، بحيث لا تقل فى صورتها وسيرتها عن صناعة الدول الأخرى ، بل تفوقها ، فنؤسس مصانع هائلة لصنع الطيارات والقنابل والدبابات الثقيلة ، وندرب قواتنا على أحدث الخطط الحربية ، والمعادن والكنوز والذخائر العظيمة المنتشرة فى العالم الاسلامى بأسره تجعلنا فى غناء عن الأجانب .

وهنا شىء آخر أهم ، وهو أن نقيم علاقاتنا التجارية والصناعية بدول الشرق بدلا عن دول الغرب ونتبادل بها المصنوعات والبضائع ، فالشرق بالطبع ــ وكل يعرف ذلك ــ صديق لنا وصاحبنا ضد الاستعمار ، وهو أيضا يريد أن يتخلص من براثنه ويتحرر من عبوديته ويعيد مجده ويحفظ كيانه ، وكذلك نستطيع أن نحفظ أنفسنا من دسائس المستعمرين ومؤامراتهم الى حد كبير ، ونكسب أصدقاء جددا ربما يكونون أقرب نسبا وأكبر نفعا من أعدائنا القدامى ، ونحصل على تأييدهم وموازرتهم فى معركة التحرير ولا شك أننا اذا كسبنا صداقة الشرق ووده وقامت بينه وبين العالم الاسلامى علاقات وطيدة وأواصر قوية ، فانه يكون فتحا جديدا ، ونصرا كبيرا للشرق الاسلامى .

ومن الواجب على أن أشير بصراحة الى أنه لا يصلح أمر العالم الاسلامى اذا بقى الشعب ساخطا على الحكومة والحكومة ناقمة من الشعب بل لا بد هنا من تعاون رجال الاصلاح والدعاة ، والمبشرين والمنذرين ، ولا يمكن ذلك الا اذا صلحت النية وصحت العزيمة ، واتحدت الغاية ، فعلى كل واحد منا أن يعمل فى حقله ويؤدى حقوق صاحبه ولا يبتغى رضا أحد ، ولا يرجو من رجل كلمة خير ، انما هو يعمل لله ، وهو وحده يجزيه بجهاده ، ومن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » .

ومن الواقع المؤلم أن تاريخ العالم الاسلامى بعد الخلافة والرحمة ، يبدو كأنه تاريخ صراع بين رجال الشعب ورجال الحكم ، مع أنهما ركاب سفينة واحدة وتوأمان لا يفترقان .

ان الفراغ الذى حدث فى قيادة الانسانية اليوم فراغ رهيب ، ولكنه فراغ لا يستطيع أن يملأه أحد الا العالم الاسلامى ، لأن العالم الاسلامى هو وحده مصباح الهداية والارشاد فى بحر الظلمات انه يحفظ فى وعائه ايمانا أفلس فيه الشرق والغرب ، ودستورا لا يقبل النسخ والنقد ، وتاريخا ناصعا لا تضارعه فيه أمة ، وحكمة ربانية هى مفتاح كل قفل وحل كل مشكلة « تنزيل من حكيم حميد » وذلك فى حين فرغت فيه يد الانسانية من كل مثل عال ، وتعليم خلقى ، فلا ترى فى وعائها الا قطعة من حجر أو شذرة من ذهب .

اسلام « المسالمين »

نحن كلنا مع الاسلام ، ما فى ذلك شك ،

نحن مع الاسلام دائما ، وبصفة عامة ، والحمد لله على هذه النعمة العظيمة ، الباقية ، ان شاء الله ٠

ولكن ٠٠٠ لسنا مع ذلك الاسلام الذى لا تضره حركة سياسية ولا تنال منه دعوة اجتماعية « وانطلاقة ثورية » ، ولو خالفت أهم قواعده وأولى مقوماته ، وينسجم مع سائر الأوضاع والملابسات ولو عارضته من أول الطـــريق وبداية الخط ٠

بين اسلام « مضمون » عقد عليه فى شركات التأمين ، فلا تفسده خيانة ، ولا يفسده نفاق ، ولا يضره استهتار ، ولا ينال منه اسراف ، ولا يكدر بحره الزاخر فجور ثقافى ، وخلاعة أدبية وفضيحة فنية ، وعرى علمى ، وكفر منطقى ، وانكار قومى ، وشذوذ سياسى ، لأنه اسلام مضمون مسجل ، شهد بسلامته ومتانته وجودته « كبار تلاميذ الغرب ووكلائه الموزعين فى الشرق » ٠

انه اسلام يسمى فيه المولود مسلما بحكم القـــانون والوراثة ، ويبقى مسلما ليتمتع به بما شاء من منافع مادية

وأدبية ، ولا يحتاج الى تجديد فى ايمانه ، لأنه ولد من أبوين مسلمين وكفى .

انه اسلام جامـــد ، واقف ، لا ينقص ولا يزيد ، ولا يتحرك ، ورحم الله البخارى فقد عقد بابا تحت هذا العنوان « الايمان يزيد وينقص » وهو لا يعلم أن فى بلده وفى البلاد الاسلامية العريقة قوما لا تضرهم اشتراكية ماركس الملحدة ، وكفر لينين البواح ، ولا ينقص ايمانهم بشىء من هذه الاشياء، وغير هذه الأشياء .

انه اسلام سلبى ، لا يتدخل فى شئون المجتمع والحياة ، بل يترك الحبل على غاربه ، ويدع جيله تحت رحمة الموجات المـادية الطاغية والأفكار السامة ، والأدب المـــائع ، فيترك المجتمع فريسة سهلة ولقمة سائغة أمام ذئاب الانسانيـــة ووحوش الحضارة ، وقراصنة السياسة ، ولصوص الـــدين والأدب ، ويظن انه سينجو بنفسه وبأبنائه ، ويقول كما قال ولد سيدنا نوح عليه السلام « قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء » ثم لا يلبث أن يجرفه التيار المارد العنيف ، وتسوقه هذه «السلبية البريئة » الى كل ما عافه ، واستنكفه ، ومقته ، ومجه ، وحال بينهما الموج ، فكان من المغرقين » .

ان هذا الاسلام يعيش جنبـــا الى جنب مع كل كاتب يبيع الهوى وينشر المكر ، ويروج بضاعة الفحشاء ، مع كل أديب يحسن الكتابة ، ويجيد الوصف ، ولو تطاول على ذات الله عز وجل ، ومقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويستمع

بكل أناة وصبر وشرح صدر الى كل حوار لبق وكلام شيق ، وحديث حلو ، ولو كان حالقا للدين ، ماحقا للايمان ، هادما للأخلاق ، وينظر الى كل صورة على الشاشة ولو ذهبت بالحزم والحلم ، واللب والعقل وأطار الرشد والصواب ·

هذا الاسلام يمشى مع سائر التقلبات والموضات الفكرية والمذاهب الاجتماعيـة والسياسيـة ، والحركات التقـدمية الثورية ، فى الهند الصينية أو فى أمريكا اللاتينية ، ومع كل فريق من المغنين والمصورين الهائمين والحالمين والشذاذ الأفاقين ، لأن « تمشى » هذه « الكلمة السحرية » تضع فى يد هؤلاء القوم « ورقة مرور » يتعدون بها كل حد ، ويحطمون بها كل سياج ، ويهيمون بها فى كل واد وناد ·

انه اسلام « المسالمين » لا المسلمين ، فى تعبير أصـح وأفصح ، لأنه يسالمجميع الألوان والأنواع الحضارية الموجودة فى العالم المعاصر ، ويتبع كل سبيل غير سبيل الرشد ·

ان هذا الاسلام لا ينقص بالتهاون فى حقـوق الله ، والاستهانة بشعائر الدين ، فاذا وقع عنده صدام بين عبادات وأعمال سياسية واجتماعية طغت الأعمال السياسية عـلى العبادات والصلوات ، ولذة التقرب الى الله والدعاء والمناجاة ، واذا حدث له شىء أو شغله أمر من تحـرير فى صحيفة أو خطاب فى حفل ، أو قيادة لموكب أو رفـع لمذكرة احتجاج أو قضية فى برلمان ، أو حديث فى مأدبة ومسامرة فى عشاء أو نزهة فى حديقة ، وحتى فنجان شاى بين الأصدقاء ، نسى ما

عليه من حق الله ، وهو فى دوامة الأشغال والنشاطات ، وفى المشكلات والأزمات أولى بالطاعات وأحق بالدعاء والتضرع والمناجاة ، وأحوج الى العبادة والعبودية من الأوضاع الهادئة والظروف العادية ، فلا اعتبـار بطاعة لم تصطدم بمـا يهواه الطبع ، وعبادة لم تشق عـلى النفس ، ولا قيمة لكأس لم تطفح ، وعين لم تفض .

انها درجات فى الاسلام ، ولكنه على كل حال اسلام « المسالمين » ، أما اسلام المسلمين فهو لا يقبل « على ما يرام » ولا يؤمن بمبدأ « الدين للديان والوطن للجميع » ولا يجمع بين الخطب الدينية فى المحافل ، والترفيه بالبرامج العارية الراقصة ، الفاسدة المفسدة بعد صلاة العشاء بين أولاده وأفلاذ أكباده .

انه لا يؤمن بالجمع بين حضارة الغرب وعقيدة الاسلام ، وبين الزى الاسلامى والحيـاة الأوربية ، والجمع بين الحديث والقرآن وأفكار لينين وسارتر وماوتسى تونغ .

انه لا يؤمن بالجمع بين عبد الباسط وأم كلثوم ، والجمع بين المصاحف المرتلة والموسوعات الفقهية ، وأغانى صباح ، وفيروز وشادية ، أو الجمع بين « المجتمع » و « البـلاغ » و « البعث الاسلامى » وبين روز اليوسف والموعد والطليعة .

انها صورة جزئية ، وصـورة بسيطة ، وأمور ليست بذات أهمية عند البعض ، ولكنها تصور ذلك الاسلام الذى أشرنا اليه كل التصوير ، اسلام من « ماركة ممتازة » لا يؤثر

فيه شيء ، ولا يعتريه البلى والوهن ، ولا ينقص بنقصان شرع ودين ومسالمة واستسلام أو انسياق تام مع تيارات المـــادة والمعدة ، واتجاهات الغرب والشرق ، واليمين واليسار .

نحن مع الاسلام في كل مكان ، ما في ذلك من شك ، الفرعى ، المتطفل .

نحن مع الاسلام القائد ، السائد ، المعلم ، الموجـــه ، ولكن مع الاســـلام المستقل الأصيل ، لا الاســـلام التابع ، لا الاسلام الذى يتلقى الأوامر والتعليمات من « الباب العالى » في موسكو ، و « البيت الأبيض » في واشنطن .

مع اسلام لا ينكر العلم والســـياسة ، بل ان العلم والسياسة فيه عبادة ، ولا يهمل الطاعة والعبادة ، فهى مفزع المؤمن ومأمنه ، وحصنه ومعقله ، وأكبر همه وغاية مناه .

مع اسلام مناضل مكافح متصل الحلقات بجميع آجزائه، وثيق العرى بجميع حركاته وتنظيماته ، عميق الحب بجميـع أبنائه ، كثير الاعتراف بالفضل ، عظيم التقدير لذوى الكفايه والاخلاص ، كثير الشكر على المساهمة والتعاون ،

هذا الاسلام العميق الواسع ، المشرف النير ، الكامل الشامل ، الأصيل المستقل ، المكافح المناضل .

الاسلام الذى يتكلم ولو كره الصليبيون الجدد ، الحمر ، والبيض ، والصفر ، ويرفع صوته لتنظيم المجتمع والحكم ،

والأسرة والعائلة على أسس نقية واضحة من السيرة الطاهرة، والشريعة الخالدة ، والكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

هذا الاسلام هو العنصر الأقوى فى معركتنا الكبرى ، وردنا الحاسم على هواة الفساد ، ودعاة الانحلال ، والمتآمرين على سلامة البلاد ، ونعمه الأمن والهناء باسم الحرية والعلم والتقدمية والاشتراكية والثورية .

طبيعة هذا الدين

هذا الدين فى أساسه ثابت لا يتغير ، كامل لا ينقص ، كل لا يتجزأ ، انه لا يحتاج الى تطوير ولا يقبله ، ولا تؤثر فيه الأحداث الاجتماعية والتطورات الحضارية والانقـــلابات الفكرية والثورات السياسية ، أيما تأثير ، لأنه بنى على الوحى السماوى ، وتنور بنور كتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعاش تحت ظـــلال النبوة التى لا دخل فيها للآراء الانسانية التى تخطىء وتصيب، والتجارب العلميه التى تنجح وتخفق ، والأفهام البشرية التى تختلف مداركها ومستوياتها ، وقد صور القرآن نفسية هذا الدين وطبيعته ، وثباته فقال : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حـــين باذن ربها ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فـــوق الأرض ما لها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء[١] .

وقال فى موضع آخر :

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم[٢] .

---

(١) ابراهيم : ٢٧ .

(٢) الأنعام : ١١٦ .

انه وصف الدين بالثبات والقرار ووصف المذاهب الأخرى بالزوال وعدم الاستقرار كنقطة فاصلة بينهما ، لان هذه المذاهب الوضعية والصناعية والسطحية لا جذور لها فى داخل الأرض وليس عندها الا ما يبدو للناظر فى ظاهر الأرض من زخرف القول غرورا ، وذلك عبر عنه القرآن فى موضع آخر فقال : « فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا »(١) .

اذا كيف نقول : ان الدين يتطور مع الزمن ؟ والجواب أنه يتطور كما تتطور الشجرة المباركه ، الحية الناميه ، مع المحافظه على أصلها وجذورها ، ان الله سبحانه لم يشبه هذا الدين فى ثباته واستقراره بصخرة صماء لا نمو فيها ولا مرونه ولا حياة فيها ولا خصوبة ولا نعومة فيها ولا جمال ، لا انه – كما وصف كتاب الله – شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، وذلك دليل باهر من دلائل الاعجاز فى القرآن ، واستيفاء هذا الدين جميع حاجات الانسان فى كل زمان ومكان .

فما هو الأصل الثابت فى الدين الذى لا يقبل التغيير والنسخ والتبديل فى أى حال من الأحوال ، ثم ما هو أكله الذى يتغذى به الأصل وينمو على أساسه ويستقى الماء والخصب بهذا الأصل الثابت والنبع الصافى العميق؟ والجواب

---

(١) النساء : ٧٦ .

أن أصله الثابت هو التوحيد ، والعبودية الخالصة لله ، والايمان بالغيب والنبوة واليوم الآخر ٠

أما أكله فهى الدرجات التى ينالها المؤمنون ـ بفضل من الله ورحمة ـ فى الدين والتقوى ، والعلم والحلم ، والايمان والاحتساب ، وحسن البلاء فى الدعوة والاصلاح ، انها النفحات الالهية ، والعلوم الربانية ، والمعارف الدينية ، والجهاد والاجتهاد لنشر رسالة الاسلام فى الآفاق ، واجراء شرائعه على البلاد والعباد ، والذب عن حوزة الشريعة الغراء ، وصيانة هذا الدين من « تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » ٠

انها المحافظة على نقاء الاسلام وصفائه ، وأصالته واستقراره ، وازالة الغبار عن جوهره ، والوفاء به ، والولاء له ، والثبات عليه ، والاستماتة دونه ، وايثاره على كل ما عداه من مذاهب وديانات ، ونظم وحركات، رضى الناس أم سخطوا وأقبلت الدنيا أم أدبرت « درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما »(١) ٠

هذا هو الأساس المقرر الثابت فى الاسلام ، المفهوم المعلوم عند الصحابة الكرام ، والمسجل المضمون فى الحديث والقرآن ، والمطلوب من العبد المؤمن الذى لا يبتغى غير وجه

---

(١) النساء : ٩٧ ٠

الله ولا يجرى وراء أهوائه وشهواته وميوله ونزعاته أن يعض على هذا الأساس بالنواجذ فهى المحجة البيضـــاء التى ورد ذكرها فى الآثار على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يعرف ـ بنور من ربه وفراسة ايمانه ـ ذلك الخط الدقيق الذى يتغير به اتجاه المرء من جهة الى جهة وينحرف به ـ وهو لا يشعر ـ عن جادة الصـــواب ، والصراط المستقيم الـــذى يسأل الله الهداية اليه كلما قرأ الفاتحة فى الصلاة .

وخط الانحراف خفى دقيق لا يطلع عليه الا من قذف الله فى قلبه نوره وأراد به خيرا وهيأ أسبابه ، والآيات التالية تدل على بعض مواضع الزلل والنقصـــان التى تزل عندها الأقدام وهى تدور حول الاعجاب بالقول الظاهر المزخرف ، والاعجاب بالأموال والأولاد ، والركون الى الطغاة والظالمين ، وتلبيس الايمان بالظلم أو الهوى وغـير ذلك من المفـــاهيم والاشارات .

١ ـ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام(١) .

٢ ـ واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبالذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون(٢) .

---

(١) البقرة : ٢٠٤ .

(٢) الزمر : ٤٦ .

٣ ـ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا[٣] .

٤ـ ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار[٤] .

٥ـ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون[٥] .

٦ ـ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم[٦] .

٧ـ قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة[٧] .

٨ ـ الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون[٨] .

٩ ـ أما أنا خير من هذا الذى هو مهين ، ولا يكاد يبين[٩] .

انها وأمثالها من آيات كثيرة يزخر بها القرآن تدلنا على

---

(٣) النساء : ١١٦ .
(٤) هود : ١١٤ .
(٥) التوبة : ٨٦ .
(٦) البقرة : ٢٢١ .
(٧) الأعراف : ١٣٨ .
(٨) الأنعام : ٨٣ .
(٩) الزخرف : ٥٣ .

خطوط الانحراف ، على النقـــاط التى ينشأ منهـــا الزيغ ، والثغرات التى يتسلل منها الفساد ، والمواضع التى تبذر فى نفوسنا بذور الاعجاب بالجاهلية ، ومفاهيمها وأقدارها ، والركون الى الظالمين أو الى الحضارة التى تقوم على الظلم ، والانفتاح على الدنيا أكثر من الانفتاح على الآخرة ، والاقبال على الخالق ، والاتصال بهذا الكون أكثر من الاتصال بفاطر الكون ، والايمان بالمشهود العاجل أكثر من الغائب الآجل ، وقله الخوف من النار وقلة الرغبة فى الجنـــة ، والتفكير فى تنظيم هذه الحياة وتحسينها واصلاحها أكثر من التفكير فى الدار الآخرة وثوابها وعقابها ، والاعتناء بالمجموعة أكثر من وحداتها ، والحرص على جمال البناية أكثر من الحرص عـــلى صحة لبناتها ، والاهتمام الزائد بظاهر السفينة وطلائهـــا أكثر من الاهتمام بألواحها ، والتوجه الى انقاذ البشرية كلها أكثر من انقاذ نفوسنا وأهلنا وعشيرتنا .

يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا(١) .

يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعـــا فينبئكم بمـــا كنتم تعملون(٢) .

---

(١) التحريم : ٧ .

(٢) المـائدة : ١٠٦ .

ويظل الانسان ينحرف أو يبتعد عن هذا الخط النبوى حتى ينسى نفسه ، وينسى غاية أعماله في زحمة الاحداث والأشغال ويؤخذ بالمظاهر ويتلهى بالأشكال ، وتراه بعض الأحيان يخالف أبسط قواعد الدين ويخرج على أصالته ، ويخالف مبادئه ومقوماته باسم مصلحة الدين وحكمة الدين وتحت شعار « العقل العملى » و« استراتيجية الدعوة » بعض الحين ·

ثم تتغير الموازين والمقاييس بصورة تدريجية وبحركة لا ارادية ، وتفقد الامانة والايمان ، والنزاهة والصدق ، والاخلاص والنية وسلطانه وحرمته فى القلوب ، حتى يقال — كما جاء فى الحديث — « ما أعقله وما أظرفه وما أجلده وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان »(١) ·

انها حالة نفسية تنتاب الدعاة المثقفين والعاملين المخلصين فى بعض الحالات فيفسد عليهم اخلاصهم مع الله ، وصلتهم بالله ووفاؤهم لهذا الدين ، واتباعهم لسنته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعلق قلوبهم بالصلاة والدعاء(٢) ،

---

(١) متفق عليه ·

(٢) وقد يبلغ الأمر ببعض هؤلاء وتطغى عليهم الشكليات والمواعيد واللقاءات الى حد تراهم لا يتحمسون للصلاة تحمس من سمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت قرة عينى فى الصلاة » وقوله « أرحنا يا بلال » وقد تفوتهم الناحية التعبدية وتزكيه النفس تماما ، وقد روى والدى رحمه الله قصة طريفة تدل على هذا الواقع الأليم ، قال أنشئت هناك جمعية لاقامة الصلاة قبل زمن يسير ، وكانت مؤلفة من بعض « المثقفين » وعقدت

وتحرقهم – تحرق المفجوع في وحيده أو في رأس ماله – على مصير الانسانية الحائرة وعلى مستقبل هذا الدين ومصير الدعوة ، واحترامهم وحبهم واجلالهم للصحابة والتابعين حبا واجلالا يليق بشأنهم ، والثقة بفهمهم للدين ونزاهتهم وارتقائهم عن مستوى الشبهات أو مستوى عامة الرجال تمام الثقة ، والاعتزاز باقتداء آثارهم كل الاعتزاز ، والتشبع بحب سيدنا وقائدنا ومعلمنا وشفيعنا محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي صلى الله عليه وسلم حبا يفوق على حب النفس والمال والأهل والولد مطابقا لما جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين »(١) فيجب على كل عامل مخلص لهذا الدين أن يتجنب هذه المزالق التي تعترض طريقه في بعض مراحل الدعوة ولا تسمح له أشغاله المتزاحمة

الجمعية حفلتها الأولى بعد صلاة العصر ، فلما حانت صلاة المغرب وأذن المؤذن لم يحرك ذلك ساكنا حتى لم يتمالك هو نفسه ، وكان الوقت قد تأخر وسأل زعيم القوم أن يختموا الحفلة ويتوجهوا للصلاة ، فقال مستغربا أو ليست هذه الحفلة في سبيل الصلاة ؟ واشتغل القوم بدراسة الصلاة ومعانيها والضرورة اليها وتأثيرها في المجتمع المسلم – وانصرف هو وحده الى المسجد ، يشكو بثه وحزنه الى الله .

(١) كان شاعر الاسلام الدكتور محمد اقبال موفقا كل التوفيق في فهم هذه النكتة وضرورة الاتصال الوثيق بشخصية النبي اذ قال : اننا نعتقد أن الاسلام دين أوحى الله به ولكن وجود الاسلام كمجتمع أو أمة يتوقف على شخصية محمد صلى الله عليه وسلم .

(أنظر « النبي الخاتم » لسماحة الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي)

ونشاطاته المتلاحقة ورحلاته المتصلة المتوالية بالتأمل فيها والاحتراز منها ، وتمييز المفسد من المصلح ، والضار من النافع ٠

ان طبيعة هذا الدين غير طبيعة الدعوات الأخرى ، ومنهجه غير منهجها ، وأسلوبه غير أسلوبها ، ولغته غير لغتها ، وسحنته غير سحنتها ، ونبرات صوته غير نبرات صوتها ، وأتقدم خطوة فأقول ان قسمات وجهه غير قسمات وجهها ، وكيف لا يكون ذلك فدعوة الدين هى الدعوة الى الآخرة ودعوة المذاهب الوضعية هى الدعوة الى الدنيا ، دعوة الدين الى تحسين الحياة الطويلة الباقية « وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون »(١) ودعوة الحركات السياسية والمذاهب الاقتصادية والسياسة الى تحسين الحياة القصيرة الفانية « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون »(٢) ٠

فينبغى أن يتجلى هذا الفارق الأساسى والخط الفاصل المميز بين الدعوتين فى سائر أجهزة الدين وفروعه وأجنحته ونشاطاته وتصرفاته وفى نظرته العامة الى الحياة والأحياء ، بل الى جميع الأشياء ، حال من جاءه برهان من ربه وذاق حلاوة الايمان وفتح الله عليه باب المعرفة والاحسان وأوتى نعمة الفرقان بين الحق والباطل ، فتكيف سلوكه وخلقه

---

(١) الأنعام : ٣٢ ٠

(٢) الشعراء : ١٢٩ ٠

ونشاطه وجهاده بهذا الايمان ، وظهر ايمانه بالغيب على ايمانه بالمشهود ، واقباله على الدار الآخرة على اقباله على الدنيا ، وطمعه فى النجاة من النار على طمعه فى الرقى والازدهار والفتح والانتصار ، اذا كان ذلك من غير قلب سليم ، ونية صالحة ، وعاطفة ايمانية ودعوة ربانية وروح نبوية وفى حدود معلومة واضحة نطق بها الكتاب والسنة ، وحددتها الشريعة السمحة الغراء ودرج عليها الصالحون وأجمع عليها العلماء الربانيون ، ولم تدنسها شوائب الحضارة الماديه ، وسموم الثقافة الغربية والأفكار اللادينية .

ان القرآن حرص دائما على أن يبقى هذا الفرق واضحا لكل ذى عينين وحتى فى الأشياء التى تتعلق بالادارة والبناء والتصميم(٣) ، والحياة المنزلية والآداب اليومية والمعيشة العامة لتظل الأمة الاسلامية شامة بين الناس لا فى الشارة واللباس والاسم والعنوان ولغة الحديث والقرآن بل فى الذوق والوجدان ، فى العقل والقلب ، فى الضمير ومكنونات الصدر، وفى سلوك الفرد وسلوك الجماعة ، وسلوك الدولة ، وسلوك الامه ، فى سائر مجالات الحياة وفروعها .

وهنا نقطة أخرى لا ينبغى اغفالها وهى آن طبيعة هذا الدين « قوة ذاتية » أو قل اذا شئت نورا الهيا ومسحة من

---

(٣) اقرأ تفسير قوله تعالى فى سورة يونس : « واجعلوا بيوتكم قبلة الآية .

جماله ـ جل وعلا ـ وهى غنية بهذه القوة أو بهذا النور عن استيراد أى « طاقة » أو وسيلة معنوية من الخارج لتقريب مفاهيمه ومنهجه وسلوكه الى أفهام البشر وذلك ما شعر به واطلع عليه مشركو مكة « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »(١) وكانوا يمنعون أولادهم عن حضور مجالس النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى لا ينجذبوا الى هذا الدين ، وقصة ايمان سيدنا عمر بن الخطاب وتلاوة سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنهما التى كانت ترق لها القلوب القاسية الجافة ، نماذج رائعة لهذه القوة الذاتية فى المنهج الاسلامى الأصيل ، يدل على ذلك دلالة واضحة ما رواه ابن كثير فى تاريخه فقال : « لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع موقيه فأمسكهما بيده وخاض الماء ومعه بعيره فقال أبو عبيدة قد صنعت اليوم صنيعا عظيما عند أهل الأرض ، صنعت كذا وكذا ، قال فصك فى صدره وقال لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة انكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس فأعزكم الله بالاسلام فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله »(٢) .

وليس المراد من هذا القول ـ كما يشعر البعض ـ

---

(١) حم السجدة : ٢٦ .

(٢) البداية والنهاية ٧/٦٠ ورواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرطهما .

جاهلية سافرة أو ألوانها المكشوفة لا بل انه يعم سائر عروقها وخطوطها وألوانها وبصماتها فى الصدور .

هذه القوة الذاتية فى الاسلام ، ومعرفة طبيعتـــه ، والوفاء بمنهجه ، والثبات على جادته واستعمال قوته جعلت الصحابة والتابعين والشهداء والصالحين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين فى غنى عن كل منهج جاهلى ومظهر جاهلى وخط جاهلى .

ان طبيعة هذا الدين وروحه تقتضى أن نستعمل قوته الذاتية بدلا من الاعتماد على وسائل القوة والتأثير الخارجية اعتمادا زائدا ، تاركين هذه القوة الكامنة فى الصدور وراء الظهور ، وأن نتقدم بحمل لواء هـــذا الدين ونشر دعوته باختيار المنهج النبوى فى الدعوة والهداية والقيادة، وأسلوبه الممتاز فى الكفاح لدين الله والجهاد لاعلاء كلمة الله ، والمحافظة على أصالته ومعرفة طبيعته ، وتذوق حلاوته وصيانة روحه المشرقة وصفحته البيضاء التى تراكم عليها الغباربتأثير البيئة الفاسدة ، والجـــو الموبوء ، ووجودنا بين الجاهليات الحـديثة وتياراتها العنيفة التى تلاحقنا من كل جانب .

لقد جاء فى الحديث : يأتى على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر(١) .

---

(١) رواه الترمذى عن انس .

وأثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة على آخر هذه الأمة ايمانهم بالغيب وثقتهم بوعد الله حينما سأله أمين هذه الأمة أبو عبيده بن الجراح فقال :

يا رسول الله أحد خير منا ، أسلمنا وجاهدنا معك قال : نعم ! قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى(١) .

ومن ثم فان مشكلاتنا فى هذا الطريق ومحافظتنا على هذا التراث النبوى العظيم من العلوم والأعمال وحرصنا على روح هذا الدين النقى الخالص والعض على كل ذلك بالنواجذ هو نفسه يدلنا دلالة واضحة على صحة الهدف والاتجاه وسلامة الأفكار والأرواح ، وهو كفيل بالفلاح فى الدنيا والنجاة فى الآخرة ، ان شاء الله .

وقد بشر لسان النبوة هذا الجيل المؤمن بكونه على الحق وسلامته عن الفتن والأخطار ، وثباته على الجادة الى يوم القيامة فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك(٢) .

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه مسلم عن ثوبان .

أهلا بهذه المؤتمرات .. ولكن ..!

نشأت فى العالم الاسلامى(*) فى هذا الوقت رغبة مخلصة أكيدة فى دراسة الاسلام دراسة وافية فى مختلف نواحيه ، والدور الذى يمكنه أن يلعب فى تنبيت دعائم العالم الاسلامى ، واستقراره ، وبروزه فى الوجود كحقيقة ثابتة وواقع حى ، وعقد مؤتمرات وندوات لتحقيق هذه الغاية ، وكان مؤتمر « لاهور » الكبير(١) نتيجة من نتائج هذه الرغبة، وأثرا من آثارها .

وان الغاية من وراء هذه المؤتمرات ـ كما يبدو منها ـ هى شرح الفكرة الاسلامية أمام الطبقة المتعلمة فى العالم الاسلامى والقائمين بأمره ، وايضاح ما تحويها هذ الفكرة من صلاحية مدهشة لحل مشاكل الانسان ، مشاكل السياسة والاقتصاد ، والأدب والتاريخ ، والمدنية والعمران ، وتقديم أبحاث مبسوطة متنوعة فى كل ناحية من نواحيها ، وذلك ما آمنا به جميعا ، واتفقنا عليه ، ولكن أحرص أن لا تفوتنا ـ ونحن فى مرحلة البناء والتعمير ـ اللبنة الأساسية ، فتأتى

(*) هذا المقال كتب عن مؤتمر لاهور الاسلامى الذى انعقد فى يناير ١٩٥٨ هـ لدراسة الشئون الاسلامية .

عمارة معوجة ، مهدد بالأخطار فى كل حين .

لذلك أرجو من القائمين بأمر هذه المؤتمرات والعاملين لها أن يكونوا أعمق تفكيرا ، وأكثر واقعية فى معالجة هـــذه الأمور ، حتى لا تطغى ناحية على ناحية ، وتفوت بعضها على الآخر على الاطلاق .

ما هى أزمة العالم الاسلامى اليوم شعبا وحكومة ؟ اذا فكرنا فى هذا الأمر عن طريق عملى غير طرقنا وأساليبنـــا المعروفة رجعنا منه بنتيجة غير النتيجة **التى رجع بها كثير من الباحثين والعلماء ، ان أزمة العالم الاسلامى أنه لا يعمـــل بعشر ما يعلم ويؤمن به ، وأن هناك هوة** منفجرة بين الحيـــاة النظرية والحياة العملية فى أمتنا المسلمة .

هنا كثير من الناس يعلمون أن الصلاة مفروضة عـــلى المسلمين ويعلمون أكثر من ذلك ، ولكنهم لا يصلون ، أو على الاقل لا ينشطون لها ، كما يوجد هنـــا رجال يكتبون فى فلسفة الزكاة ولا يؤتون الزكاة ، لا أقول أن الجميع كذلك ، ولكن ذلك يدل على مبلغ التفاوت بين علمنا وعملنا .

انى لا أقلل قيمة هذه الجهود العلمية والاسلامية ، ولا أهمل شأنها ، فلا شك أن هذا الكفاح العلمى قد أدى دورا كبيرا فى منع الشباب المسلم الجامعى من الوقوع فى شبكة الشيوعية والانجذاب الى الحضارة المادية ، وله فضل كبير لا ينكر فى هذه الناحية ، ان الشىء الذى أريد أن ألفت اليه

الأنظار هو أن هناك مسألة أهم وأخطر للعالم الاسلامى ، وهى مسألة التوفيق بين عقله وعاطفته ، وبين عقيـــدته وحياته ، وبين علمه وعمله ، والبحث فى امكانيات تنشيط قواه العملية للسير فى هذا الطريق « طريق الايمان الايجابى » اذا صح هذا التعبير .

ان الكتب والمؤلفـــات التى نشرت فى شرح الفكــرة الاسلامية من نواح عديدة ، موجودة مطبوعة ، ميسرة متوفرة، فهل غيرت هذه الكتب تغييرا ما فى اتجاه العالم الاسلامى دولا أو شعوبا ؟

وهل نجحت هذ المؤلفات العلمية والأبحاث المقنعة فى ايجاد الايمان الحى والحياة الاســـلامية العملية فى المجتمــــع الاسلامى ؟ الجواب فى النفى ! لا أشك للحظة أننا فى حاجة دائما الى مزيد من التقدم العلمى فى هذا المجال ، ومزيد من الجهود العلمية نظرا الى التطورات الحديثة فى المجتمع والحياة ، ولكن يجب أن نتأكد أننا لم نعمل بعد على كثير مما عرفناه ، وأننا لم نطبق بعد على حياتنا أبسط المبادىء الاسلامية التى نعرفها ويعرفها كل مسلم متعلم .

اذا كانت المسألة مسألة دراسة فقط أو مسألة تقديم بحث أو وضع دستور فحسب لكان ذلك أهون علينا ، ولم يكن هناك داع ولا مبرر لارهاق أنفسنا عبثا ، والبحث عن أساليب أخرى ولكن القضية أجل منه ، انما هى قضية ايجاد حل لرغبه المجتمع المسلم عن مقومات الحيـــاة الاســـلامية

ومطالبها ، واهماله كثيرا من واجباته الخلقيـة والدينية رغم هذه المؤلفات والأبحاث والمؤتمرات !

ان التوفيق بين هاتين الناحيتين المهمتين والسير بهما هو الحل الوحيد لهذه المشكلة الـكبرى ، بل اسمحوا لى أن أقول : **ان الروح المعنوية والقوة العملية فى هذه الأمة هى فى الواقع أساس كل كفاح ، ومنبع كل خير ، وباعث كل تغيير فى حياتها** ، فاذا كانت هذه القوة الكبرى نائمة فيها فلا رجاء فى رقيها ونهضتها ، وبعثها من جديد .

فالواجب علينا أن نثير أولا قلب هـذه الأمة ونجذبه عمليا الى الاسلام مع الاستمرار فى جهودنا لاقناعها عقـلا ودراسة بتفوق الفكرة الاسلامية من نواح شتى .

وهذا هو الشيء الذى كان ينقص مؤتمر « لاهور » ويبدو أن المساهمين فيه لم يعيروا هذه المشكلة الكبرى العناية التى تستحقها ، ولم يعطوها المكان اللائق بها ، وهى مؤاخذتنـا عليه ونصحنا له مع ايماننا بضرورة هذه المؤتمرات ونفعها ، وتمنياتنا المخلصة لنجاحها وازدهارها .

موقف المسلمين ازاء الحضارة الغربية

كانت نهضـة أوربا واستيلاؤها ـ فكريا وسياسيا واقتصاديا ـ على العالم المعاصر ، حادثا كبيرا بالنسبة للعالم الاسلامى ، الذى لم يعد نفسه لمواجهة هذا الواقع المفاجىء ،

وبات فى سبات عميق ، لم يحسب لهذه الأخطار المحـــدقة حسابا ، ولم يعر لهذه العاصفة الفكرية الشديدة التى بدأت تهب من الغرب عناية وانتباها ، حتى اذا هجمت عليـــه ، وجاست خلال دياره ، وتمكنت فى عقر داره ، وجد نفسه بين موقفين .

الموقف الأول ، هو موقف المستسلم الخاضع والمقلد الأعمى والتلميذ البار ، والموقف الثانى ، وهو موقف المعادى المخاصم ، أو موقف المفتوح المقهور الذى لا يريد الا الثأر ، ولا يعرف لذة غير لذة الانتقام ، ولا يرى فى عدوه أى وجه من وجوه الخير ، ولا أى جانب من جوانب الكمال .

وكان لكل موقف أتبـــاع وأنصـــار عـرفوا بميولهم واتجاهاتهم ومناهجهم وأساليبهم . فأصـبح الموقف الأول شعار المستسلمين الخاضعين ، المؤمنين بالغرب أشد الايمان ، والمتغنين بمجده وعظمته فى أجمل النغمات والألحـــان(١) ، وأصبح الموقف الثانى شعار القادة السياسيين ، والزعمـاء الوطنيين الحانقين الساخطين ، الثائرين الموتورين(٢) .

---

(١) ترى نموذج هذا الأسلوب الأدبى ، والمنهج الفكرى فى كتابات المرحوم السيد أحمد خان ، زعيم حركة التعليم الحديث فى الهند وأصحابه وتلاميذه ، وفى كتابات رفاعة الطهطـــاوى بك ، وقاسم أمين وأضرابهم فى مصر .

(٢) يمثل ذلك مدرســـة السيد جمال الدين الأفغـــانى ، ومقـالات « العروة الوثقى » .

أما رجال الموقف الأول ، فكانوا أصحاب فكر محدود ، وعقلية قاصرة لا تتعدى حظها المرسوم وحدها المعلوم ، ولا تنظر الى أفق أوسع ، أو غاية أسمى ، ولا ترى الى ما فاق فيه الغرب أقرانه من مظاهر القوة ، أو أسباب الراحة والترف ، وترى أن الايمان بصلاحيه الغرب للحكم والقيادة ، وتوجيه ركب الحضارة حقيقة لا ينبغى أن نكابر فيها ، أو نتجاهلها ، أو أن انتصار الغرب على الشرق حكم القدر ، وناموس الكون، وتدرج التاريخ ، لا فائدة من مواجهته ومقاومته ، أو مقارعته بالحجة والبرهان ، أو بالسيف والسنان ، ولابد لنـــا من الخضوع أمامه ، وقبوله على علاته – اذا كانت له علات –

ان رجال هذا الموقف يؤمنون بأن الغرب يفوقنا فى كل شيء ، لا فى الصناعة والآلة والتنظيم والادارة فحسب ، بل فى الثقافة والحضاة كذلك ، انهم آمنوا بغاياته وأهـــدافه وآدابه ومذاهبه الفكرية ، والأدبية والسياسية ،والاجتماعية، كما آمنوا بوسائله ، وأسبابه ، وماكيناته وأدواته وعلومه التطبيقية والصناعية والآلية ، فكانت عاقبـــة ذلك أنهم لم يرجعوامنه بشيء وخسروا كل شيء ، خسروا منبع قوتهم ، وسر حياتهم ، وغاية وجودهم ، ولذة كفاحهم، الدين ، وفاتتهم الصناعه وما يمتاز فيه الغرب من منـــابع القوة والسيادة ، فرجعوا بخفى حنين ، لا دين ولا علم ، ولا وسيلة ولا غاية ، بل تقليد ومحاكاة واستسلام وانقياد ، وخضوع وخنوع ، ورضى بما يلقى اليهم من فتات المائدة ومزدول الطعام .

انهم ينظرون الى الغرب كما ينظر تلميذ الى أستاذه ومعلمه ، يتلقى ضربته بصبر وأناة ، ويتلقى توجيهاته ، ودروسه بجد واجتهاد ، ثم يرددها ويستحضرها أناء الليل وأطراف النهار ، وهذا موقف لا محل فيه للنقد والتوجيه ، والروية والتفكير ، ولا يجوز فيه المناقشة والجدال ، مناقشة الند للند ، وجدال الفريق للفريق ، فلا غرابة اذا لم نر من بين هؤلاء من يترفع عن هذا المستوى ، ويلقى الغرب وجها لوجه • ويقابله على صعيد العلم والفكر ، وعلى صعيد المساواة والشرف ، والاعتداد بالنفس ، والاعتزاز بما عنده من دين وأخلاق •

أما رجال الموقف الثانى ، فبدوا عاطفيين ، ثائرين نحو هذه المشكلة ـ مشكلة الغزو الفكرى واستيلائه السياسى ـ وتكرست جهودهم فى غالب الأحوال على محاربته سياسيا أو عسكريا ، انهم لم يحاولوا أن يعرفوا عدوهم ، ويطلعوا على دخائله وأسراره ، وسيآته وحسناته، وجوانب القوة والضعف فيه ، ولم يفرقوا بين ما يفوق فيه علينا من علوم وصناعة وسلاح ، فيستفيدوا به ، وما يفتقر فيه من أهداف كريمة ، وعقائد سليمة ، ودوافع نبيلة ، ورسالة نقية صافية ، حتى يفيضوا عليه شيئا مما أتاهم الله •

وكانوا حانقين عليه ، كارهين له ، بدلا من أن يكونوا حريصين على انقاذه ، متوجعين لمصيره ونهايته المتوقعة الأليمة، ورأوا فى الغرب الظافر المنتصر ، محتلا لأرضهم ، غاصبا

لأملاكهم ناهبا لأموالهم أكثر من أن يروا فيه محتلا لمعتقداتهم، غاصبا لايمانهم ، ناهبا لتراثهم الاسلامى ودعوتهم العامة الخالدة ، الصافية الطاهرة ، الحنيفية البيضاء التى لا تعرف التنازل والمساومة والاستسلام ، ولا تنسجم مع المفاهيم الجاهلية أيما انسجام ·

فكانت النتيجة أن وجد الغرب سبيله الى الاحتلال الفكرى ورأى نفسه حرا لبث سمومه فى الجيل الجديد ، والشباب الجامعى المثقف ، والبعثات الخارجية ، والوفود العلمية ، ورجال الصحافة والأدب ، من غير أن يدركوا خطره ويفهموا حقيقة معركته ومكان رميته ، ونوع سلاحه ، فضلا عن أن يقفوا فى وجهه وقفة الحر الكريم ، والأستاذ الخبير العليم ، ويفكروا فى مديد الغوث والنجدة اليه ، وانقاذه من الهوة العميقة التى تورط فيها ، والمستنقع الذى يغوص فيه الى أذنه ·

فبينما اندمج الأول فى هذا الخضم من الأفكار الغربية وتياراتها السياسية والاجتماعية ، حاول الثانى أن يعبره من غير أن يتعلم السباحة ، ويطلع على العمق والمساحة ·

وبجانب هذين الموقفين المتطرفين موقف آخر ، هو موقف المتأمل الدارس الذى لا ينكر الغرب برمته ، ولا يقبله على علاته ولا يخلط بين ما أنتجه من وسائل لاسعاد هذه الحياة ، وما اخترعه من مذاهب باطلة ، وثقافات سخيفة ،

وآداب مبيدة للدين والأخلاق ، والمبادىء الانسانية الكريمة ، والصفات النبيلة .

ان أصحاب هذا الموقف لا يعتبرون ما جـاء به الغرب شرا محضا ، أو خيرا محضا ، فلا يستسلمون له ، ويندمجون معه ، ولا يواجهون ضغطه السياسى ، واستعماره الاقتصادى أو غزوه العســكرى فحسب ، بل انهم يحـاربون أولا تلك الروح المادية ، روح الجشع والأنانية وعبادة البطن والمعدة ، التى تسربت فى كيانه ، وتغلغلت فى أحشائه وجرى منـــه مجرى الروح والدم ، فيأخذون ما صفا من هـــذه العلوم ، ويدعون ما كدر ، يستفيدون من أدواته ومعلوماته وعلومه وصناعاته ــ التى لا يحتكرها شعب ولا تختص بها أمة ــ ويتبرؤون من حضاراته وثقافاته وآدابه التى تحدد المفـاهيم والأهداف ، وتضع القيم والأقدار ، وتكيف المجتمع والحياة .

انهم لا يحسبون ــ شـــأن بعض البســطاء فى الشرق الاسلامى ــ ان هذه الروح المادية المتحررة المنطلقة من كل قيد ، الخارقة لكل قانون ، هى السر وراء هذه النهضة المادية والصناعية التى فاق فيها الغرب على أترابه ، بل يعتقدون أن السر وراء هذه النهضة هو التنظيم والادارة ، والصـــناعة والتجارة والعلوم التطبيقية التى لا صلة لها بمناهج الحيـــاة وأهدافها ، ولا دخل لها فى وضع صـــورها وأشكالهـــا ، فيشيدون بذلك ، ويعترفون به فى شجاعة وثقة ، ويشيرون على الغرب بالتمسك به والمحافظة عليه ، واقتبـــاس الدين

والأخلاق ، وتعاليم الأنبياء من الشرق ، حتى يضم قوة الى قوة ، ويحقق رسالة المدنية والتقدم ٠

انهم لا يقفون في وجه الغرب كالعدو اللدود أو كالحاقد الثائر وكالناقد الساخر ، ولا كالتلميذ الخاشع ، والرقيق الخانع ولا يطاطئون له رؤوسهم كالمصابين بمركب النقص والشعور بالهوان ، ويقولون آمنا وصدقنا ، سمعنا وأطعنا ، بل يقولون فى صدق وجرأة ، وقوة وصرامة ، أصبت هنا ، وأخطأت هناك ، وكان الصواب أهون وأيسر ، والخطأ أدهى وأمر ، لأن الصواب هو هذه الوسائل والأسباب ، والعلوم والصناعات ، والادارة والتنظيم ، وهى لا تضر الانسان كثيرا ، اذا فاتته ، أما الخطأ فهو منهجك فى استخدام هذه القوة وهذا العلم ، ونظرتك الى الكون والانسان ، وانحرافك عن جادة النبوة والهداية ، وثورتك على الأخلاق والقيم الرفيعة ٠

لغـــة شقى بهـــا أهلهـــا

مأساة باكستان قضت على كثـــير من المغالطـــات أو التفاؤلات التى عشنا فيها زمنا طويلا ، انها كشفت القناع عن ذلك الوجه القبيح والصـــورة الكريهة المخيفة من عصـــبية اللغة ، وأثارت عدة أسئلة للضمير الانسانى .

١ ـ هل يحق لأخ أن يقتل أخاه لمجرد أنه يختلف عنه فى اللغة والتقـــاليد الوطنية أو فى الزى الوطنى والأكلة الشعبية ؟ .

٢ ـ هل يحق له أن يذبح جاره وصديقه ، وأســـتاذه ومرشده لأنه لم يتكلم بلغتـــه ، ولم يتزى بزيه ، ولم يتعود بعاداته ؟ .

٣ ـ هل يجوز له أن يحرق أولاده أحياء لأنهم لم يعطوه مثلا ـ نصيبه الكامل من المال وقسطه الكافى من المحصول والانتاج ؟ .

٤ ـ هل يمكن لهـــذه العوامل مجتمعة أن تكون مبررا كافيا لقتل الأبرياء وسفك الدماء ، وخلع العذار ، والفســـق والاستهتار ؟ .

كلا ! اذا فما الذى حرك نزوات البنغاليين الى تشويه تاريخهم بهذه الصفحة القاتمة السوداء ، ووصم جبينهم بهذا العار ؟ .

ان القصة أعمق جذورا ، وأبعد مدى ، وأوسع اطارا مما نراه بمنظار السياسة المحدود . فانها تدل على بذور الحقد والضغينة والكراهية التى غرسها هؤلاء فى قلوب الأبناء ، ووجدت جوا صالحا وتربة صالحة للظهور والتقدم والنماء ، حتى آتت ثمارها الخبيثة « والذى خبث لا يخرج الا نكدا » .

والدرس الأول من هذه القصة الأليمة هو أن عشق اللغة وحبها الزائد وتقديسها ، والهيام بها ، والتغنى بالثقافات المزعومة والاغراق فيها هو رأس البلاء والشقاء ، وهى فتنة استوردناها من الغرب فى مجموع ما استوردنا من شرور وخبائث وويلات فى صورة أفكار وحضارات وثقافات .

ان اللغة التى تفرق ولا توحد ، تعادى ولا تؤاخى ، تقسو ولا ترحم ، لا ترعى فى مؤمن الاه ولا ذمة ، وينتهك لها كل كرامة وحرمة ، وتريد أن تبقى ، وتنتشر وتزدهر ، ولو على ضحايا الأبرياء ، وعلى الجماجم والأشلاء ، هى لعنة على أهلها وعذاب من الله .

هل ان الله سبحانه خلق هذه اللغات الكريمة البريئة لتكون وسيلة الى الفساد والدمار والظلم والالحاد ، أو لنجعلها وثنا يعبد ، وصنما يقدم اليه القرابين !؟

ان اللغة اذا علمتنا القتل ، وعلمتنا الوحشية ، وعلمتنا الجنون ، وحولتنا فى ساعات وثوان الى قوم همج لا ضمير لهم ولا عقل ، ولا دين عندهم ولا حياء ، وزرعت فى صدرنا قلب وحش أو سبع أو شيطان (ويا ليت اذا كان من البلاستيك البريئى لا يعرف ظلما ولا رحمة) وأطاحت بتربية مئات السنين فى ساعة وحين . فعلى مثل هذه اللغة السلام .

والدرس الثانى هو أن صورة الاسلام والايمان لا تقدر على مواجهة كيد الشيطان وثورة النفس ، ما لم يدخل الايمان فى القلوب وقرارة النفوس ، وما لم تستطع مقاومة النفس وتعود الخضوع لأمر الله ، والوقوف عند حدود الله ، فقد ثبت أن الشارات الخلابة الظاهرة والمظاهر الدينية الجوفاء لم تصمد لساعة واحدة فى وجه هذا الطوفان بل انساق أهلها أحيانا كثيرة مع التيار العنيف ، ووقفوا الى جانب الجزارين والسفاحين .

وأمام هاتين الحقيقتين ينبغى لنا أن نقف قليلا ونتأمل ، ان الفجوة الهائلة والبون الشاسع الذى نراه بين جناحى باكستان لم يكن وليد سياسة محلية فحسب أو نتيجة تقسيم المنافع والأرباح كما يتصور كثير من الناس ، بل انما كان نتيجة عوامل مختلفة كانت تعمل عملها منذ زمن طويل ، فقد عاش الجناح الشرقى بعيدا عن جناحه الغربى ، يحب لغته ، وأزياءه ، وتقاليده وأرضه وماءه الى حد التقديس ، ويتفانى فى ذلك تفانى المؤمن الصادق فى سبيل الله ، ويتحمس له

تحمس الداعي الى الله ، وأدى هـــذا الاختلاف فى اللغـــة والتقاليد الى توسع هذه الفجوة وبعد الشقة ، وعاش الفريقان فى مكان واحـــد • بل فى مكتب واحد من غير أن يندمجـا عاطفيا ، ويتجاوبا روحيا ومعنويا قد جمعتهم الضرورة عـلى رصيف واحد وفرقتهم العصبية والاقليمية رغم دين واحد •

وكان هذا الجو ـ بطبيعة الحال ـ صالحا لكل نوع من الانفجار والدمار ، ونذيرا بكل ما حدث من شنائع وفظائع تقشعر منها الجلود ، ويتندى لها جبين الحياء •

ولو كان للاســـلام الأمر والنهى والتصرف الحـــر فى باكستان وأطلق له العنان لكان شأنها غير هذا الشأن ، وقضى على العصبيات الباطلة الجائرة فى مهدها ، وماتت حتف أنفها ، وما قامت لها قائمة وما نجمت منهـــا شوكة تؤذى جنب المسلمين •

ان قصص التعذيب والاضطهاد والوحشية والجنون التى سمعناها ، والعصبية العميـــاء الصماء التى رأينـــا آثارها وضحاياها دلت بوضوح على أن العصبية البنغالية تخطت كل الحواجز الانسانية والأقدار الخلقية العامة ، بل انها طغت على العقيدة والايمان والعلم والتقوى وتملكت زمامها ، وتصرفت فيه تمام التصرف ، واستخدمته لسائر أغراضها الوحشية ، وكانت كل هذه الوحشية والهمجية التى لا نظير لهـــا ، ولا تأويل فيها ، باسم تراب الوطن ، وقداسة الأرض حتى قال

قائلهم وزعيمهم : انى أحب أن تكون آخر كلمتى عند الوفاة « عاش البنغال » .

وتلك هى طبيعة كل عصبية اذا اختمرت ونضجت وبلغت أوجها وذروتها ، ولا نستغرب اذا هى مثلت دورها فى الجناح الغربى وعاثت فيها الفساد ، كما هى فعلت فى الجناح الشرقى ، وأذاقته ألوانا من الخراب والدمار .

اننا نغرس أشواكا وننتظر أزهارا ، نغرس فى نفوس الناشئة الضغائن والأحقاد ثم نرجو منهم أن يكونوا اخوانا متحابين نسكرهم بتقديس أرضهم ، وعبادة ترابهم ، وتمجيد أبطالهم وزعمائهم القوميين ، ثم نطلب منهم أن لا يخرجوا من طورهم ، ولا يفقدوا رشدهم وصوابهم .

ان للاسلام ثقافة عامة متحدة فوق الثقافات المحلية المخلفة ، وان له لغة فوق اللغات ، ولهجة فوق اللهجات ، هى لغة القلب والحب ، ولهجة الاخوة والوفاء ، فلتكن سائر لغاتنا تابعة لهذه اللغة الحبيبة الكريمة ، خاضعة لها ، وان له هدفا فوق أهدافنا ومصالحنا الاقتصادية وحاجاتنا القومية، فليجب أن نضع سائر ارتباطاتنا ورغباتنا ومصالحنا تحت هذه المصلحة الكبرى ، ونضع سائر زعاماتنا وقياداتنا تحت تصرفه المطلق ، فذلك هو الشرط الأول والأساسى للايمان « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً »(١) وهو معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن

(١) سورة النساء ، الآية ٦٥ .

أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

ألا ان الاسلام لم يخسر الجولة في باكستان كما أنه لم يخسرها فى فلسطين ، ان مأساة باكستان ان دلت على شىء فانها تدل على أن الأحداث الدامية ، والفوضى السياسية ، والقلق النفسى ، والصراع الحزبى والتنافس فى القيادة والتهالك دونها ، لم يكن الا نتيجة الاعراض عن الاسلام والأخذ بالعصبيات والاقليميات ، وضعف الوازع الدينى وتزعزع الثقة بمستقبل الاسلام وسحبه عن مسرح النشاط الاجتماعى والسياسى .

انها دلت على أن العصبية الجاهلية أخفقت اخفاقا كاملا فى جمع الكلمة وتوحيد الصف ، وأن الاسلام وحده بقى فى الميدان يحمل لواء النصر والفتح . وهو يستطيع أن يضمد الجروح ويمسح الدموع ، ويواسى المنكوب ، ويصلح ما أفسده التعصب الأعمى ، والجهل والنكران ، انه لا يزال يقدر على أن يحول هذه الوحوش الآدمية والذئاب البشرية الى طراز رفيع من أشرف خلق الله رحمة وعدلا ، وخيرا وبركة ونورا وضياءا .

ان العصبية الشرقية لا تقاوم بالعصبية الغربية ، وبالعكس انها تداوى ــ فقط ــ بالاسلام الذى يبقى دائما فوق العصبيات وحرب الزعامات .

ان هذه المأساة رفعت سائر الشبهات حول الاسلام ووضعته فى موضع تهفو اليه القلوب ، وتتطلع اليه الأبصار ، وحرص عليه كل من سامته هذه العصبية الجاهلية والاستغناء عن دين الله سوء العذاب .

ان سائر الأوضاع تشير الى أن نلوذ بالاسلام لنتخلص من هذه الأحقاد المكبوتة التى تشتعل تحت الرماد ، وتطيح فى لمحات وساعات ما بناه الأوائل فى عشرات السنوات .

انها تطلب منا أن لا نترك ديننا عرضة الأهواء الطاغية والرياح العاتية ، يستبد به كل شاطر وماكر ، ويعبث به كل شاغب وعابث بل يكون – كما وصفها القرآن – « كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين باذن ربها »(١) .

وبعد فالاسلام لا يسمح بالظلم وبالدعوى الجاهلية أينما كانت ، فالظلم ظلم ، سواء كان فى الهند أو فى باكستان وسواء كان فى مكة والمدينة ، والعصبية عصبية وجاهلية ومنتنة – كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم – سواء كانت عربية أو أفغانية ، هندية أو باكستانية ، تركية أو ايرانية .

ومن هنا يختلف منهجنا عن جميع المناهج الجاهلية

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٢٤ .

والحركات المادية والقومية والعنصرية : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم »(١) ٠

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »(٢) ٠

ان باكستان تتـــأرجح الآن بين عصبية جاهليـة ظالمة واسلام سمح عادل ، فلتكن هذه المأساة الأليمة داعية لها الى الرجوع الى الدين ، والاعتصام بحبل الله المتين قبل أن تصل ألسنة هذه النيران الى جناحها الغربى كما أحرقت جناحهـــا الشرقى ٠

---

(١) سورة النساء

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤٣ ٠

رسالة الحب

ان الحب « اكسير » ينوب فيه الحقد كما يذوب الملح فى الماء وعصا سحرية تسخر القلوب المتحجرة الجافة والطبائع المتمردة العاصية وتسوقها الى أى جهة تشاء .

انه يحول الأعداء الى الأخلاء ويحل محل البغض والشحناء الصداقة والاخاء ، ويجعل من الفئتين المنفصلتين المتحاربتين قلبا واحدا وجسدا واحدا اذا اشتكى منه عضو اشتكى سائر الجسد بالسهر والحمى « فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم »(١) .

فاذا استعرضنا المجتمع الاسلامى فى القرن الأول وجدناه مشرقا بنور من الحب والاخوة والسلام ، والتاريخ الاسلامى حافل بأمثلة رائعة من هذه الناحية يندر نظيرها فى تاريخ الأمم الأخرى واذا فكرنا اليوم فى أحوال المسلمين وأمعنا النظر فى الأوساط الدينية والهيئات الاسلامية واستعرضنا هذه المشكلات التى تعترض الركب الاسلامى فى

(١) سورة حم السجدة ، الآية ٣٤ ــ ٣٥ .

كل مكان رأينـــا أن سبب ذلك هو عـــدم العنـــاية بالحب والاستهانة بأهميته فى الدين الاسلامى وضرورته للمجتمـع الانسانى ٠

فليتخذ شبابنا المسلم شعاره الأول «الحب والاخلاص» ، ومهمته الأولى اذاعة الحب بين الناس حتى تنجلى تلك الظلمات الكثيفة التى أحاطت بالمسلمين هذه الأيام ، فهو حجر زاوية فى بناء الاسلام ، نادى به القرآن العظيم وندب اليه الرسول الكريم وعمل به المسلمون فى القرون الأولى ٠

وقد تتضاعف أهميته اذا رأينـــاه من ناحية مصلحـة الدعوة وحكمة الدعوة ٠

أنت لا تستطيع أن تحمل الدعوة الاسلامية بين الناس وتدعوهم الى الدين الحق وقلبك لم يذق حلاوة الحب ٠

ان المنطق والقانون لا يجـــذبان القلوب ولا يقنعـــان الوجدان ، انهما يهزمان الرجل ويصرعانه وربما يحدثان فيه بعض النقمة وبعض الحقد وبعض المقت تجاه هـــذه الدعوة ، انما الشيء الذى تنجذب اليه القلوب كالمغناطيس وتهوى اليه الأفئدة ويخضع له الجبابرة هو الحب والاخلاص ٠

اذا تحدثت مع رجل وألقيت عليه ألف دليل وأحرجته بألف ســـؤال ، وشرحت الأمر شرحا بسيطا ، وقلبك جاف غليظ ، ولسانك قاطع كالسيف ، وكلماتك حادة كالســهام المسمومة ، أبعدته عن الهدف وملأت قلبـــه غيظا ، ولو لم يستطع أن يرد عليك جوابا ٠

واذا لقيت رجلا فى الطريق وألقيت عليه كلمة خير واحدة بلا دليل ولا برهان ، وبلا مناقشة ولا اسهاب وعلى شفتيك ابتسامة حلوة ، وصدرك ممتلىء بالحب وقلبك عامر بالايمان ، كسبت قلبه وقربته الى الهدف ولو أنه لم يبد رضاه فى هذا الحين وأنكر هذه الكلمة ، فانه سيؤمن يوما من الايام لانك قد غرست فى قلبه بذرة ستؤتى أكلها كل حين باذن ربها .

ان المجتمع الحديث فى الشرق والغرب قد تنكر لهذا الحب الطاهر ولم يعرف قيمته واستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير انه لا يعرف حبا أشف وأسمى ، وأطهر وأنقى ، من هذا الحب المادى ولا يعرف هدفه الصحيح .

فاذا رفعنا هذا اللواء من جديد ، وحملنا هذه الدعوة الكريمة الى الانسانية أحسنا اليها وأمسكنا بيدها فى أشد ساعات الحرج ، ومنعناها من التفكك والانهيار .

ان هذه الحياة الميكانيكية الجمادية التى تدور كالرحى فى كل مكان ، ان انسان القرن العشرين الذى رضى بأن يكون آلة صماء تدور ليلا ونهارا ، يكسب المال لينفقه وينفقه ليكسب أكثر منه ، ان الحياة العائلية والاجتماعية التى أصبحت اليوم فى الغرب جحيما لا يطاق ، انها كلها تحن الى قطرة من الحب كما تحن الأرض المجدبة الى قطرة من الماء .

فأنجدوها أيها المسلمون المحبون بهذا الحب الذى آثركم الله به .

(١) بين الدنيا والآخرة

أحب أن أقول قبل كل شيء أن هـذا الموضوع لم يأت عفوا ، فجعلته عنوان كلمة وحاولت أن أضعه موضع البحث والنقد ، وألبسه ثوب الحقيقة فأخدع الناس أو أخدع نفسى بل اننى تعمدت هذا الموضوع ، وذلك لمـا رأيت حوله من مغالطات أليمة قد تبدو خفيفـة فى الظاهر ولـكنها تتصل بالفكرة الاسلامية الأساسية وتمس نظرتها الخاصة فى الدنيا والآخرة .

ان هذه النقطة كما يعلم الجميع هى النقطة الأساسية التى تعين مكانة الانسان فى الدنيا وغايته فى هذه الحياة ، وتغير وجهته من الدنيا الى الآخرة ، فلا يمكن لأحد أن يبـدأ حياته بدون أن يتخذ موقفا معينا ازاء هذه المسألة فى « النفى أو الاثبات » لأن زلة خفيفة فيها وانحرافا بسيطا فى فهمها قد تغير صورتها أو تجرح روحها على أقل تقدير ، وتبعـدنا آلاف الأميال عن الخط الصحيح .

ان بعض المسلمين قد نشـأ فيهم فى العصر الأخـير أسلوب من التفكير لا يتفق مع روح الاسلام الأصيلة ، وذلك أنهم يحاولون أن يجمعوا بين الدنيا والآخرة ويسيروا بهمـا كتفا بكتف ، ويتمتعوا بمنافعهما فى ساعة واحدة ، ان الجمع

بين الدين والدنيا نعمة كبيرة وفضـــل عظيم ، والاســـلام لا يؤمن بهذا التقسيم ، وقد جاء فى القرآن الكريم :

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنـا عذاب النار »(١) .

ولكنهم أرادوا شـــيئا آخر ، انهم أرادوا أن يجعلوا الدين على كفة ميزان والدنيا على كفتها الآخرى ، وحاولوا أن لا ترجح كفة ولا تنخفض كفة ، فالدنيا لا تقل عندهم أبدا من الدين لان الاسلام ليس فيـــه رهبانية ، ويقولون ان هؤلاء الصوفية الذين يقللون دائما من قيمة الدنيـا ويحاولون أن يقلعوا حبها من قلوب النـــاس هم فى ظلام من الاســـلام الصحيح ، الاسلام الكامل ، ان هؤلاء النـــاقدين لا يؤثرون الآخرة على الدنيا ولا يتحملون فى سبيلها مشاق ، فاذا وقع عراك مثلا بين مصلحة الدين ومصلحة الدنيـــا تحيروا ولم يجدوا حلا ، وربما أساءوا الظن بالدين بأنه لا يســتطيع أن يجارى الدنيا وأنه يحول بين الناس وبين شهواتهم ، أقول انها مغالطة نبعت من عدم الاطلاع على حكم الاسلام فى هذه القضية الكبرى انهم لم يعلموا بدقة وضبط كيف يعاملون الدنيا وكيف يعاملون الآخرة ؟ وكيف يعملون للدنيا وكيف يعملون للآخرة ؟ وما هى مكانة الدنيا فى نظر الاســـلام ؟ وكيف نجمع بينهما ؟ وماذا يعنى الاســـلام بالجمع ؟ انهم لم

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠١ .

يتفكروا فى هذا الأمر ولم يرجعوا الى مصادر الدين الصحيحة حتى تهديهم الى الصواب وترشدهم الى الحق المبين ·

ماذا يريد القوم بذلك ؟ هـــل هم يحبون أن يتمتعوا بالحياة ويتعمقوا فيها ، بل يتمرغوا فيها كما يفعل الناس فى هذا العصر ، وبجانب آخر يتمكنون من الوصول الى آخـــر درجة من الزهد والتقوى ، والطهر والعفاف ، والصـــــدق والأمانة ، والطاعة والعبـــادة ، الى آخر ما يقتضى الدين ، ويتمتعون بثمراتها فى الحياة الآخرة كما استمتعوا بطيباتهـا فى حياتهم الدنيا ، فانى أشير عليهم أن يسألوا القرآن ماذا يقول فى هذا الشأن ؟

ان الاســـلام لا يقر التقسيم الذى آمنت به المسيحية « أعطوا لقيصر ما لقيصر وأعطوا لله ما لله » انه يقضى عـــلى الرهبانية ويقول : « لا رهبانية فى الاسلام » انه لا يحسب هذه الحياة سلاسل وأغلالا من الحديد والنار يجب أن نتحرر منها فى أقرب فرصة ، ولا يحسبها قفصا من الذهب قـــد حال بيننا وبين الطيران فى أجواء الروح الفسيحة ·

وفى ناحية أخرى انه لا يرضى أن يرى الحياة مباحـــة مشاعة مطلقة من سائر الحدود والقيود ويرى الدنيـــا غابة مظلمة تتحكم فيها السباع والذئاب والأسود ولا يعتبرهـــا « فرصة ثمينة » لارضاء الشهوات وتحقيق الآمال وجمـــع الأموال ·

انه يعطى الشعوب نظرة خاصة وفكرة متوازنة تسيغها فطرة الانسان ويقتضيها العقل البشرى ، انه يعد هذه الحياة مزرعة للآخرة ، وهذا هو السر عنده فى أهميتها ، انه يراها جسرا لابد لنا أن نعبره فى سبيل الوصول الى الهدف ، انها أداة محترمة فى سبيل الوصول الى الغايات الرشيدة ، ولكنها على كل حال أداة لا ينبغى أن نتخذها غاية رغبتنا وأكبر همنا ومبلغ علمنا ، كما جاء فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم(١)، انه لا ينكرها ولا يكرهها كبعض الديانات السابقة المعاكسة للفطرة الانسانية ، ولا يقدسها ويعبدها ويعكف عليها كديانة المادية الحديثة ، انه يرسم حدود « الدنيا والآخرة » بعلامات وفواصل يجب أن نعرفها ونقف عندها ، الآخرة عنده دائما فى الدرجة الأولى لأنها حياة غير فانية فاذا أضعنا تلك الحياة الخالدة من أجل هذه الفترة القصيرة من العمر فهذا خطأ منا فى المقارنة بين الربح والخسران ، وسوء تقدير للميزان ، الآخرة دائما فى الدرجة الأولى لأن عذابها خالد ونعمتها خالدة ، وانه من فتور العقل أن نؤثر النعمة التى تفنى على التى تبقى ، ونرجح الذى يزول على الذى لا يزول •

فليست المسألة اذا مسألة جمع بين الدين والدنيا ، انما هى مسألة ايثار وترجيح ، ان الاسلام لا يدع الدنيا قائمة بذاتها ، انه يحتلها فى نفسه ويجعلها عبادة ويتحكم فيها ويستخدمها حسب ارادته وقوته •

---

(١) كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل الدنيا اكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا غاية رغبتنا •

انه لا يؤيد هذا النوع من الجمع الذى يسيطر فيه المال على القلب والروح والأعصاب ، ويحتل المركز الاول فى الحياة ويشغل الدين ركنا ضئيلا فى غضون الرأس ، انه يسمح للمال أن نضعه على راحة يد أو فى داخل جيب ، أما داخل القلب فلا ٠

أما اذا أردنا أن نساوى بين الدين والدنيا فى الأهمية فلا نحتمل نقصانا فى الدنيا لحساب الدين ، ولا نرضى بترك الدنيا لاجل الدين ٠ أما اذا أردنا أن نصلى للدين ساعة ونصلى للدنيا ساعات ، ونعبد الله مرة ونعبد المال مرات ، فاذا طالبنا الاسلام أن نتحمل خسارة مالية فى سبيله أو نكبح جماح شهواتنا ونخفض مستوى حياتنا لأجله شق ذلك على النفس ، ورأيناه رهبانية وتقشفا ، فانها مغالطة يجب أن نصححها فى أول فرصة ٠

وكيف يمكن أن تتساوى الدنيا والآخرة وعمر الفرد على هذا الكوكب الأرضى محدود ، فلا يتجاوز ١٠٠ سنة على الأكثر ، وحياته فى الآخرة خالدة غير محدودة غارقة فى الأبد ٠

آمال الفرد فى هذه الحياة طامحة ورغباته متوفرة وتمنياته متنوعة ، انه يحب أن يمس كل جميل ويذوق كل لذيذ ويتمتع بكل نوع من أنواع الراحة والهناء ويفعل مايشاء فخلقت له « الآخرة » وأخفى له فيها كل ما تقر به العين ويلذ به النظر ويطرب له القلب ٠

اذا تمتعت مائة سنة فى هذه الدنيا من نعيمها الذى تخلطه الكلفة وابتسامتها التى تعقبها الدمعة ، وحرمت ذلك النعيم الأبدى الشـــامل الذى يمتـــد الى ملايين الملايين من العصور والأحقاب ، فهل تجدك سعيدا بهذا يا ترى ؟

هذه هى وجهة نظر الاسلام فى هذه المسألة ، واضحة لا غموض فيها ولا التواء ، صافية مشرقة ليس عليها غبار ، حقيقة انسانية يسيغها كل عقل ولا يختلف فيها اثنان .

انه ينبغى أن لا ننسى أن قيمة هذه الحياة وقيمة هـذا الكون هى نسبية   اننا لا نحب هذه الحياة لأننا نعيش عليها ونتمتع بها ، اننا لا نحب المـال لأن المـال شىء يستحق أن نحبه ونعشقه ونعبده ، اننا لا نحب هـــذا الكون لأنه فائض بالقوة والجمـــال ، زاخر بمعانى الحسن والاحسان ، متقن غاية الاتقان ، انما الشىء الذى يهب هذه الحياة وهذا الكون قوة ومكانة ، أنها نعمـــة من الله سبحانه ووسيلة الى الوصول اليه : « كلوا من طيبات ما رزقنـاكم واشكروا الله »(١) « وأنفقوا مما رزقناكم »(٢) .

هذه الفكرة حول الكون والحياة والانســـان نطلب من الناس أن يتمتعوا بهذا العـــالم بالمعروف ويكون أكبر همهم

---

(١) سورة المائدة .

(٢) سورة البقرة .

وأنبل أهدافهم الدعوة الى الله والرجوع اليه وانشاء المجتمع الانسانى كله على هذه الأسس الصحيحة المتينة ·

الدين عندهم دائما فى النقطة الأولى ، فاذا وقع هناك اصطدام بين شهوة النفس ومصلحة الدين آثروا الدين ولم يترددوا ولم يرتابوا لأنهم خلقوا لهدف آخر أسمى من هذه الأهداف المادية الضئيلة والمآرب التافهة ، انهم يرجحون دائما كفة الآخرة لأنها الخالدة الباقية وهى دار القرار ، وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ، هذه الفكرة تسيطر على جميع مشاعرهم وعواطفهم ، وتدفعهم الى أن يبدلوا لها كل جهد ولا يدخروا لها وسعا ويحنوا اليها كأنهم منها على موعد وكأنهم فى انتظار ، وهذا هو الفرق الأساسى بين أسلوب التفكير والميل الطبعى الذى نراه بين هذه الطبقة التى أشرت اليها وبين هذه الطبقة التى درست القرآن كما يجب أن يدرس ، وفقهت السنة كما يجب أن تفقه ، واستمدت منهما النور فى تفكيرها وسلوكها ، ومنهج حياتها كلها ، وأختم هذا المقال بكلام الامام أبى حامد الغزالى فقد أجاد فى وصف هذه الناحية الهامة بقلمه البليغ القوى فمما قال فى الاحياء :

« ان أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها ، وعظم الآخرة ودوامها ، وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ،ويعلم أنهما متضادتان وأنهما كالضرتين مهما أرضيت احداهما أسخطت الأخرى ، وانهما ككفتى الميزان

مهما رجحت احداهما خفت الأخرى ، وانهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر ، وأنهمـــا كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ ، فبقدر ما تصب منه فى الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر ، فان من لا يعرف حقارة الدنيـــا وكدورتها وامتزاج لذاتها بألمها ، ثم انصرام ما يصفو منها ، فهو فاسد العقل فان المشاهدة والتجربة ترشد الى ذلك .

ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بينهمـــا طمع فى غير مطمع فهو جاهل بشرائع الآنبيـاء كلهم بل كافر بالقرآن كله من أوله الى آخره . فكيف يعد من زمرة العلماء ومن علم هذا كله ثم يؤثر الدنيـــا على الآخرة فهو أســـير الشيطان ، قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته ، فكيف يعد من حزب العلماء » .

بين الدنيا والآخرة (٢)

تحدثت فى مقالى السابق عن نوع من التفكير جديد ان رضيه التفكير المـادى فان التفكير النبـوى لا يرضـاه ولا يسيغه ، لأنه تفكير سقيم لم يقم على دراسة القرآن الصحيحة ودراسة المجتمع الانسـانى فى القرن الأول ، ولأنه تفكير ناقص (ONESIDED) يأخذ نصيبه من الدنيا وينسى نصيبه من الآخرة ، انه يعنى بهذه الناحية من الكتاب والسنة التى تحث على الكسب وطلب الرزق ، أما الناحية التى تتصـل بالحنين الى الآخرة والشوق الى الجنة والاقبال الى الله ، وابتغاء مرضاته والجهاد فى سبيله ، وتقلل من قيمة الدنيا والمال ويطارد حبه من القلوب ، ويصف الحياة الآخرة كأنهـا هى الحقيقة الوحيدة فى هذا الكون ، فانها لا تنال أهمية لائقـة من هذا التفكير مع أن هذه الناحية هى الناحية المفضلة فى القرآن والسمة البارزة فى المجتمع الاسلامى الأول .

غاية أو وسيلة !

والشىء الآخر الذى أضل الفكر وأظلم الطريق هو النظر الى الآخرة كمن ينظر الى وسيلة وأداة لانشاء حكومة أفضـل وجيل أمثل ، ان هذا النوع من النـــاس يحسبون الآخرة طريقا من طرق الاصلاح ووسيلة من الوسائل الأدبية لتربية

الفرد والأمة ، وأداة قوية لبناء مجموعة بشرية صالحة ، لأنه لابد للانسان من حارس ومراقب يحثه على الخير ويمنعه عن الشر ، وهذا الحارس هو « اليوم الآخر » ، وأن مجرد قانون العقوبات لا يقدر أبدا أن يوجد فى الناس عواطف الرحمة والبر والشفقة والحنان ويحثهم على الحياة النظيفة الطاهرة . وأن القتل والنهب والارتشاء والسوق السوداء . والاحتكار واختلاس الأموال موجود فى كل حكومة وفى كل مكان بجنب البوليس وقانون العقوبات ، ونقف هنا قليلا فنقول ان فكرة اليوم الآخر هى الحارسة لأعمال الانسان ، ولا شك ، وهى تستطيع أن تدفع عنه السيئات وتحثه على الحسنات ، ولكن يجب علينا أن لا ننسى أنها فائدة من فوائد الآخرة . أما غايتها الأصيلة فانها لا تتقيد فى حدود هذه الدنيا المحدودة القصيرة ، ولا نصل اليها الا حين تقوم القيامة ، ويقال : « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار »(١) .

هنالك اهتدى هؤلاء الناس الى » الآخرة « كوسيلة من أعظم الوسائل لاقامة النظام فى العالم ، وآمنوا بها كضرورة خلقية Ethical necessity لا يستغنى عنها فرد أو أمة ، أما كوصفها غاية هذا الكون وهذه الحياة والهدف الأول لكل انسان فى هذه الأرض ، ومنتهى جهوده وتضحياته ومقياس نجاحه وخسرانه ، فهذا لا يعنيهم كثيرا ، فتراهم

---

(١) سورة غافر ، الآية ١٦ .

يتحدثون عنها كأنما يتحدثون عن شيء ليس له نصيب كبير من الواقع أو كأنما يتحدثون عن بعيد أو محـــال ، أو حلم وخيال ، فاذا مروا بآية ترغيب أو ترهيب فى القرآن ، مروا غير عابئين بها مهما كثر فيه ذكرها ، وتتابعت آياتها ، واذا مروا على آية واحدة تتصل بالمعيشة والكسب والعدة والاعداد افاضوا فيها وأرسلوا النفس عـــلى سجيتها وانساقوا مـــع الحديث كل الانسياق .

بين التفكير النبوى والتفكير البشرى :

وههنا الفرق بين التفكير النبوى والتفكير البشرى ، ان الأنبياء عليهم الصلاة والســـلام يعدون الآخرة أعظم غاية فى هذه الحياة وهى عندهم واقع مشهود وحقيقـة ثابتة ، وكأنهم ينظرونها ويتنشقون فى جوها ، ولا فرق عندهم بين المـــادة التى نلمسها والغيب الذى لا نراه ، انهم يؤمنون بأن الآخرة هى الغاية الوحيدة التى يجب أن يتنافس فيهـــا المتنافسون ويعمل لها العاملون بكل ما أوتوا من الصحة والقوة والمال ، لا يدخرون لها وسعا ، ولا يبغون عنها بديلا ولا يرضـــون دونها زهيدا ولا يسلكون سواها طريقـــا « ومن زحزح عن النار وأدخل الجنة ، فقـــد فاز وما الحياة الدنيا الا متـــاع الغرور »(١) وكـــل شيء يمكن أن يكون وسيلة الا الآخرة ، ورضا الله جل وعلا « وابتغوا اليه الوسيلة » أليست هـــذه

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨٥ .

الحياة قصيرة العمر ، قليلة المتاع ، مدبرة ذاهبة ، خادعة مضلة « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءا حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه »(٢) ؟ أليست هى الفانية والأخرى باقية ؟ « كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان »(٣) ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة » ؟ وقال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على الذى يفنى » وقال له ابن مسعود رضى الله عنه يوما : لو أمرتنا أن نبسط لك وتعمل . فقال : « مالى وللدنيا ، وما أنا والدنيا ، ما أنا الا كراكب أستظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها ، وقال مرة : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وقال : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » ويقول القرآن « ان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون »(١) أما هنا فقد انعكست الآية ، فاذا الغاية تصبح وسيلة ، والوسيلة تتحول غاية ، وذلك بدون أن يشعر أحد أى انحراف وقع فى اتجاه الحياة ، وأى جرح أصاب الروح الاسلامية والفكر الاسلامى .

اننى أعجب من هؤلاء الذين لا يلمسون هذا البون

---

(٢) سورة النور ، الآية ٣٩ .

(٣) سورة الحديد ، الآية ٢٠ .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٦٠ .

الشاسع بين الفكرتين ، ويحبون ـ باخلاص ـ أن لا يبدو للناس الجانب الروحي من الاسلام • فينتقص من قيمته وكرامته ومكانته السامية بين الحركات العصرية •

مهما يكن من أمر فان كل دارس للكتاب والسنة وأحوال الصحابة يعرف جيدا أن هذه الفكرة لم تنم أبدا على أسس اسلامية صحيحة ، وانما نجمت في رجال أخذوا بالحضارة العصرية ـ التي هي مادية بحتة ـ من غير أن يشعروا ، ولم تنشرح صدورهم للاسلام ، وان آمنوا بسبقه في حقل السياسة والاقتصاد والتشريع فهم يخجلون من أن يعرضوا الاسلام في صورته الصحيحة ويتظاهروا بجانبه الروحي العظيم في حياتهم من زهد وقناعة وورع وتقوى وخشية وانابة وتضرع وابتهال ودعاء ومناجاة وحنين الى الجنة وشوق زائد الى لقاء ربهم وحرص شديد على مغفرته ورضوانه ، ذلك لأن هذه الفكرة التي اختاروها ليس بوسعها أن تنشئ فيهم هذه الروح الدينية الاصيلة وكيف تفعل وقد قامت من أول يوم منكرة لها ، أو كانت في عمى من قوتها ، وتأثيرها وأهميتها وأصالتها •

---

(٢) ويا ليتهم يعلمون أن اسلام محمد عليه صلوات الله وسلامه واسلام صحابته رضي الله عنهم (في صورته وروحه الأولى) أصلح لهذا العصر الذي اتخم بالمادية وهو مع فكرته الأصيلة التي تستحيون من ذكرها دين كل زمان ومكان ، وسفينة نوح في كل طوفان •

ان الأنبياء عليهم السلام يعيشون كما يعيش النـــاس ويأكلون ويشربون ويتزوجـــون ويحبون الأولاد ، ولـــكن لا تذهلهم هذه الزخارف ـ لدقيقة واحدة ـ عن ايمانهم بأنهم ذاهبون الى الآخرة ، فالدنيا عندهم طريق للوصـــــول الى المقصود ووسيلة تفضى الى الغاية ، أو قاعة امتحان للنـــاس فمنهم من نجح ومنهم من رسب ، أو (مخيم) تقوم فيـــه بالاعداد جسديا وروحيا حتى تفوز برضا الله عز وجل .

ويسرى ذلك الايمان فى أصـــحابهم مسرى الروح فى الجسم والكهرباء فى الأسلاك ، ويتحكم فى ميولهم ونزعاتهم ، وأهوائهم وشهواتهم ، ويخلق منهم انسانا آخر حتى يصبح كل فرد منهم اماما وقدوة ، يقلده العالم وتتبعه الأمم فلا ترى فيهم الا شوقا الى الجنة وحنينا الى الآخرة وسعيا الى الجهـاد وتسابقا فى الخيرات ، مثلهم مثل جائع عطشان ، قد سدت فى وجهه أبواب الرزق وقد رأى الماء وراء جبل فهو يسعى اليه بـكل ما أوتى من قوة ، ولا يكل ولا يمـــل ، ولا يؤثر فيـــه استخفاف الناس لأنه قد رأى الماء بعينيه ، وهو يعلم أنه لو لم يصل الى هذا المكان لمات شر ميتة .

انها السمة البارزة والوصف الأول للمجتمع الاسلامى الصحيح ، فى عصر الصحابة والتابعين ، وهو المقياس النبوى الخالد الذى يقاس به الناس فى كل عصر ومصر مهما تغيرت الظروف والأوضاع ، ومهما تقدمت المدنية وتعقدت الحضارة ، واختلطت الوسيلة والغاية .

بينما نرى الطائفة الأخرى تستهين بهذه الناحية الجليلة وتهمل شأنها ، وقد رأينا كثيرا من الكتاب والمفكرين يحبون أن يعرضوا الاسلام فى العالم كحركة تقدمية شعبية أو نظام اقتصادى أو سياسى ، يهدف الى ترفيه الشعب واقامة حكم صالح نظيف ، يسود فيه الهناء والسعادة ، ويحكم فيهـــا بالسوية ، ويطمئن كل فيها الى نفسه وعرضه وماله ، فلا قتل ولا سرقة ، ولا غش ولا خيانة ، ولا غلاء ولا بلاء ، ولا الارتشاء ولا السوق السوداء ، وتكون جنة فى الأرض •

أما الغرض الأساسى من الاسلام الذى يقول فيه القرآن: « قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجـارة »[1] وهدفه الأول وهو النجاة فى الآخرة والوقاية من النار ، فانهم لا يذكرونها فى كتاباتهم الا مرغمين ، مقهورين ، كارهين ، خـــوفا من أن يتهمهم البعض بأنهم رجعيون ، يحلمـــون بالفردوس فى دنيا العمل والحياة ويخشون الناس والله أحق أن يخشوه •

الروح أولا :

الاسلام فى نظرهم مجرد حركة ونظـــام كالحركـات السياسية والمادية الأخرى ، الاشتراكية والشيوعية مثلا ، الا انه قد فاق أقرانه فى مواهبه المدهشة لحل مشاكل العالم،

---

(١) سورة التحريم ، الآية ٦ •

وصلاحيته للبقاء والاستمرار ، وانكاره لفروق اللون والجنس، وهذا صحيح ولا شك ! ولكن هل بعث محمد عليه الصلاة والسلام لينشىء حكومة شعبية راقية يعيش فى ظلها الانسان بسلام ويموت بسلام ، وهو لا يدرى غايته وواجبه فى هذه الحياة ولا يعرف ربه وان عرفه ، فلا يحبه ولا يخشاه ولا يتشوق الى الجنة ولا يخشى من النار ؟؟

وتطغى عليهم هذه الفكرة وتسول لهم أن يهملوا عالم القلب والروح ، ويسخروا منه بعض الأحيان ويحتقروا العاطفة وفعلها السحرى فى النفوس ، وينكروا أهمية الفرد فى المجتمع وتربيته الروحية وعلاقته مع الله ومشكلته الذاتية ، حتى يواجه الموت ويضمه القبر ولا يغنى عنه حينئذ أدب أو علم أو سلطان « يوم تبلى السرائر فماله من قوة ولا ناصر(١) » .

وربما يقول البعض اننا نقدم الاسلام كحركة عصرية تقدمية لئلا ينفر منه العقل الحديث وكذلك نقدم الآخرة كضرورة خلقية لأنها تسوغ انسان القرن العشرين الذى لا يؤمن الا بالنفعية والمادية ولا يفهم الا هذه اللغة وهذا الأسلوب وهذا حق ! لكن يجب علينا أن لا ننسى أن اثمه أكبر من نفعه ، اننا بذلك نبنى صرحنا الاسلامى على أشلاء

(١) سورة الطارق ، الآية ٩ ـ ١٠ .

الفكرة الاسلامية نفسها ، ونغذى نزعته المادية التى حاربها الاسلام ٠

ان الاسلام روح وتشريع ، وعبادة وثقافة ، ودين ودولة ، انه ينشىء فى أهله أولا هذه الروح التى لا يحتاجون بعدها الى رقابة ، وحراسة بوليس ، ويمدهم ثانيا بقانونه الالهى الشامل ، « نــور على نــور ، يهدى الله لنوره من يشاء[1] » ٠

نزلت آية منع الخمر فسالت الخمر فى أزقة المدينة ، وكسرت دنانها ، وقد كان الرجل منهم لم تفارق الخمر شفتيه ، والآخر كان يرفع الكأس الى فمه فيسمعان بمنع الخمر ويتوبان عن شربها حالا ، ولا يغيبن عن بالك أنه لم يكن هناك جبر ولا اكراه ، ولا سينما ولا دعاية ، ولا حراسة ولا رقابة ، وبعد ثلاثة عشر قرنا على هذا الحادث الفذ العجيب تصدر الحكومة الأميركية قانون منع الخمر ، وتنفق أموالا باهظة على الدعاية ، وتستخدم أحدث الوسائل فى بيان مضار الخمر عن طريق السينما والنشرات والاذاعة ، ولكن رغبة الشعب فى الخمر اشتدت بالعكس ، وقوى عناده ، حتى اضطرت الحكومة أخيرا الى سحب القرار واباحة الخمر قانونيا٠ وتمنع روسيا الخمر فى حدود دولتها فى ابان عهدها ، فلا تلبث أن ترغمها الظروف على اباحته ٠

---

(١) سورة النور ، ٣٥ ٠

ان الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا واضعى قانون فحسب ، بل انهم كانوا مبشرين ومنذرين ، ولما أن الاسلام كل لا يتجزأ ، فانه لن يكمل اتباع النبى صلى الله عليه وسلم فى التشريع والأحكام ، فحسب ، بل يجب علينا أن نتبعه فى سيرته وسلوكه ، وعبادته وزهده أيضا ، ونتلقى منه قسطا كبيرا من سمو الروح وتزكية النفس ، أما اذا أخذنا بمجرد التشريع وفاتتنا ناحية الروح التى هى كل شىء ، فقد فاتنا الهدف ، ولم يكمل لنا الايمان ، وحرمنا اللذة الحقيقية وتركنا اللباب .

ما هو الغرض من التشريع ؟ ان الغرض من التشريع كما هو المعلوم هو رفع المجتمع الى مستوى خلقى عال ، حتى لا ينحرف عن الطريق ولا يهبط الى الحضيض وحمايته من التدهور الخلقى والفساد ، فكيف لو جعلناه غاية وحسبنا غايته وسيلة ، كما فعلنا أمس بالآخرة حتى استغللناها كوسيلة لاقامة السلام فى العالم ، وحماية المجتمع من الأدواء الخلقية والنفسية والانحلال العائلى والاجتماعى ، ونسينا أن الاصلاح الخلقى ، ونظافة الأسرة والمجتمع ، والتحرز من الحرام ، والارتزاق بالحلال وأعمال البر والخير ليست غايات بنفسها ، انما هى وسائل للنجاح فى الآخرة والاعداد الروحى والنفسى لكسب المغفرة والرضوان من الله « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم(١) » .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٨٨ ــ ٨٩ .

الاسلام دين القوة ، ودين الحياة ، ودين الكفاح والجهاد، ودين التمكين والعزة ، ودين النظافة والطهارة ، ودين الرحمة والاخاء ، ودين الهناء والرخاء ٠

ولكن هى كلها منافع وثمرات يعطيها الله عباده المؤمنين، ونعمة ينعمها على أهل الايمان ، وهى كلها وسائل نبتغى بها رضى الله فى الدنيا والآخرة ، ونتقى بها النار ونكسب بها الجنة « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة(١) » « وابتغوا اليه الوسيلة(٢) » ٠

وانه من الجفاء كل الجفاء وظلم لا يعدله ظلم أن نخلط بين الوسيلة والغاية ، ونقلب الحقائق ظهرا لبطن ، ثم نزهو بهذه الخدمة الجليلة التى نقوم بها باسم العلم والدين ،والاسلام والمسلمين ، من غير أن نشعر أى نقص وقع فى جهازنا الفكرى وما سيكون له من نتـــائج سيئة وعواقب وخيمة فى الحيـــاة الدنيا ويوم يقوم الحساب ! « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد(٣) » ٠

* * *

القلب الصناعى
والقمر الصناعى

انها حضارة بلا قلب ، أو هى حضارة ذات قلب صناعى، والفرق بين هذا القلب وذاك كالفرق بين القمر الطبيعى الذى خلقه الله والقمر الصناعى الذى صنعه الانسان ، غير أن هذين القلبين يتشابهان فى الصورة والشكل والحجم ، ولا يبدو بينهما فرق فى النظر المادى .

ان قلب الحضارة العصرية قلب صناعى أو فى تعبير آخر هو قلب حيوانى شهوانى ، ليس للفضيلة والخير والأخلاق عنده معنى ، ولا للعاطفة النبيلة مكان .

ان « دارون » و « ميكافيلى » و « فرويد » و « ماركس » هم من الذين ساهموا فى صنع هذا القلب بنصيب أوفر ، ليزرعوه مكان القلب الانسانى الذى كان ينبض ــ حينا ــ بالرحمة والحنان ، ويتدفق بالحب والايمان ، ويفيض برا ومؤاساة لخلق الله ، ويحترق كالشمعة لخير البشرية وصالح الانسانية .

ان هذا القلب لم يصنع فى يوم واحد ، ولم يصنعه رجل واحد ، انه كان نتيجة عمليات مختلفة النوع والصورة تمت على أرض أوربا ، وخلاصة صراعات ثقافية ودينية

وسياسية وقعت بين الكنيسة والبــلاط ، انه نتيجة ملاحم دموية كثيرة ، واضطهاد رهيب وقع داخل محاكم التفتيش وخارجها ، والتى نقرأ أخبارها فى التاريخ الأوربى القديم، ونشاهد آثارها ونتائجها فى التاريخ الأوربى الحديث ٠

ان جميع هذه العوامل والأسباب والمؤثرات والتيارات الفكرية ساهمت فى تكوين هذا القلب وصناعته ، ولكـن الجيل الجديد من بعد قد وضع النقط على الحروف ، ونقض آخر خيط كان يربط القلب بالمعانى الانسانية الكريمة والأقــدار الخلقية المعروفة فى كل بلد وقطر ، المحترمة فى كل أمــة وشعب ، فجاء « دارون » ليقطع صلة الانسان عن أعظم تراثه الانسانى ، ذلك التراث والتاريخ اللذين استحق بهما الانسان أن يكون شيئا آخر أعز وأسمى من الحيوان والجماد ، وشيئا آخر أعز وأسمى من تطورات المادة والطبيعة ، وألاعيب الزمان والمكان ، وجاء « فرويد » لينفى قيمة العواطف النبيلة والسمو الانسانى ويهبط بالانسان فى مستنقــع آسن متعفن من الجنسيــة والشهــوة ، يتمرغ فيه كالحشرات ، وجــاء « ميكافيلى » فبث فى الناس أن كل كذب وتضليل واستعباد واضطهاد جائز فى سبيل المصلحة السياسية ، فلا حرج فى القيام بأفظع الجرائم وأشنع المنكرات لاشباع رغبة قوميــة وتحقيق مصلحة سياسية ، وجاء « ماركس » فقال : ان البطن هو المحور الحقيقى للنشاط الانسانى الذى تم فى التاريخ والذى سيتم فى المستقبل ٠

نجحت كل هذه الجهود والمحاولات أو المؤامرات ، ووجدت الانسانية قلبا جديدا ، ولكنه كان قلبا صناعيا ، لم يترك فيه الصناعون ناحية واحدة للمشاعر الانسانية .

ترى ماذا يحدث اذا وضعنا قلب حيوان فى أحشاء انسان أو بالعكس ؟ ماذا يمكن أن يكون هذا الانسان بعد هذه العملية الخرقاء وبماذا نسميه اذا ؟ ولكن ذلك حدث فعلا ، فكان من نتيجة ذلك أن نشأت حضارة غير منسقة ، فاقدة الاتزان ، فتضخمت نواح تافهة ، لم يكن لها كبير قيمة على حساب نواح أولية ، كانت فى الدرجة الأولى من الأهميه ، وهذا هو الشىء الذى التوى فهمه على كثير من مفكرى الغرب ، فقالوا : ان حضارتنا قامت من غير تصميم سابق ، كلا بل انها قامت على تصميم سابق ، لكنه تصميم زائغ . ان هذا القلب الصناعى الذى تحملونه بين جنبيكم لا يسمح لكم أن تروا الأمور على حقيقتها ، انه ــ كالمنظار الأسود ــ يغير لكم لون الأشياء ، ويؤثر فى تفكيركم وحكمكم فيها من غير أن تشعروا بهذا التغيير ، بينكم من يقوم بنقد شديد لاذع لحضارتكم ، ولكن لا يمكنهم مع ذلك أن يقطعوا صلتهم عن هذا القلب الذى صنعه فلاسفتهم وعلماؤهم فى عصر النهضة الأوربية .

ان حادث القلب الصناعى الذى تم اعداده على مرأى من الناس ومسمع ، لم يحرك فيكم ساكنا بينما هذا القمر الصناعى الذى أطلقته روسيا أخيرا أدهشكم جميعا ، ونال

اعجابكم جميعا ، انه القلب الصناعى الذى يخفى لكم كثيرا من الأشياء ، ويكشف أخرى ، وينقص من أهمية شىء ،ويزيد من أهمية شىء آخر ٠

« لقد تكلم « اينشتين » بنظريته المشهورة « نسبية الزمان والمكان ، والمادة » قائلا ان كل شىء نسبى لنا ، وقال بعض فلاسفتكم : ان يوما واحدا فى عالم ما بعد انقضاء يساوى قرنا أو أكثر منه فى هذه الكرة الأرضية ، فالرجل الذى يسافر الى المريخ سيعود منه فى يوم واحد ، لكنه لا يجد أحدا ممن تركهم ، لأنه يكون قد مضى زمن طويل على هذه الأرض ٠

آمنتم بهذه النظرية ، وتناقلتها صحفكم وأقلامكم ولم تفطنوا حتى الآن الى أن نظرتكم الى الكون والحياة والانسان ، نظرة نسبية على الاطلاق ، ورأيكم فى القيم الخلقية والانسانية رأى نسبى كذلك ، لأنه صدر عن قلب صناعى ، وهذا القلب لا يستطيع أن يحكم فى الأشياء الا من وجهة نظر مادى بحت ، ويجهل كل شىء ، لا يدخل فى حيز وظيفته ،ولكنكم لم تلقوا أى اعتبار لهذه النسبية القلبية التى بليتم بها ، وأبتليت بها الانسانية ، وصفقتم للنسبية الكونية والزمنية التى لا صلة لها بالانسان ، الا من بعيد ٠

أما أصبحت الخلاعة والمجون أدبا والظلم قوة والمكر والخديعة كياسة ولباقة ، انها نسبية « القلب الصناعى »

ولغته التى لا تفهمونها انها أقوى من نسبية « اينشتين » لو كنتم تعلمون .

أليس من العجيب أن الانسان الذى يحاول أن يطير فوق آفاق أخرى ، ويصل الى كواكب بعيدة جدا من الأرض ، هو فى الوقت ذاته يخالف أبسط قواعد الأخلاق والرحمة والانسانية ، بل المدنية العامة ويهبط الى مستوى أسفل من الحيوانية .

أو ليس أعجب من ذلك أن كثيرا من الناس فى الغرب يعرفون جيدا أنهم سائرون فى سبيل الدمار العالمى ، وأن هذه المسابقة الرهيبة فى حقل المادة والقوة سيؤدى بهم حتما الى الفناء ، فبدلا من أن يخففوا شيئا ـ بحكم المنطق ـ فى هذا الهوس المادى نراهم قد غلوا فى هذا الهوس وأكثروا منه وأصبحوا أكثر نشاطا وقوة وجنونا من ذى قبل .

انه « القلب الصناعى » مصيبة القرن العشرين ، القلب الذى ربيناه على آخر أنواع علمها البشر من الاثم ، وآخر درجات وصل اليها الانسان من البغى والطغيان ، انه القلب الذى علمناه أن لا يرحم أحدا ولا ينصر مظلوما ولا يرعى الا ولاذمة .

ان القمر الصناعى يفضينا الى سر خطير من أسرار التاريخ ، ويكشف عن لغز كبير من ألغاز الحياة ، انه يلفت

أنظارنا الى « القلب الصناعى » ذلك الـداء الذى تحملـه البشرية بين جنبيها ، وهى لا تدرى أين الداء ؟ وتبحث عبثا عن الدواء .

ان القمر الصناعى اشارة صوتية من الفضاء لنعلم أن الشىء الذى نتعاقبه فى الجو ، ونبحث عنه فى مظاهر الطبيعة الكونية يكمن فى قلب الانسان نفسه ، وهو ينتظر من يكون القادم الأول لهذا الكشف الانسانى العظيم .

ان القمر الصناعى تحذير للذين لا يبصرون أكثر من المادة والمعدة ، أنهم قد أخطأوا فى اختيار الجهة ، واختاروا طريقا موحشا مضلا لا يضمن الوصول الى السعادة الحقيقية للانسان ، بل انه نذير خطر جديد ، خطر نكوص البشريـة على عقبيها عدة قرون ، اذا أصروا على صحة الجهة ، وسلامة الوصول ، ومن يدرى الى متى تظل البشرية هكذا ، حائرة تائهة فى غياهب القرون والأجيال .

انها الحضارة الألهية !

ان الاسلام « حضارة الهية » اذا صح هذا التعبير ، فهو ليس كأصنام ينحتها البشر بأيديهم ثم يعبدونها ، أو يحطمونها اذا غضبوا عليها ، ويضعون محلها صنما آخر ، هو ليس كالمذاهب الفكرية والحركات الاجتماعية التى اخترعها الانسان فى مختلف أدوار التاريخ ، ثم فرضها على نفسه من غير سلطان بين ، وأحاطها بهالة من التقديس والاجلال ٠حتى اذا وجد آن هذه الحركات لا توافقه نسيها أو تناساها ، ووضع محلها مذهبا آخر ، وهو مغرور بنفسه وبعقلـــه ، لا يدرى أين يسير به هذا الدوران ، وما هى نهاية المطاف ؟

ان موقف الاسلام من هذه الأصنام الماديــة والمذاهب الانسانيه موقف صريح وموقف بين ، انه لا يفرق بين الأصنام القديمة والحديثة ، فكلاهما فى نظره سواء ، لأنهما من صنع البشر ٠

أما هو ــ أى الاسلام ــ فهو « شريعة ومنهاج » من عند الله ، انزله على البشر ليسير على هداه ، وبما أنه من عند الله

---

(٢) سورة المائدة ، الآية ٣٥ ٠

فهو محفوظ عن الخطأ والانحراف ، والزيغ والضلال ، لا حاجة فيه الى تعديل أو تغيير ، ولا حاجة فيه الى ادخال تحسينات واصلاحات شأن المذاهب الانسانية والحركات الاجتماعية والسياسية كلها ، والى ذلك أشار القرآن حين قال : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير[1] » وقال : « لا مبدل لكلمات الله وهو السميع العليم[2] » .

اذا فهو « حضارة الهية » فما أسس هذه الحضارة ومبادؤها ؟ وما هى روحها وغايتها ؟ وكيف تكيف المجتمع تكييفا كليا ، وتخلقه خلقا جديدا ؟

المبدأ الأول : اذا دققنا النظر وتعمقنا فى دراسة هذه الحضارة وجدنا أن هنا شيئا واحدا يهيمن على الجهاز كله ، ويسيطر عليه سيطرة كاملة ، وهو أن الوصول الى الله ونيل رضاه هو فى الحقيقة وظيفة الانسان الأولى والأخيرة فى هذه الحياة ، ولا وظيفة له غير ذلك مطلقا ، فيجب عليه أن لا يسعى لشىء مثل ما يسعى لهذه الغاية ، ولا يحب شيئا مثل ما يحبها . « قل : « ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين[1] » « واذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا[2] » . ان هذه العقيدة وهذه العاطفة هو الينبوع الذى

---

(١) سورة الملك ، الآية ١٤ .

(١) سورة الأنعام الآية ٦٢ .

تتفجر منه الأنهار والشلالات فيظن الجاهل أن هذه الأنهار أو هذه الشلالات هي غايته القصوى وأنها هي المقصودة ، ولا يفهم أنها مظاهر هذه العقيدة ، أو أجزاء هذا الكل ، وقد يندهش الباحث اذ يرى - وهو يدرس هذه الحضارة - أن خيطا من النور يربط مظاهر هذه الحضارة وأجزائها برباط متين وثيق ، فمن اماطة الأذى عن الطريق الى آخر درجات الجهاد وأفضل أنواع السعى الدينى روح واحدة لا يتخللها شيء ، روح التقرب الى الله والسعى اليه ، ان هذا التناسق وهذا الانسجام بين مبادىء هذه الحضارة وأعمالها ومظاهرها شيء يدهش له الانسان ولا يجد له تأويلا ، وكلما يخوض فى الدراسة يزداد حيرة واعجابا ، ويزداد ايمانا وتصديقا . « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا(١) » .

بخلاف « الحضارة الانسانية » فانه يرى أن الغايات هنا متعددة ، والأهداف هنا متنوعة ، والآلهة هنا كثيرة ، أو ليست هناك غاية ولا هدف ، ولا اله على الاطلاق ، كما أنه لا يجد تناسقا فى الأفعال ، ولا اتحادا فى الغايات ، فما لقيصر لقيصر ، ومالله لله ، بل مالله لقيصر - اذا نظرنا الى الحالة السائدة اليوم .

أما فى الحضارة الالهية فالحياة كلها عبادة ، والأرض كلها مسجد ، فلا ترى انسانا فى هذه الحضارة الا وهو فى

---

(٢) سورة الأنعام .

(١) سورة النساء ، الآية ٨٢ .

سعى دائب متواصل ، وحنين دائم مستمر لأن يكون أحسن عملا من جميع الناس ، وأن يكون « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا(٢) » .

وهذا هو المبدأ الأول الذى يقوم عليه صرح حضارتنا الالهية، وهو ينفخ فى نفوس أبنائها روحا تحترق كالشمعة، وقلبا سليما لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال ، وعاطفة مؤمنة جياشة لا يغرها الجمال الكاذب والمتاع الذاهب ، وتسيطر هذه الروح على جميع مرافق هذه الحضارة فمن النظام الفردى الى النظام العائلى الى النظام الأسرى ، الى النظام الاجتماعى ، الى النظام الدولى مظاهر متعددة لشىء واحد ، وصور شتى لحقيقة واحدة :

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل الى ذاك الجمال يشير .

انها حضارة متسقة متزنة ، قد يختلف فيها الاثنان فى منهاجهما وسلوكهما ، وقد يختلفان فى وظائفهما وأعمالهما ، فهذا تاجر وذلك عامل ، وهذا موظف وذلك فلاح ، وهذا حاكم وذلك محكوم ، وكل له حقل خاص ، ووظيفة خاصة ، ولكن الشىء الذى لن يختلف فيه اثنان فى هذه الحضارة هو النية من وراء هذه الوظائف والأعمال ، والروح التى تحدوها ، فان

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٩ .

هذا الشيء لا تتعدد فيه مسالكهما ولا تتفرق فيه سبلهما أبدا .

المجتمع الرباني : اذا قلنا ان مجتمع الحضارة الالهية مجتمع تعاوني اشتراكي ، لعدلنا كثيرا عن الصواب ، ان هذا المجتمع أكثر من اشتراكي وتعاوني وأفضل منه ، وهذا المعنى لا يكفي لتصوير روحه كاملا ، ان المجتمع الاشتراكي يقوم على أساس تبادل المنفعة ، بل ان كل مجتمع انساني يقوم على أساس التعاون والاشتراك في العمل ، ولا يستطيع أن يعيش يوما واحدا بغيره ، فان الانسان خلق ضعيفا ، ولا بد لهذا الانسان الضعيف أن يكون له أعوان وأنصار وأصدقاء ، ولكن المجتمع الرباني له لون خاص ومكانة فريدة بين الحضارات ، انه لا يعتبر الانسان ـ شأن الحضارات الانسانية الأخرى ـ سلعة للبيع مهما كانت ثمينة أو غالية ، ولا يحب له أن يعيش على أساس تبادل المنفعة فحسب ، بل انه يهديه الى طريق أفضل ، وهو أن يعيش الانسان في هذا العالم لتعيش رسالته ودعوته التي بعث من أجلها ، وأن يخدم الآخرين ويساعدهم غير طامع في أجر ، ولا حريص على مكافأة « يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ، ان أجرى الا على الذى فطرني أفلا تعقلون[1] » وأن لا يعلق قلبه بمباهج الحياة وزخارفها ، فان أصابته سراء حمد الله ، وان أصابته ضراء استغفر الله ،

---

(۱) سورة هود ، الآية ٥١ .

وأن يؤمن بأن القدر خيره وشره من الله تعالى ، فلا حاجة الى الاستعانة بمخلوق والاقبال عليه فى أمر من الأمور ، بل ينبغي للجميع أن يتوجهوا الى الله ويثوبوا اليه ، وأن لا يقصروا فى أداء ما عليهم من حقوق وواجبات وأمانات فرضها الله عليهم ، غير طامعين فيما عند الناس فان ما عند الله هو خير وأبقى ، وكان هذا شعار الأنبياء دائما ، وشعار أصحابهم من بعدهم .

ان الفرد فى هذا المجتمع لا يبر أخاه ، ولا يساعده ، ولا يعنيه كواجب خلقي محض ، يجب على الجميع أن يؤدوه كاملا وفق ما تفرض عليهم اشتراكية المجتمع ، بل انه يقوم بهذا العمل حرصا على الثواب ،وطلبا للمغفرة ، وطمعا فى رضى الله سبحانه ، وفى هذا المعنى يقول الحديث الشريف : « الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » بخلاف الفلسفة المادية التى تقول : « ان العبد فى عون العبد ما داما متعاونين » وشتان بينهما ، فالنتيجة أن كل فرد فى هذا المجتمع يبقى فى محاولة مستمرة ، ليسبق أخاه فى الخيرات والحسنات ، حتى يستحق ثواب الله ورضاه ، ويستحق جنته التى وعدها الله عباده بالغيب .

اليد العليا خير من اليد السفلى :

لعل هذه الجملة هى خير ما تمثل المجتمع الربانى ، فهى تربى المجتمع على أجمل معانى التضحية والايثار ، وهو مظهر

رائع من مظاهر الحضارة الالهية والمجتمع الربانى •

ومعنى اليد العليا أن يؤدى الانسان واجبه ولا يطلب حقه ، وأن يعطى ولا يأخذ ، وأن يعين ولا يستعين ، وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فاذا استقرت هذه المعانى فى مجتمع ، رفعت منه الثورات والضغائن ، وذابت فيه الأحقاد ، وقضى على النفعية والانتهازية وحب الذات الى الأبد ، وهذا هو الشىء الذى لم يوفق اليه المجتمع المادى ، فكله الآن صراع مستمر من أجل الحقوق ، العمال يحبون أن يعملوا قليلا ويربحوا كثيرا ، وأصحاب المعامل لا يريدون ذلك ، انهم يحبون أن يكدح العمال والفلاحون ليل نهار مقابل راتب ضئيل لا يكفى لمطالب حاجاتهم ، وهنا ينشأ الصراع ، ثم ينتهى هذا الصراع الى اضرابات ، وتؤدى هذه الاضرابات الى معارك دموية ، تزهق فيها الأرواح ، وتسفك فيها الدماء •

أما فى المجتمع الربانى فالحالة هنا مختلفة تماما ، لأن كل فرد فيه حريص على الانفاق ، حريص على الخير ، حريص على السماح والعفو ، فلا داعى للصراع بين الطبقات ، ولا مبرر للحقد والبغضاء فى النفوس •

« عن أبى ذر قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يشترط على أن لا تسئل الناس شيئا ، قلت : نعم • قال : ولا سوطك ان سقط منك حتى تنزل اليه وتأخذه » وهذا الحديث وحده يعيننا فى فهم هذا المجتمع ودراسته وتحليله •

ـ وفى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما نقرأ عنه من أنه كان يزاول جميع أعماله بيده المباركة أكبر دليل على ذلك . والتاريخ الاسلامى حافل بهذه الأمثلة والقصص فنرى أن كل من تذوق حلاوة الايمان ، ودخلت بشاشته فى قلبه أفنى نفسه وماله ابتغاءا لوجه الله ، وطمعا فى رضاه ، وبالغ فى خدمة الناس وايصال النفع اليهم ومعاونتهم بينما لم يرض لنفسه أن يمن عليه أحد ولم يطلب حقه من أحد ، وتمنى لو جمع بين حسنات الجميع ورجع بثواب الجميع .

تضحية وايثار :

ان التعاون واجب وطبيعى ولازم للبشرية ، ولكن دراسة الاسلام ودراسة حضارته الالهية تقنع الباحث الحر أن هنا فرقا عظيما بين المجتمعين : الربانى والاشتراكى ، وأن هذا المجتمع لا يشبه المجتمعات القديمة والحديثة أدنى شبه ، وأن له آفاقا لا تشاركه فيها المجتمعات الأخرى .

ففى الأول تضحية وايثار وعفو وسماحة ، سماحة قلب وسماحة يد ، وسباق الى الخير ومكارم أخلاق ، وذلك كله ايمانا واحتسابا .

وفى الثانى سوق للتجارة وتبادل منافع ومصالح ، وتقسيم أرباح ، فاذا قصر أحد فى واجبه حدث صراع بين

الأفراد ، وعمت الفوضى ، فلا يلبث هذا التعاون أن يتحول الى تطاحن وعراك ، يكدران صفو الحياة .

فى الأول : الناس يستقبلون تكاليف الحياة ومطالبها باسمين وان لم يجدوا جزاءها فى هذه الدنيا ، لأنهم واثقون بأنهم سينالون جزاءها موفورا فى الدار الآخرة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة(١) » .

وفى الثانى : الناس لا يستطيعون أن يتحملوا تكاليف الحياة ومطالبها الا اذا كانت لهم فى ذلك فائدة ملموسة ونفع ظاهر فى هذه الحياة ، ولا يحبون أن يحسنوا الى أحد الا اذا أحسن هو اليهم ، ولا يؤثرون على أنفسهم ولو كانوا أغنياء ، وذلك لأن حب الذات قد طغى عليهم الى حد جعلهم لا يفرقون بين الشر والخير ، ولا يميزون بين الخبيث والطيب « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا(١) » .

فاذا وصف أحد المجتمع الاسلامى بأنه مجتمع اشتراكى أو تعاونى ، فقد أخطأ وأساء الى روح هذا المجتمع وشبهه بشىء لا يرفع قيمته بل ينقصه ، وانه بذلك أدخله فى صف المجتمعات المادية قديما وحديثا ، التى لا ندرى ان واحدا منها حقق عشر ما حققه المجتمع الاسلامى ، أو أتى بثمرة واحدة من الثمار الطيبة التى يتوفر بها هذا المجتمع .

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٩ .

(١) سورة الكهف ، الآية ١٧ .

الى الله :

وإذا كنا أكثر صراحة وبساطة وأكثر دقة ووضوحا قلنا : ان هذه الكلمة الخفيفة على اللسان ، الثقيلة على الميزان هى فى الحقيقة محور نشاط هذا المجتمع ، وكعبة آماله وأحلامه ، وهى التى تنفخ فيه الروح وتبعث فيه النشاط ، وهى حادى الشوق الذى يحدو هذا المجتمع الى غايته ومقصوده ، ويحبب اليه متاعب السفر ، وآلام الطريق ، ويجعله ينشد بلسان حاله :

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر
وبينى وبين العالمين خراب

اذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذى فوق التراب تراب

ان المثل الفريد لكل فرد فى هذا المجتمع أن يكون من عباده الذين ذكرهم الله فى كتابه المجيد ، بقوله : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » فهو يبذل ماله ونفسه بلا تردد ولا حساب، ليجمع أكبر مقدار ممكن من الحسنات ، والحسنات لا حد لها ولا نهاية ، وكلما يزداد حسنة يزداد شكرا وحمدا ، وتوبه واستغفارا ، وخشوعا وابتهالا ، ولا يزال يقطع مسافة بعد مسافة ، ويطوى مرحلة بعد مرحلة ، ويقتحم عقبة بعد عقبة ، الا ويتكرر فى أسماعه قول الله تبارك وتعالى « هو الذى خلق

الموت والحياة ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا(١) » « واعبد ربك حتى يانيك اليقين(٢) » و « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه(٣) » . فتجيش العاطفة فى صدره مرة ثانية ، ويواصل رحلته الروحية بنشاط مزيد وأمل جديد ، حتى يسمع هذه البشرى » من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهـدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، ومـا بدلوا تبديـــلا(٤) » « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة(٥) » « يا أيتها النفس المطمئة ارجعى الى ربك راضيه مرضـية ، فادخـــلى فى عبادى وادخـــلى جنتى(٦) » .

ان هذه العقيدة الدافئة ، وهذا اليقين الراسخ ، والحب الصادق ، هو أكبر قوة موجهة وأكبر معجزة عرفتها البشرية فى عمرها الطويل ، وبهذه القوة الخارقه والمعجزة الكبرى كان وجود حضارتنا الاسلامية وحياتها ، وبذلك كان بقاوها واستمرارها ، وبذلك كان نموها وازدهارها ، وبذلك كان ابداعها واعجازها ، الحضارة التى أدهشت عقول الفلاسفه والمفكرين ، وحيرت العلماء والمؤرخين فى التاريخ ، ولا غرابة فانها شىء أعز وأثمن من التاريخ ، انها من الله واليه .. انها « الحضارة الالهيه » .

---

(١) سورة الملك ـ ٢ .
(٢) سورة الحجر ـ ٩٩ .
(٣) سورة الانشقاق ـ ٦ .
(٤) سورة الأحزاب ـ ٢٣ .
(٥) سورة التوبة ـ ١١١ .
(٦) سورة الفجر ـ ٣٠ .

الغرب
فى ضوء التحليل النفسى

ان دراسة الحياة الغربية بما فيها من متع وزخارف ، وآلام ومخاوف وتحليلها تحليلا نفسيا توصلنا الى نتائج مهمة، لها صلة كبيرة بالوضع الانسانى الحاضر والعالم المعاصر ، كما أن فيها دروسا عظيمة للعالم الاسلامى الذى يتهيأ اليوم للوثوب والانطلاق للتعويض عما فاته عبر القرون الماضية المتلاحقة ، وأخذ يبصر نهاره الساطع وراء السحب الداكنة والدخان المتصاعد من الفتن والثورات والتطورات وان لم تتبين معالمه وتباشيره بوضوح ٠

ان الحياة الغربية ليست وليدة المصادفة ، ولا مفقودة النسب بل انها قامت على تقاليد وأصول ومبادىء وتاريخ ، وانتمت الى الحضارة الرومية وورثتها خلقيا وفكريا ، ولها مقومات ونظريات خاصة ، لا يمكن اهمالها والاعراض عنها ، ونحن فى موقف الدراسة النزيهة ، والتحليل النفسى الخالص٠

ان الصراع الطويل بين العلم والدين وبين الكنيسة والبلاط دفع أوربا دفعا قويا الى الأخذ بالأساليب المادية فى حياتها بل التفانى فيها ، وظلت هذه النزعة تقوى على مر الأيام ، حتى آل بها الأمر الى ما نراها عليه الآن ، وكان كل

ذلك طبيعيا وواقعا لا محالة ، ولكنها كانت النكبة الأولى والمأساة الأولى ، والنكبة الثانية بدأت الآن – بعد أن بلغت أوربا أوج قوتها المادية – وتجلت معالم هذه النكبة بوضوح فى الحياة الأوربية اليوم .

كانت النكبة الأولى نكبة لذيذة اذا صح هذا التعبير ، نكبة شاب فج متهور لا يبالى بالاخطار ، لقد كان فيها الحرارة والنشاط ، والتحمس والاندفاع ، والآمال والأحلام ، كان فيها شوق رجل يريد أن يرتقى الى قمة عالية من الجبل ، وهو يتوهم أن فيها معين الحياة الخالدة التى طالما تغنى بها الشعراء فى الشرق والغرب ، فهو فى حنين دائم مستمر ، لا يعرف للسهر والتعب معنى ، ولا يحسب لهما حسابا ، ويندفع اليها اندفاع الهائم أو المفتون ، وهذه كانت حالة أوربا تماما طوال هذه الحقبة من الدهر .

ولكنها الآن – وقد بلغت هذه القمة ، وجدتها خرابا بلقعا – تواجه أزمة عاطفية حادة ، لا تستطيع أن تعرف كنهها ، ولا تقدر على التخفيف منها ، انه الشعور بالفراغ الروحى ، انه الملل النفسى أو السآمة النفسية التى اعترتها وطغت على سائر بيئاتها ، فلم تخل منها مدرسة ولا بيت ، وكان كل ذلك طبيعيا وواقعا ، فان الانسان مفطور على الحنين والتطلع الى الهدف أيا ما كان ذلك الهدف ، وهو يحب أن يكون له هدف يجرى نحوه جريا ، ويتلذذ بهذا الجرى

المتواصل ، واذا نال هذا الهدف أحب أن يكون له هدف آخر يستهلك قواه ومواهبه وطاقاته وأشواقه •

ان الحياة الغربية اليوم حياة مريحة « مكيفة » والانسان الغربى نال كل ما تمنى من قوة مادية ، وعزة قومية ، ومع ذلك فان هنالك آلاما وأوجاعا ، تعانيها كل أسرة وكل بيت فى الغرب سواء فى أميركا أو فى انجلترا ، أو فى أى قطر من الأقطار الأوربية •

انهم يبدون لك كأنهم فقدوا شيئا ، ولا يعلمون ما هذا الشيء ؟ ولكنه شيء خطير ، أعقب كل ذلك الخلل والاضطراب ، والقلق والارهاق ، والملل والسآمة ، والفراغ الروحى الرهيب المبيد فى الحياة الغربيـــــة ، وملأتها مخاوف وهواجس من مصيرها ، ولكن هل هى تعرف مصيرها ، كلا ! انها اذا حيرة، حيرة صامتة ، استبدت بالحياة الأوربية ، أو مست كل فرد من أفرادها ، من غير أن يعرف من أمرها شيئا •

فما هى آثار هذه الحيرة وتلك السآمة فى حياتها ؟

لئن كانت آثار هذه الحيرة والسآمة غامضة نوعا ما قبل أعوام ، فانها أصبحت الآن واضحة جلية ، فى جميع مرافق الحياة الأوربية ، نلمسها فى كل شـــارع ، وفى كل بيت ، ونقرأ أخبارها كل يوم فى الصحف ، والجرائد ، وان نمر بها مرا سريعا ، من غير أن نفهم دلالتها ومغزاها العميق •

أفادت الأنباء منذ أيام « أن رجلا فى « أستراليا » ابتنع

ثمانية فيران ، نظير ١٧ فلسا تقريبا ، فقبض عليه البوليس بتهمتين : تهمة محاولة الانتحار ، وتمهة انقسوة بالحيوان وأجريت عملية جراحية فى بطنه ، فخرجت منه الفيراز الميتة » .

لئن كان ذلك حادثا واحدا ما استرعى اهتمامنا ، ولم نقف عنده موقف المتأمل الباحث ، ولكن توالى هذه الحوادث وتتابعها بصورة عامة دائمة ، حتى أصبحت ظاهرة قوية من الحياة الأوربية ، وجزءها الذى لا ينفك عنها ، دفعنا على أن نحاول فهم دلالتها المعنوية والوصول الى كنه الحياة الأوربية التى تعانى آلاما وأمراضا اجتماعية وخلقية كثيرة من غير سبب ظاهر .

واليك مثالا آخر قد يكون أكثر دلالة وأكثر وضوحا « قام أساتذة جامعة أوربية وعلماؤها بتجربة مثيرة ، فقد خرجت جماعة مؤلفة من كبار أساتذة الجامعة ، ودخلوا فى حديقة وانطلقوا يأكلون الأعشاب والبقول على هيئة الدواب والأنعام ، وقال العلماء : انهم وجدوا لذة كبيرة فى هذه الطريقة الجديدة .

وقرأنا فى الجرائد منذ زمن أن رجالا قاموا بمباراة الكلام الفارغ فأخذوا يتكلمون ثلاثة أيام ليلا ونهارا بدون انقطاع حتى تورمت ألسنتهم ، وأشرفوا على الهلاك ، وآخرون قاموا بمسابقة المشى ، فربطوا بأرجلهم دواليب تنزلق بهم ، فلم يقفوا للحظة واحدة مدة يومين أو ثلاثة ، وذلك رجل

دعا الصحفيين الى حجرته في احدى المطاعم الأوربية الفاخرة، لمشاهدة حادث انتحاره ، وقال : انه دعاهم ليشاهدوه منتحرا ، ثم يسجلوا هذا الحادث الفظيع فى صحفهم بعناوين بارزة ٠

وهذا يقفز من الطائرة ويقتل نفسه ، ليجرب هذا النوع الفريد من الانتحار الذى لم يوفق اليه أحد من الناس حتى الآن ، وذلك ثرى يقف كل ثروته وممتلكاته لكلبه الحبيب الوفى بعد وفاته ، وهذا أرستقراطى كبير ذو مكانة مرموقة فى المجتمع يبنى بناية شامخة مكيفة لكلابه المدللة ٠

ان مثل هذه الظواهر والحوادث تجلت فى كل ناحية من نواحى الحياة الأوربية ، وتسربت فى أجزائها ، ولو استقصينا ما وقع بالأمس القريب ، ويقع اليوم ، وما يجرى فى هوليوود من مهازل لرجعنا بحكايات مضحكة طريفة ، قد لا تصدق ، ولكنه واقع لا ينكر ، وهو طابع الحياة الأوربية الأصيل فى الوقت الحاضر ٠

اذا درسنا تلك الحوادث والظواهر التى ذكرناها آنفا وحللناها رجعنا منها بنتيجة واحدة ، وهى :

ان جميع هذه الحوادث تدل على قلق نفسى شديد وفراغ روحى رهيب ، أغلق على الغربى منافذ فكره ، وأظلم دروب حياته فظل يروح نفسه بأشياء تافهة ، عساها تجد فيها متعتها ، أو يبلغ بغيتها ، أو يروى غلتها ، أصحاب هذه

الظواهر يبدون فى الظـاهر أنهم أثرياء مترفون متنعمون ولكنهم فى الحقيقـة أشقياء غير مسرورين، مصابون بآلام وأسقام وأوجاع نفسية وعصبية وروحية، جعلت حيـاتهم جحيما لا يطاق .

انهم جعلوا المجد والشهرة والقوة السياسية والمـادية نصب أعينهم، فبلغوها وجنوا ثمراتها، وهنـالك بدأ ذلك الصراع النفسى، فماذا بعد هذه الحرية العامة والانطلاق التام من قيود الخلق والروح، الا الحيرة والجنون والضلال .

ونسوق اليك مثالا آخر، وهو يؤيد قولنا أنه لم يبق جزء، من الحياة الأوربية، الا وقد تأثر بهـذه الظاهرة، واصطبغ بلونها، وان هذه الحوادث ليست حوادث فجائية، أتت عفوا، ومن غير قصد، بل انها نتيجة تطور داخلى هائل وداء أصيل كامن فى النفس، له جذور عميقـة، فى قرارة الحياة الغربية .

خذ مسألة الطعام، ان طريقة المآدب الأوربية المفضلة اليوم أن يأكل فيها الناس قيـاما، فعليهم أن يتجولوا فى صالة الطعام ويأخذوا لقمة من هنا ولقمة من هناك، مشيا على الأقدام .

كل ما فى الأمر أن هذا شيء جديد، وان خالف العقل والصواب، وان خالف مصلحة الانسان، ومنفعته أيضا .

ان الدوافع الأساسية على مثل هذه الأعمـال والظواهر

دوافع متشابهة • فالذى ابتلع الفيران لم يكن فى حاجة الى هذه الفلوس القليلة ، بل انما قام بهذا العمل العجيب الكريه ليواجه ــ ولو من غير نتيجة ــ ذلك الفراغ الذى حطم كيانه ، ولما أنه لم يكن يملك أعصـــابا قوية تدفعه على عمل مثل الانتحار ، رضى لنفسه بمثل هذه التفاهة والعبث الفارغ •

والذين قلدوا الدواب والأنعـــام فى أكل الأعشـــاب والبقول لم يقوموا بها بدافع الفضول أو على سبيل النكتـة والسخرية ، انهم أرادوا عزا علميا ومكانة اجتماعية ، فنالوها وأرادوا الدنيـــا فتهالكت عليهم ، فاستمتعوا بها ، ولـكنهم أحسوا سريعا أنها أخفقت فى اعطـائهم طمأنينتهم المفقودة ، وسر حياتهم الضائع ، ولما لم يكن أمامهم طريق غير هـــذا الطريق المادى ، ولا هدف غير هذا الهدف المادى ، أرادوا أن يجربوا حياة الدواب ويعيشوا فى هذا الجو حينا من الدهر ، علهم يجدون ما يبتغون •

انها سآمة ولا شىء ، سآمة خفيـــة كامنة فى الدم ، غارقة ، فى اللحم والعظم ، سآمة فى كل حركة ونشاط ، وفى كل ما يقومون به من أعمال •

الحياة الغربية حيـــاة ربطت ناصيتها بالآلة الصماء ، فانها ــ مهما ابتليت بها على يديها ، وذاقت منها ألوانا من العذاب ــ مربوطة بها بالسوق والأعناق ، لا ترى الى المناص سبيلا ، ولا تجد الى الخلاص حيلة ، اذا أخفقت فى نوع جربت نوعا آخر من نفس الشىء الى ثالث ورابـع وخامس ، دوران لا ينتهى ولا أمل فى انتهائه ما دامت لا تعدو أرضا واحدة ، هى أرض المـادة والقوة القومية •

مقياس الحضارة فى المجتمع الاسلامى

هذه الناطحـــات للسحاب ، وتلك المبــاريات للريح ، وهذه الخافقات فى السماء ، والسابحات فى الماء ، وهـــذه الأنوار المتلألئة البديعة والألوان الرائعة البهيجة ، وهـــذه الأصوات المحمولة على جناح الأثير ، والصور الحية المتحركة على الشاشة ، وهذا المقعد المريح ، والفراش الوثير ، والطعام اللذيذ ، والزى الأنيق ، وهذه الابتسامة المتكلفة ، والمشـــية المتبخترة ، وهذه الأجساد العارية الكاسية ، والنزوات الثائرة العاتية ، وهـــذه الحرية الكاملة فى طريق الشهوات الفتيـــة الجامحة ، ليست « حضارة » انما هى مظهر طبعى ، ومظهر برىء ، ومظهر صادق ، للروح المستورة وراء هذه المظاهر والصور والأشكال .

انها ليست حضارة أبدا ، وانها ليست نهضة أبدا .

فالعبرة دائما ـ وفى جميع الأحوال والملابسات ـ باليد العاملة من وراء ستار ، وبالروح الآمرة الناهية المتصرفة فى خفاء ومن وراء جدار .

عندنا فى الشرق ـ وفى الشرق الاسلامى بوجه أخص ـ خلط والتباس عجيب فى مفهوم الحضـــارة « والنهضة » ان مداركنا لهذه « الحضارة » لا تختلف كثيرا عن مدارك الرجل

الغربى للحضارة ، اننا لم نستطع أن نفرق بين اللب والقشر ، وبين الوجه المستور والوجـــه المكشوف ، وبين الصـــورة والحقيقـــة ، وبين القيم الراسخة فى النفس ، الغـارقة فى الأعماق ، وبين هذه المظاهر المبعثرة على وجه الأرض ، المنتشرة فى الافاق •

الحضارة ليست ذلك الكرسى الذى نجلس عليه والقلم الذى نكتب به ، والاناء الذى نشرب منه الماء ، انما هـــو « الشخص » الذى يستعمل هذا وذاك لغرض خاص وعاطفة خاصة ، وروح لا تنفك عنه لأى لحظة من اللحظـــات ، فاذا كانت هذه الروح روحا قدسية وروحا طيبة وروحا نظيفـــة جلس يذكر الله ، وراعى أثنـــاء الشرب أن لا يكون حراما ، وحمده على هذه النعمة ، وشكره على هذا الخير •

واذا كانت هذه الروح روحا ســـافلة ، روحا خبيثة ملتصقة بالأرض ، متمرغة فى الوحل ، وحـــل الشـــهوات والنزوات ، جلس لنفسه أو لشيطانه ، وكتب فى تشويه الحق وتقوية الضلال ، وشرب من آنية حرام وماء حرام ، وعاد الى اجرامه فى محاربة دين الله •

فالحضارة اذا ليست هـــذه « الأدوات البريئة » التى خلقها الله فى خدمة الانسان ، بل انما هى روح تهيمن على هذه التصرفات ، والنية التى تنبعث منها هذه الأعمال •

« وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » •

ان مقياس الحضارة فى المجتمع الاسلامى ، غير مقياسها فى المجتمع الجاهلى بجميع صوره وألوانه ، وهذه هى نقطة الفصل ، ونقطة الالتباس أيضا ، الأصل – فى المجتمع الاسلامى – هو العبودية لله ، والخضوع أمام شريعته والاتصال به اتصال القلب والروح والتفكير والوجدان ، والجهاد فى سبيله بأعز ما يملكه الانسان ، أما هذه الوسائل والأدوات فهو لا يأخذ منها الا بقدر ما يكفى لتحقيق مهمته فى هذه الحياة ، واعلاء كلمة الله فى الأرض ، ولا يأخذ منها الا فى حدود معلومة واضحة أذن بها الله .

أما مقياس الحضارة فى الغرب فهو أن يأخذ الانسان كل ما تهوى نفسه من مال ومتاع ونساء بالوجه الشرعى أو غير الشرعى سواء بسواء ، ان هذا المقياس يعتبر السابق فى هذا المجال والفائز فى هذه المسابقة أسعد انسان على ظهر الأرض ، وبين المقياسين بون شاسع وفرق هائل . ولكنه فرق طبيعى بين الاسلام والجاهلية ، فى سائر نشاطاتهما وأدوارهما منذ زمن قديم قديم جدا ، ان روح الغرب مادية بحتة ، مظلمة كالحة ، وهى لا تستطيع أن تنتج غير هذه المظاهرة المادية ، انها عقيمة عن كل نوع من الأهداف السامية ، والأغراض النبيلة ، انها عاجزة عن أن تنجب الايثار ، والحب ، والحنان ، والايمان ، والانابة ، والتوكل ، والشكر ، والقناعة ، والصبر ، والتماسك ، والعفاف ، والطهارة ، والاخلاص ، والوفاء ، والطاعة ، والولاء ، ولا أى

معنى نبيل كريم عظيم ترتفع به هامة الانسان فى غابة الحيوانات ، ويسمو به على غيره من المخلوقات •

هذه الروح المادية المظلمة هى مقياس « الحضارة » فى الغرب ، وأساسها وجوهرها ، ولحمتها وسداها ، وطابعها الدائم الأصيل ، فاذا هى ركزت كل قواها على المادة ، فانها بذلك لم تأت بدعا ، بل انما عملت عملها الطبيعى ، وقامت بدورها المنتظر ، وآتت ثمرها المرتقب •

أما نحن ـ تلك الأمة التى بعثها الله لتغيير الموازين والمقاييس وتغيير وجه الأرض واتجاه الانسانية ـ فلا يجوز لنا ولا يجدر بنا أن نقع فريسة هذا الخلط العجيب بين المقياسين ، وبالتالى بين الحضارتين •

ان استيلاء الغرب العلمى والسياسى أقام ستارا كثيفا دون رؤية الحقائق ، وذر الرماد فى عيوننا ، وفرض علينا مفهومه الخاص عن الحضارة الذى لا يقبله الوحى والشريعة ، والدين الالهى ، فى أى حال من الأحوال •

فحينما يقولون ـ فى جميع البقاع والأصقاع ـ عن مجتمع أنه متحضر ، أو عن شعب أنه شعب متحضر ، فانهم لا يريدون بذلك تلك الصفات الانسانية النبيلة ، والأهداف السامية ، بل انهم يريدون تضخمه المادى ، ورخاءه الاقتصادى ، وتفوقه العلمى فحسب ، ولو كان ذلك على حساب ضمير المجتمع وقلبه وانسانيته ، فأصبح المسلمون

أيضـا منذ زمن طويل منذ اسـتيلاء الغرب وفوزه بعرش القيادة ، لا يفهمون من « الحضارة » الا ذلك المعنى الغربى ، وظلوا طوال عشرات السنين يدافعون عن الاسلام دفاع المعتذر الخائف ، ويحاولون أن يبعدوا عنه هذه التهمة المزعومة التى التصقت به ، فانطلقوا بنفس النغمة الغربية ، وعرضـوا الاسلام كحضارة من هـذه الحضارات المـادية ، الأرضية ، السافلة ، وقالوا : ان حضـارتنا سبقت الغرب فى هـذه الأنواع ، وانها أيضا أقامت الحمامات الضخمة ، والينابيـع العظيمة المدهشة ، والمبانى الهائلة الرائعة ، وشجعت الفنون الجميلة والصـورة والرسـم والموسـيقى ، وقدموا الآثار التاريخية ، أمثال قصر الحمراء فى الأندلس ، والتاج محل فى الهند ، كنموذج لهذه الحضارة الرائقة الزاهية .

هنالك طبقة من المثقفين وأنصـاف المثقفين فى ربوع العالم الاسلامى كله لا تزال تحتضن هذه الفكرة منذ زمان ، وترى فيها السلامة والأمان ، ولكن هذه الفكرة ـ فى الأصل ـ فكرة غربية تماما ، تولدت من سوء فهم لمعنى الحضـارة ، وسوء تقدير للمنهج الاسلامى ، المستقل الأصيل .

اذا كانت هـذه الأشياء « حضارة » فمعنى ذلك أن الصحابة والـتـابعين كانوا غير متحضرين ، وكانوا جهـالا قرويين ، ـ ونعوذ بالله ـ أمام بطـارقة الفرس والروم ، وملوكهما وأمرائهما ، ويحلو لى أن أقدم هنـا منظر دخول ربعى بن عامر ، بلاط رستم قبل وقعة القادسية ، فان فيـه

تفسيرا لما نقول ، وتصويرا للموقف الاسلامى ازاء الحضارات المـادية قديمها وحديثها ٠

« أرسل سعد بن أبى وقاص قبل القاسية ربعى بن عامر رسولا الى رستم ، قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخـل عليه ، وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابى والحرير ، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعى بثياب صفيقة وترس وفرس قصـيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطهـا ببعض تلك الوسائد وأقبل وعليه سلاحه ، وبيضته عـلى رأسه ، قالوا له : ضع سلاحك ، فقال : انى لم آتكم ، وانما جئتكم حينما دعوتمونى ، فان تركتمونى هكذا والا رجعت ، فقال رستم : ائذنوا له ، فأقبل يتوكأ علىرمحه فوق النمارق، فخرق عامتها فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحـده ومن ضيق الدنيا الى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان الى عـدل الاسلام » ٠

هنالك نرى الحضارة الاسلامية واضحة جلية فى موقف ربعى بن عامر فى هذا البلاط وحديثه مع الملك ، ودعوته الى الدين الحق ، وهو يدلنا أن حضـارة « النمارق والزرابى » ليست الا بداوة وتأخرا وانحطاطا اذا خلت عن نور الوحى الالهى والهدى السماوى ، وأن المظاهر لا اعتبار لها ، بل ان الاعتبار للروح التى تحدوها ٠

وقد تسربت موجة من هذه المظاهر عـلى مر الزمن فى

المجتمع الاسلامى أيضا فحاربها عمر بن عبد العزيز فى عهده، وأصلح ما فسد ، وأقام ما اعوج ، وسد هـذه الثغرات فى حصن المجتمع الاسلامى ومعقله المنيع .

الاسلام لا يعادى نعمة الرخاء والهناء ، وقد قال القرآن:

« قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »(١) .

ويقول :

« ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك »(٢) . وكان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم دائما طلب العفو والعافية واليسر والمعافاة فى الدنيا والآخرة،

ولكنها ليست ــ عنده ــ حضارة فى ذلك المعنى الخاص الذى يراد به فى الغرب والشرق اليوم ، انه لا يعتبر الفقر فى المكاسب والمغانم والوسائل والأدوات تأخرا وانحطاطا ، ولا يعتبر الرخاء المادى « حضارة ومدنية » بل انما العبرة عنده بالروح التى تستتر وراء هذا وذاك وتسوقه هنا وهناك،

وشعاره الوحيد ، أنه لا قديم ولا جديد ، ولا حضارة

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٣٢ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٧٧ .

ولا بداوة ، ولا تأخر ولا نهضة ، ولا رجعية ولا تقدمية ، بل جاهلية واسلام ، ونور وظلام ٠

« فماذا بعد الحق الا الضلال » !

فالمسلم الفقير ، الجاهل ، المجرد من كل شارة ولافتة العاطل من كل زينة ورخاء ، ورواء وبهاء ، متحضر ، ومثقف راق اذا حمل فى صدره نعمة الايمان ولوعة الحب ، وتربى على تلك المكارم والفضائل التى دعا اليها الاسلام ٠

فأصبح الشيء الفاصل بين « متحضر » و « متخلف » هو الايمان ومدى تسربه فى القلب ، وسيطرته على النشـــاط الفكرى والعضوى ، وأصبح مقياس « الحضارة » تلك الفضائل الاسلامية والأهداف السامية التى رأينا مثلها الشاخص الحى فى المجتمع الاســـلامى فى القرن الأول ، ووجدنا نظـائره وأشباهه ، وبعض ملامحه وصوره فى الأوفياء لدين الله ، فى هذا العصر ، القابضين عليه بين جواذب الحيـــاة واغراءات المجتمع وسوط التعذيب كالقابض على الجمر ٠

مقياس الحضارة فى الاسلام روح وقلب ، ومقيـــاس الحضارة فى الغرب حديد وصلب ٠

مقياسها فى الاسلام مدى ايمان الفرد والجماعة وكيفية جهادها للرسالة التى تحملهـــا ، والدعوة التى تحتضنها ، ومقياســـها فى الغرب وفى تلاميذ الغرب مدى مادية الفرد

والجمـــاعة ، ومستوى غناها وثروتهـــا ومنطقة نفوذهـا وسيطرتها ، وصلاحية احتلالها واستغلالها .

مقياسها فى الاسلام الايثار وانكار الذات ، ومقياسها فى الغرب الاثرة وتعبد الذات ، مقياســـها فى الاسلام البر والمؤاساة ، ومقياسها فى الغرب الأنانية واللامبالاة .

مقياسها فى الاسلام قدسية الأهداف ، ونبل الغايات ، ومقياسها فى الغرب مادية الأهداف ونفعية الغايات .

مقياسها فى الاسلام العلم النافع ، والقلب الخاشـع ، ومقياســـها فى الغرب تضخم المعلومات ووفرة الذخـــائر ، وتحجر القلب وقسوة الفؤاد .

مقياسها فى الاســـلام تحقيق خـلافة الله فى الأرض ، واجراء أحكامه وشرائعه فى البشر ، والسير بالانسانية عـلى خط مستقيم نحو هـــدفها الحقيقى ومأمنها الأبدى وعيشها السرمدى ، ومقياسها فى الغرب تحقيق نزوات الجسد ، والحكم بالطاغوت ، والســـير بالانسانية عـــلى خطوط متفرقة نحو أهداف رخيصة ومتعة عاجلة ونعيم زائل ، وسراب خادع ، وسخط الله وعذابه فى الأخير .

مقياســـها فى الغرب ، الأبيض والأســـود ، والأحمر والأصفر ، والقاصى والدانى ، والقريب والبعيد ، والقـــوى والضعيف ، والمالك والمملوك ، والغنى والصعلوك ، ومقياسها

فى الاسلام « كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربيـــة ، يكاد زيتها يضيىء ، ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء »(١) مقياسها فى الاسلام « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم »(٢) و « لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى عـــلى عربى الا بالتقوى » ، مقياسها فى الاسلام ســـلمان الفارسى ، وبلال « الحبشى » وصهيب « الرومى » مع أبى بكر، وعمر ، وعثمان ، وعلى رضى الله عنهم أجمعين .

مقياسها فى الغرب حلة فاخرة ونفس فاجرة ،ومقياسها فى الاسلام نفس مطمئنة هادئة ، ومظهر نظيف متواضع ، ومقياسها فى الغرب البحـــار والجبال والأنهار والجـــداول الصغار ، ومقياسها فى الاسلام جنات عدن تجرى من تحتهـا الأنهار ، ورضوان من الله وما عند الله خير للأبرار .

انه مقياس ومقياس ، فلنقس هذا الانحطاط والتأخر فى الغرب الذى يسمونه « حضارة » وهذا الجهل عن الحقائق والأهداف والعمى عن الدار الآخرة والحيـــاة الخالدة ، الذى يسمونه « ثقافة » بهذا المقياس الخالد العـــادل الصريح الذى

---

(١) النور ، الآية ٣٥ .

(٢) الحجرات ، الآية ١٣ .

وضعه الاسلام فى أيدى المسلمين لئلا يؤخذوا بالمظاهر الكاذبة والشعارات الزائفة ، واللافتات المزورة ، ويكونوا دائما على ثقة واعتزاز بدين الله ومكانتهم فى خلق الله .

« أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك فى ضلال مبين »(٣) .

---

(٣) الزمر ، الآية ٢٢ .

الا ان سلعة الله غالية
الا ان سلعة الله الجنة

ان شهادة الكاتب الاسلامى الكبير والمجاهد العظيم **سيد قطب ابراهيم** شهادة ذات عدة جوانب ، ان فيها خسارة العلم والدعوة ، وخسارة الفكر ، وخسارة الأدب ، وخسارة المعارف ، ولكنها ـ فوق كل هذا ـ خسارة ذلك القلم الثائر القوى ، المتدفق كالينبوع ، الهاطل كالشلال ، الساخر بالآلهة الباطلة ، العامر بالايمان ، القلم الذى زمجر كالعاصفة ، والتهب كالشعلة ، وتحرق كالشمعة ، وأشرق كالسيف ، وأتت كل هذه الجوانب فى وقتها المناسب ، ذلك القلم الذى أمسك به العالم العربى يدافع به عن اسلامه ، ويهجم به على أعدائه ، ويتشرف به بين أقلام أدبائه .

ان قلما هذا شأنه لم يتحطم ولن يتحطم ، كما أن صوت حسن البنا لم يخمد ولن يخمد ، وسيبقى كلاهما على خط النار ، رغم التهديد والانذار ، يحرسان الفكر الاسلامى والدعوة الاسلامية ، ويحافظان على خصائصهما عن طريق شعلة الايمان التى استضاءت بها صدور المؤمنين المعذبين .

ووالله لو كانت الدعوة الاسلامية لا تحتمل الشدائد والأزمات ولا تصبر على التعذيب والاضطهاد ، لقضى عليها فى

أول يومها وفى مهدها ، يوم عذب بلال بن رباح ، وعمار بن ياسر ، وخباب بن الأرت ، وخبيب ، رضى الله عنهم أجمعين ، وقضى عليها حين ألهب الجلاد ظهر أحمــد بن حنبل بسوطه حتى أغمى عليه ، أو قضى عليها اثر شهادة حسن البنــا ، وعبد القادر عودة ، انه عدد قليل من أولئك الآلاف المؤلفة من المجاهدين ، الصابرين المعذبين ، الذين يتجمل بهم التاريخ ، وتتجلى بهم كل بقعة من بقاع العالم الاسلامى عربا وعجما ، شرقا وغربا .

ان هذا التعذيب والاعدام وعملية التطهير ، وما يطلقون عليها من أسماء سنة الأنبياء فى كل زمان ومكان ، وان هذه الدماء الزكية القانية روت أرض الكنانة كلما أصابها الجدب ، وحافظت على غرس الاسلام كلما أصابه اعصار ، أو أصابته نار .

انها نفخت فى قافلة الأحرار والأبطال روحا جديدة ، وعزما أكيدا ، كلما غاب عليها النعاس ودب فيها اليأس .

ان هذه الدماء ، دماء الشهداء أكدت أننا ما زلنا عــلى العهد ، وأنها « لا تزال طائفة من أمتى منصورين لا يضرهم من خذل حتى تقوم الساعة » « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنـــا وهم لا يفتنون ولقد فتنـــا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »(١) .

---

(١) سورة العنكبوت ، ٢ ـ ٣ .

فاذا استشهد هذا القلم وتحطم فى سبيل الله ، فانه أنشأ فوجا من حملة الأقلام يدافعون عن دين الله ، ولا يخافون فى سبيل الله لومة لائم ٠

انه فتح للشباب طريقا معلوما واضح المعالم ، مشرق السمات والقسمات ، يتابعونه ويسيرون على نهجه فى الاصلاح والكفاح ، والصبر والجهاد ، والثبات على المبدأ والثقة بالله وبنصره المبين فى الدنيا والدين ٠

ان هذا القلم أعلن أن الشهادة مرحلة حاسمة لازمة أمام مد الاسلام ، وأن المؤمنين يواجهون فى سيرهم كل نوع من الصعوبات والعقبات والاهانات ، والتنكيل ، والتشريد ، والتعذيب الوحشى الذى تقشعر منه الجلود ، فعلى كل من يريد أن يقوم للدعوة أن يهب نفسه لله ، « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة »(١) ٠

ألا ان سلعة الله غالية ألا ان سلعة الله الجنة !

ان شهادة سيد قطب تحمل وجهين ، فلو كان لمصر لسان أو قلم لافتخرت بهما بابنها ابار الشهيد ، واعتبرت هذه الشهادة مكرمة لها وجزءا من تاريخها وبطولة رائعة من بطولاتها ــ ولا أنكر ما لمصر الحديثة من فضل فى هذا المجال وفى ساحة القتال ، ومن يستطيع أن ينسى ذلك الشباب

(١) سورة التوبة ، الآية : ١١١ ٠

الطاهر النقى الأبى الذى ذهب ضحية أصدقائه فى الزنزانات والمعتقلات أو أراق دمه سخيا قانيا فى أرض البطولات .

فهنيئا لك يا مصر العزيزة الحبيبة هذه المأثرة الجديدة ، وهنيئا لك هؤلاء الأبطال الذين رفعوا رأس المسلمين بهذا المثل الرائع للتضحية والفداء والثبات على جادة الحق ، والجهاد الدائم المرير للعقيدة والمبدأ .

هنيئا لك يا مصر هذا الدم الجديد فى موكب الشهداء ، وأعتقد أنك تعتزين بهذه الشهادة رغم ما تتجرعين من مرارة الخسارة وتتكرمين بهذ التضحية والبطولة ، رغم ألم الندامة، فاننا نعرف حرج موقفك ودقة مسئوليتك .

هنيئا لك يا مصر أحرارك وأبطالك الذين دامت محنتهم ، وطال ليلهم ، وانتقلوا من اضطهاد الى اضطهاد ، ومن شوك الى قتاد ، واعتادوا التعذيب والاهانات ، حتى صار لديهم شيئا عاديا مألوفا .

هنيئا لك هذه الخمسون ألفا فى الزنزانات لم يتزعزع واحد منهم رغم الاغراء والتهديد ، ورغم الهمجية التى تقشعر منها الجلود ويتندى لها جبين الحياء ، ولم يطلب أى واحد منهم عفوا ولم ينقض ميثاقا « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا »(١) .

---

(١) الأحزاب ، ٢٣ .

فلئن انتقدوك وعابوا عليك هذه القسوة النادرة ، والمذابح البشرية الهائلة ، أثنوا عليك وحيوا فيك قوة احتمالك وصلابة عودك ، وثقتك وايمانك ، ولئن أخذوا عليك رضاك بالذل وقبولك الضيم وخضوعك للعدوان ، واستسلامك لكل سلطان ، على اختلاف الأزياء والالوان أعجبوا بك ورحبوا فيك هذه البطولات الرائعة النادرة ، وهذه المواقف التاريخية تحت قنابل الرصاصات ، وأنواع غريبة من التعذيب الجسدى والروحى ، الذى يخرج به الانسان من طوره ويفقد رشده وصوابه .

انك يا مصر تجتازين الآن مرحلة ذكرها القرآن فى قصة موسى عليه السلام ، فقال : « فلما تراءى الجمعان ، قال أصحاب موسى انا لمدركون ، قال : كلا ان معى ربى سيهدين »(٢) ، فلا تخافى من كثرة الجنود ومتابعة رجال المخابرات ، وقسوة رجال الاضطهاد ، ومهازل محكمة الأمن العليا ، ودعاية الصحافة الرخيصة الفاجرة المحترفة التى هتكت كل القيم والمبادىء الانسانية ، وتعرت عن سائر اعتباراتها الخلقية ومسئولياتها الصحفية ، فكل ذلك تفسير « انا لمدركون » وتصوير دقيق معجز لتلك الحوادث التى وقعت على أرضك وتحت سمعك وبصرك ، فاستمدى لمواجهة هذا الوقت العصيب بنور النبوة وفراستها الصادقة ، وثقتها

---

(٢) الشعراء ، الآية ـ ٦١ ـ ٦٢ .

بالله ، ثقة لا تقاس ولا توزن بالعقل المادى المحدود ، وذلك ما تجلى فى قول موسى عليه السلام ، اذ قال : « كلا ، ان معى ربى سيهدين » .

وبعد ، فما كتبت شيئا عن سيد قطب وان كان سيد قطب هو الذى أفاض علينا بهــــذه السطور ، ودفعنا عــلى تسجيل بعض ما تجيش به الصدور من مقت وتذمر ، وحب وتقدير ،ويأس قاتل مرير ، وأمل مشرق منير ، فاذا صرفنا وجوهنا تلقاء جنود فرعون ورأينا طغيانه وعدوانه ، وجولته وصولته ، وذخائره وأسلحته ، قلنا : « انا لمدركون » واذا صرفنا وجوهنا الى قدرة الله وآياته فى الأرض والسماء ووعده لعباده ، المؤمنين الصابرين ، المخلصين المجاهدين ، تمثلنــــا بقول موسى عليه السلام : « كلا ان معى ربى سيهدين » .

نجم تألق ثم هوى

الدكتور مصطفى السباعى ...!

ذلك الاسم العذب الجميل الذى كان يحلو لنا أن نسمعه ونتحدث عنه فى مختلف أجزاء وطننا الاسلامى الكبير ، الاسم الذى كنا نعتز به ، لا فى سوريا فحسب ، بل فى العالم العربى والاسلامى كله ، الاسم الذى كان يهابه المستشرقون والمستعمرون على السواء لعلمه الغزير وجرأته الأدبية .

الاسم الذى كان يحتل مكانا رفيعا عاليا حبيبا فى النفوس بعد الامام الشهيد حسن البنا ، هذا الاسم الذى تألق فى سماء العالم الاسلامى برهة سعيدة من الزمن ، ثم محى من صفحة الوجود ، وسجل فى عالم الخلود ، لقد سقط الجندى الثائر فى المعركة ، وهو يقاتل فى سبيل الله ويدافع عن دين الله ، سقط وعلى هامته وسام العز ، وعلى جبينه ضياء الايمان ، وعلى شفته بسمة الرضا ، وفى عينه بريق الامل ، أمل الغد المرتقب واليوم المشهود .

الدكتور مصطفى السباعى كان ـ بلا نزاع ـ من أساتذة الحركة الاسلامية العالمية ، ومن صفوة الدعاة والمرشدين والعلماء من الطراز الأول ، وهو الذى جمع بين

الايمان العميق بالمبدأ ، والفهم العميق بروحه ، والعلم العميق بدقائقه وأسراره ، والقلم السلسال الىبق ، واللسان العذب الذلق للتعبير عنه على صفحات المجلة ومنبر المسجد ومنصة الجامعة ومسرح السياسة على السواء ، من غير تهريج أو دعاية ، ومن غير اشفاق أو وجل ، وهى ميزات ومواهب قلما تجتمع فى رجل واحد ، الا ما شاء ربك .

الدكتور مصطفى السباعى اسم معروف فى الأوساط العلمية والدينية فى الهند وباكستان ، واسم محبوب فى الحركات الاسلامية هناك ، وذلك للمقالات القوية الممتعة التى كانت تنشر له فى الصحف الاسلامية مترجمة ، أو لمؤلفاته التى نقلت بعضها الى اللغة الأردية ، وكان لمقالاته « عن السنة ومكانتها فى التشريع » تأثير قوى ودور فعال فى دحض الموجات الفكرية الهدامة التى كانت تهدد باكستان وتتحدى العنصر الاسلامى فى هذه البلاد ، وذلك عدا مقالاته الأخرى فى مختلف الموضوعات الاسلامية التى كانت تنشرها الصحف الاسلامية السيارة فى البلدين .

أما دوره ككاتب ، ومؤلف ، وباحث ، وخطيب ، فحدث عن البحر ولا حرج .

فالبيت يعرفه والحل والحرم .

ان أيما رجل تتنوع قواه ومواهبه فى مختلف المجالات الفكرية والعلمية ، أو يشتغل بتنظيم جماعة وادارة مؤسسة ،

أو يشتغل بالدعوة والخطابة ، لا يستطيع أن يركز همه في التأليف والبحث والدراسة ، أو يأتي فيه بشيء جديد رائع ، ويقوم في هذا المجال بدور يذكر ، وخدمة تشكر ، أو يسد فراغا ، ويملأ مكانا شاغرا ، ولكن الدكتور مصطفى السباعي كذب هذا الخيال ، ومؤلفاته كلها تشهد بذلك وتدل على دراسة واسعة ، وتفكير طويل ، واستنباط رائع ، واجتهاد سليم ، ورزانة علمية ، لا تخلو منها حتى مقالاته .

وشرح « قانون الأحوال الشخصية » و « اشتراكية الاسلام » و « المرأة بين الفقه والقانون » و « السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي » برهان ساطع على روحه العلمية ، ونظرته العميقة ، ودراسته الواسعة ، رغم حياته المليئة بالصخب والضجيج ، والسرعة المذهلة ، والأشغال المتلاحقة ، والمواعيد المتلاصقة ، وزيارات واجتماعات ، وأحاديث ورحلات ، في داخل البلاد وخارجها ، واشراف على تنظيم الاخوان وسيره على الوضع المقبول .

أما كتاب « اشتراكية الاسلام » فهو من روائع الكتب الاسلاميه التى ألفت في الموضوع في العصر الحديث ، ونال عليه المؤلف الجائزة التشجيعيه ، وقالت فيه اللجنة المؤلفة من كبار فقهاء الشريعة في القاهرة ودمشق « انه يتميز بتاصيل التفكير الاشتراكي من الناحية الفقهيه واختيار النصوص الصريحة من الكتاب والسنة وآراء الفقهاء وتفسيرها تفسيرا علميا من غير تكلف ولا تعسف في التأويل .

كما أن شرح قانون الأحوال الشخصية يعتبر موسوعة علمية فى موضـــوعه ، ومرجعـا ومادة للتدريس والبحث والكتابة ، عدا مؤلفاته الأخرى الممتعة الشيقة ، وكل من ينظر فى كتبه يظن أن مؤلفهـــا باحث بحت لا شأن له بأى شىء آخر ، وقد وضع فيها عصارة أفكاره ، وركز فيها كل مواهبه وجهوده ، وأذكر أننى قرأت كتابه « اشتراكية الاســلام » و« من روائع حضارتنا » فوجدت فى هـــذين الكتابين لذة البحث العلمى ، والحصافة الفكرية واشراق الروح المؤمنه ، فتركت فى نفسى أثرا ناعما جميلا ألمسه كلما أذكر السباعى وأذكر جهوده فى سبيل العلم والدين .

أما حذقه الكتابة الصحفية وتنـــاوله الموضـــوعات الاجتماعية والسياسية فاســـأل عن ذلك مجلة « حضـــارة الاسلام » الغراء ، فهى من أروع المجلات الاسلامية فى هـــذا الزمن الذى تضاءلت فيه المجلات الاسلامية ، واســـتمع الى أحاديثه فى الاذاعـــة ، أو اقرأه فى كتاب « من أخلاقنـــا الاجتماعية » فبذلك تطلع على أسلوبه الصحفى والاذاعى ، وكلها تنم عن لباقة الحديث ، وعمق الموضوع وموضـــوعية البحث .

وانظر كذلك الى بحوثه فى « الســـنة ومكانتهـــا فى التشريع الاسلامى » وقد نال الكتاب اعجاب البـــاحثين فى الهند وفى باكستان ، وترجم الى اللغـــة الأردية ، والتقى الدكتور مصطفى السباعى بأعلام المستشرقين ، واختلط معهم

فى زيارته لأوربا عام ١٩٥٦ م ، وكانت له معهم جولات ومواقف ومناقشات برز فيه كعملاق بين الأقزام ، أو مدرس بين الطلبة الصغار ، وهو ليس تهويلا منى أو مبالغة ، فقد ظل المستشرقون يخافون منه ، لأنه فضحهم فى الطريق ، وأمام الناس عدة مرات ، تعمد السباعى فى هذه الرحلة مطاردة هؤلاء فقابل أكثرهم ، أمثال « اندرسون » و «آربرى» والمستشرق اليهودى المعروف « شاخت » ب «ليدن» (هولندا) وكثيرا غيرهم ، وزار الجامعات العلمية الكبرى ، وقابل رؤساء الأقسام العربية والاسلامية ، وكان له بـ « شاخت » المذكور آنفا قصة طريفة حكاها فى مجلة « حضارة الاسلام » ٠قال :

« فى جامعة « ليدن » بـ «هولندا» اجتمعت بالمستشرق الالمانى اليهودى « شاخت » ـ وهو الذى يحمل فى عصرنا هذا رسالة « جولد تسيهر » فى الدس على الاسلام ، والكيد له ، وتشويه حقائقه ـ وباحثته طويلا فى أخطاء « جولد تسيهر » وتعمده تحريف النصوص التى ينقلها عن كتبنا ، فأنكر ذلك أول الأمر ، فضربت له مثلا واحدا مما كتبه « جولد تسيهر » فى تاريخ السنة ، فاستغرب ذلك ، ثم راجع كتاب « جولد تسيهر » وكنا نجلس فى مكتبته الخاصة ، فقال : معك الحق ، ان « جولد تسيهر » أخطأ هنا ٠ قلت له : هل هو مجرد خطأ ؟ فاحتد وقال : لماذا تسيئون به الظن ؟ فانتقلت الى بحث تحليله لموقف الزهرى من عبد الملك بن مروان ، وذكرت له من الحقائق التاريخية ما ينفى ما زعمه « جولد تسيهر » وبعد مناقشته فى هذا الموضوع قال : وهذا

خطأ أيضا من « جولد تسيهر » ألا يخطيء العلماء ؟ قلت له : ان « جولد تسيهر » هو مؤسس المدرسة الاستشراقية التى تبنى حكمها فى التشريع الاسلامى على وقائع التاريخ نفسه ، فلماذا لم يستعمل مبدأه هنا حين تكلم عن الزهرى ؟ وكيف جاز له أن يحكم على الزهرى بأنه وضع حديث فضل المسجد الأقصى ارضاء لعبد الملك ضد ابن الزبير ، مع أن الزهرى لم يلق عبد الملك الا بعد سبع سنوات من مقتـــل أبى الزبير ؟ وهنا اصفر وجه « شاخت » وأخذ يفرك يدا بيد ، وبدا عليه الغضب والاضطراب ، فأنهيت الحديث معه بأن قلت له : لقد كانت مثل هذه الأخطاء كما تسميها أنت تشتهر فى القرن الماضى ، ويتناقلها مستشرق منكم عن الآخر على أنها حقائق علمية ، قبل أن نقرأ ـ نحن المسلمين ـ تلك المؤلفات الا بعد موت مؤلفيها ، أما الآن فأرجو أن تسمعوا منا ملاحظتنا عـلى « أخطائكم » لتصححوها فى حياتكم قبل أن تتقرر كحقـائق علمية » .

وبالجملة فـكل ما كتب عن المستشرقين ومكائدهم شىء هام خطير ، وجدير بالبحث والدراسة والمتابعة والاطلاع ، أما عن خطابته فقد كان خطيبا بالطبـــع وبالسليقة ومن أفذاذ الخطباء فى العالم العربى ، وقد سمى « خطيبـــا هائلا » فى سوريا عن جدارة وحق ، فهو يملك عنان الجمهور ، ويستولى على مشاعر الناس وأحاسيسهم بصوته الرخيم القوى وحديثه الحماسى المتزن فى وقت واحد ، ويبرز على أقرانه فى المجالس والنوادى والحفلات .

ودور السباعى فى انشاء كلية الشريعة عام ١٩٥٤ م
رجهوده فى هذا المضمار تضيف الى مآثره وحسناته وقـــد
كرس عليها جهوده أخيرا ، وبقى عميد هذه الكلية الأولى من
نوعها فى الشرق الأوسط مدة أربع ســـنوات ، وكانت مدة
حافلة بالأعمال والخدمات ، وبقى رئيس قسم الفقه الاسلامى
فيها الى آخر عهده ٠

وثم ناحية أخرى تسمو بمكان مصطفى السباعى عـلى
كثير من العلماء والخطباء والدعاة ، وتدخله فى صف المجاهدين
الأبطال ، وهو جهاده الرائع فى معركة فلسطين مع الاخـوان
المسلمين ، وقد سبق فى هذا الأمر على كثير من اخـــوانه
وأقرانه ، وكانت بداية ذلك فى أواسط الحرب العالمية الثانية
عام ١٩٤٢ أو ١٩٤٣ م ، اذ عاهد مع نمر الخطيب أن يعلن
صوت النذير والايقاظ ويبدأ بالجهاد ، وألقى أول محاضرة
عن فلسطين فى مقر الاخوان ، وقام بجولة للمدن الســورية
كلها يشرح للجماهير خطورة الوضع ، وخاض فى المعـــركة
أخيرا فدافع عن المسجد الأقصى ، وكان له سهم كبـــير فى
سائر المعارك التى خاضتها كتائب الاخوان ، ويذكر منهـــا
معركة الحى اليهودى ، ومعركة القدس الكبرى ، وقد أظهر
فيها المجاهدون من البطولات ما يعجز عنه الوصف ، فقـــد
كانوا يتقـــدمون لنسف الحى اليهودى بيتـا بيتـا بأيديهم
الرشاشات ، والقنابل كان يقذفها اليهـــود عليهم من نوافذ
البيوت ٠

وقد أثبت السباعي بذلك أنه يملك السيف والقلم ؛ وله في كل منهما جولة وصولة ، ومواقف وبطولات ، ودرس عبرة لمن يأتي بعده من الدعاة والعاملين .

ان الدكتور مصطفى السباعي قدم لنا مثلا رائعا للكاتب الاسلامي والداعية الاسلامي والمجاهد الاسلامي ، وعرض علينا — عمليا — كيف أحاط بالجهات المختلفة ، وكيف حافظ على الاتزان بينهما ، وكيف استقام على الطريقة ، وصمد في وجه الأعاصير والزلازل الفكرية والسياسية ، التي اشتدت في عهده ، والتي لا تزال في أوجها وقوتها ، والتي سوف تحتاج في المستقبل الى كثير من أمثال مصطفى السباعي في مختلف الظروف والمناسبات .

وبعد فهذه سطور عاجلة لا تصور واقعه الغني ولا تمثل حياته العامرة الخصبة ، وانما هي كلمة أملاها الحب ، والاخلاص ، والوفاء للراحل الكريم ، والفقيد العظيم .

رحم الله مصطفى السباعي وجزاه عن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، أحسن ما يجزي عباده المخلصين والصادقين .

وانا لله وانا اليه راجعون .

الشعوب تعيش بالرسالة لا بالمال

ان الشعوب ـ دائما ـ فى حاجة الى دعوة ورسالة تتبناها وتتحمس لها وتتفانى فى سبيلها ، وهى فى ابان نهضتها وفى صعودها أحوج الى مثل هذه الدعوة ، التى تعمل ـ بخفاء ـ وراء كل هذه المواهب والطاقات والمؤهلات ، والعجائب والمعجزات التى تصنعها أمة ويقوم بها شعب ، انما تملى ارادتها على المال وعلى رجال الأموال ، وعلى الجبال الراسيات •

ان أى شعب من شعوب العالم لا يخلو من رسالة أو هدف ، وقد يكون هذا الهدف هدف الاستعلاء على الأرض ، وقد يكون هدف القومية ، وهدف الاشتراكية والشيوعية ، والاستعمار والاحتلال ، والعبث بالشعوب الفقيرة المستضعفة، ولكنه على كل حال هدف واضح محدد ، مشرق السمات والمعالم ، لا غموض فيه ولا التواء ، هدف يثير قوى هذه الشعوب ويستغل طاقاتها ، ويستنفد مواهبها ، وكل ذلك دليل على أن هذه الشعوب لا تستطيع أن تعيش ـ طويلا ـ من غير رسالة ، ولا تستطيع أن تصمد أمام العواصف والتيارات ، وتواجه الأحداث والتقلبات الا بالدعوات والرسالات •

هذا هو شأن الأمم والشعوب التى ليس لها نصيب فى الدنيا والآخرة ، والتى أذلت نفسها ، وأضاعت جوهرها وفقدت قلادتها ووسام عزها وشرفها بين متاع الدنيا العاجل، وحطامها الفانى . أما الأمة الاسلامية التى ابتعثها الله لتخرج الناس من الظلمات الى النور ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، فهى أولى بأن تحمل رسالة وتتقلد دعوة وترفع راية .

ان الدور الذى تمر به الشعوب الاسلامية والشعوب العربية الاسلامية بوجه خاص يحتم علينا أن نفهم قيمة الرسالة وأهميتها فى حياة الشعوب ، لا سيما فى حياة هذه الأمة ، وذلك لأن عدم معرفتها أو الحط من شأنها تجعل هذه الشعوب فريسة المال ، والى ذلك أشار النبى الكريم صلى الله عليه وسلم حين قال : لا أخشى عليكم الفقر ، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتهلككم كما أهلكتهم ، أو كما قال عليه السلام .

ان المال مهما تضخم وتكدس ، ومهما شاع وانتشر لا يغنى عن ذلك الفراغ المعنوى الروحى الفكرى ، الذى يقع بفقدان الدعوة ، انه لا يغنى عن القلب وآفاقه ، والفكر وفسحاته ، والضمير وتأملاته ، والحب وبطولاته ، انه لا يغنى عما وراء المشاهد المحسوس ، والواقع الملموس ، انه لا يستطيع أن ينظر ما وراء المعدة والشهوة ، أو القوة والسيطرة .

انه لا يستطيع أبدا ، أن يحل محل الفكر الدقيق الحصيف ويعوض عن الرأى السديد ، والجرأة والشجاعة ، والبطولة والاقدام ، انه يبنى صرحه الشامخ الجميل على الرمل يخاف عليه فى كل لحظة ، وتهدمه كل هزة .

المال لا يجبر كل كسر ، ولا يسد كل عوز ، ولا يملأ كل فراغ ، انه يجول ويصول فى مجال ضيق محدود ، هو مجال أسباب الرخاء والراحة والهناء ، والغذاء والكساء ، والعلاج والدواء ، أما مجال القياد ةالفكرية والسياسية ، أما مكان العزة تحت الشمس ، أما مكان التوجيه والارشاد ، ومكان التكوين والاصلاح والبناء ، فهو غير مجال المال ، فهنالك لا تنفع الا العاطفة والقلب ، والدعوة والرسالة ، والهدف والغاية ، والفكر والتأمل ، والتصميم والعمل .

المال أساسه الدعوة ، وقوته الرسالة ، وهو يستطيع أن يفعل الكثير ويأتى بالمدهش العجيب ، اذا عجن بالدعوة ، ومزج بالرسالة ، وزكى بالأهداف الصالحة ، والدوافع الخيرة « ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون »(١) .

هذا هو المال المزكى ، المال المطهر ، المال المقبول عند الله ، ان هذا النوع من المال ــ وحده ــ يقدر على انشاء جيل جديد قوى متماسك ، يملك جميع أسباب القوة ، ويستطيع

(١) سورة المطففين ٢٧ ــ ٢٨ .

أن يصمد بفضل هذه الدعوة والرسالة أمام الحوادث ، ان هذا المال لا يلهو به اللاهون ، ولا يعبث به العابثون ، لأنه أمانة الله فى أعناقهم ، ان كل ما يبنيه هذا المال يدوم أساسه ، ويطول عمره ، ويصلب عوده ، تحلو ثماره ، لأنه قام على أساس متين من الايمان والعقيدة ، وعاش تحت ظلال الايمان والقرآن « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »(٢) « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »(٣) .

هذه الدعوة والرسالة هى حلم الأمة العربية المنشود ، وهى الماء الزلال الذى اشتدت اليه حاجتها وبه يشفى غليلها .

ان شعوبنا العربية وأخص منها المملكة السعودية وامارات الخليج العربى لا تفتقد شيئا ، ولا تحتاج الى شىء بمثل ما تحتاج الى دعوة مؤمنة صافية ، حية نامية ، تبطل ما صنعوا ، وما زيفوا ، وما أتوا به من شعارات كاذبة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الدعوة التى تتحكم فى المال وتتصرف فى الأسباب ، والدعوة التى تتحكم فى العقول والنفوس ، وتغزو القلوب وتسرى فى الشباب والنشء الجديد ، كما يسرى الكهرباء فى الأسلاك ، أو الصهباء فى العروق ، الدعوة الاسلامية الكريمة ، الخالدة المنقذة التى

---

(٢) النور ٣٣ .
(٣) الحديد ـ ٧ .

تفدى بالمهج والأرواح والدموع والدماء ، الدعوة التى يطير بها الانسان شوقا ، ويهتز بها طربا ويتفانى فى سبيلها ايمانا وحنانا وحبا وهياما ، الدعوة التى يعيش فيها الانسان، فى غدوه ورواحه ، وليله ونهاره ، فلا يتحرر عنها فى لحظة من لحظاته ، أو يقدم لها – على أقل تقدير – شيئا من التضحية والفداء كما ضحى الناس براحتهم وهنائهم من أجل أهداف مادية حقيرة تافهة لا خلاق لها فى الدنيا والآخرة .

هذه الدعوة هى طريق الخلاص الوحيد من عذاب العبودية والذل والهوان ، والفرقة والانقسام ، الذى تعانيه هذه الشعوب العظيمة المؤمنة منذ زمن طويل .

فهل من مجيب ؟

أرادوها جنة فانقلبت جحيما

انها قصة أمريكا ، أمريكا التعسة البائسة المنكوبة ، التى يعتبرها البسطاء وأهل الهوى فى شرقنا الاسلامى جنة فى أرض الله .

والأرض تأبى أن تقبل هذه الشجرة الخبيثة ، وترضى بهذه النذالة والاسفاف ، والهبوط والتمرغ فى وحل الشهوات وحمأة الرذيلة على ظهرها لولا حكمة الله ومشيئته البالغة « ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا »(١) .

انها أمريكا السآمة والقلق ، أمريكا الجشع والطمع والأنانية والأثرة ، أمريكا الجنون والانتحار ، والخمر والقمار . أمريكا التى لا مكان فيها لصلة القرابة والرحم ، ووشائج اللحم والدم ، ولا اعتبار فيها لتلك النزعة الانسانية ، والحب الطاهر المستور فى الصدور الذى يخفف آلام الحياة ويهون متاعبها وهمومها ومشكلاتها ، ويمسح ثقلها وكآبتها .

أمريكا ، التى لا كرامة فيها للعجائز والأمهات ،

---

(١) الطلاق ، الآية ـ ٣ .

والآباء والأجداد ، والفقراء والضعفاء ، لأنهم تجردوا عن « القوة والمال » الذين لا اله لها غيرهما ٠

ان القوة وحدها هي القوة الجسمية ، وقوة الشهوة ، وقوة القتل والنهب ، وقوة الابادة والتدمير ، هي الاله الأكبر الوحيد ، الذي يخضع له رأس كل أمريكي ـ ولو ادعى بالمسيحية ـ تقديسا واجلالا ، فاذا تجرد انسان ـ لسبب طبيعي أو عضوي ـ عن هذه القوة لم يبق انسانا في نظر الامريكي ، وأصبح وزرا وعبئا ثقيلا على عائلته ، ومجتمعه ، وشعبه ، يحاول أن يتخلص منه في أقرب فرصة ، الدولة تهمله ، والشعب ينبذه ، والعائلة تقسوا عليه ، حتى أن أولاده وأفلاذ كبده يتبرمون منه ، ويثورون عليه ، ويتمنون موته بل يقتلونه بعض الأحيان ٠

لماذا ؟

لأنه أصبح هرما ، أو أصبح فقيرا ، أو صار مريضا ، لا يقدر على الكسب والانتاج ٠

حتى أن هؤلاء الذين يضحون بالأنفس والأرواح في سبيل الوطن ويفقدون أعضاءهم أو يصيبهم أذى جسدي لا يحتملهم الأزواج والأبناء ، ولا تقبلهم العائلات الأمريكية، لأنهم ينغصون عليها صفو العيش ، ويشاركونها في الحياة من غير سهمهم في الكسب والانتاج ٠

الحياة في أمريكا ـ يا أهل الشرق ـ ليست كما

نتصورها فى بلادنا الفقيرة الضعيفة ، انهـــا لا تمت الى السعادة بصلة ، ولم تذق طعمها يوما من الأيام ، لقد أرادوها جنة فانقلبت جحيما ، وعذابا أليما ، أروادها حرية كاملة وانطلاقة واسعة ، فراحت عبودية خانعة ورقا مطلقا دائما .

ان قصة أمريكا ، قصة ذات فنون وشجون ، وسوف لا أطيل عليكم بذكر مشاكلها حول تلك الحياة الحرة المنطلقة عن كل قيد ، أو تلك الجمادات الحية التى يسمونها الآدميين، وتلك المستشفيات الغاصة بالمجانين ، أو نوادى العــــراة المتفننين ، ولا أحدثكم عن متاعبهـــا فى « فيتنام » أو عن سباقها الرهيب فى مجال الأقمار والصواريخ ، ولا أذكر عبثها بالمرأة وتجريدها عن كل معنى انسانى نبيل ، ولــكن أحدثكم عن مكانة العجائز والشيوخ فى المجتمع الأمريكى ، ففى ذلك كفاية .

ان من عذاب الله لأهل أمريكا ، ومن نقمته وسخطه عليهم ، أنه نزع ما فى صدورهم من حب الآباء للأبناء ، أو حب الأبناء للآباء ، وحب البنات للأمهات وبالعكس ، ونظرة عابرة طائرة على هذه البلاد تهزنا لهــول المنظر وبشـــاعة الوضع ، والوقاحة البشرية ، التى أصبحت فى أمريكا عادة شائعة متبعة ، وتقليدا يتوارثه الأجيال ، ولا نملك فى هذا المكان الا أن نقف خاضعين خاشعين أمام الجـــلال الالهى ، وقدرته البالغة وعلمه المحيط :

« ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العـذاب الأكبر لعلهم يرجعون »[1] •

العجائز والشيوخ فى المجتمع الأمريكى هم أحط قدرا وأصغر شأنا من أى مخلوق آخر حتى القطط والكلاب ، فلا تستطيع عائلة أمريكية أن تتحمل هـذا العـذاب الأليم وتشاركهم فى حياتهم العادية والروتين اليومى فضـلا عن اكرامهم واسداء الخير اليهم •

ان ما ينفقه الأمريكيون على دواجنهم وعـلى كلابهم (بوجه خاص) قد يكفى ـ بعضه ـ للعنـاية بعجـائزهم وشيوخهم والبر بهم ، ولكن المشكلة ليست مشكلة المـال انما هى مشكلة الـدافع ، مشكلة القلب ، القلب المـادى النفعى ، المتحجر ، القاسى ، القلب الصناعى ، الذى سدت عليه منافذ العاطفة النبيلة ، والدوافع الصالحة ، والأهداف الكريمة ، والمثل العليا ، القلب الـذى نشأ فى « مجتمع الخنزير والكلب » فشبت على حبهما ، وقامت بينهما ألفة ومودة ورحمة ، وتخطت حدود القياس والعقل السليم ، انهم يوصون لكلابهم بمبالغ باهظـة ، بينما لا يرضون لهؤلاء العجائز والشيوخ عيشا هادئا فى منازلهم ، ولا ذنب لهم الا أنهم عجزوا عن العمل والانتاج ، وفقدوا الصحة والشباب ، وأصبحوا عالة على أبنائهم « الأشراف » •

---

(١) السجدة ، الآية ٢١ •

ان هذا الجانب أظلم الجوانب وأبشعها فى هذا المجتمع السافل الساقط الذى يسمونه عندنا فى الشرق المغلوب على أمره « مجتمع الحرية والتقدم والانطـلاق والعـــالم الحر » ويتمنون رؤيته والتمتع بمباهجه ولو مرة فى العمر ٠

واليك ما حدثت به جريدة لائف (Life) الـــذائعة الصيت ، وكفى شهادة واعترافا بالأمر الواقع :

انها كتبت تحت عنـــوان « مشكلة الشيخوخة عنـــد العجائز » أن أمريكا تعانى اليوم مشكلة دقيقة استعصت عليها معالجتها ، انها مشـــكلة الشيوخ والعجائز ، فقـــد زاد عددهم فى هذه العقود الأخيرة ، الى ١٢ مليون نسمة ، انهم نيفوا على ٦٥ عاما ويملكون حق التصويت ، واقترح البعض أن تقدم اليهم الدولة المعونة الطبية مجانا ، ولكن اتحـــاد الأطباء عارض هذا الاقتراح أشد المعارضة ، انهـــا مشكلة تعانى منها انجلترا والنرويج ، والسويد ، والدنمـــارك ، وألمانيا ، واليابان أيضا ، انها دعت هذه المشكلة بـ old age problem وتريد حلها بانشـــاء دور الرعايا nursing homes وتدابير أخرى ٠

ونشرت الجريدة بعض صور تدل على الوضع القـــاسى الشديد الذى يعيش فيه هؤلاء البؤساء « الأموات الأحياء » فيها صورة لاحدى المستشفيات العقلية mental institutions جلست فيها عدد من المريضات الناعسات وقد وضعن رؤوسهن على ركبهن ، ونثرن شعورهن عـــلى

كواهلهن ، تذمرا وأسى ، وبمقربة منهن نساء يزاولن حركة رياضية بذراعهن في حركة يومية معهودة •

وصورة لعجوز في المستشفى ارتمت على فراش تحملق في الجو في صمت مطبق وليس عندها أحد •

وهناك صورة أخرى لعجوز نيفت على السبعين ، انها فقدت اتزانها من شدة الوحدة ووحشتها والعزلة التى لم تطقها ، جلس بجوارها عالم من علماء النفس يدلى اليهـــا ببعض الأسئلة فى هذ الشأن ، وفي صورة أخـــرى نراها جالسة فى حجرة للبحث عن وظيفة فى دار من دور الاقامة وقد وضعت يمينها على يسارها ، وعلى وجهها سحابة من حسرة وأسى •

وصورة لدور العجائز Oldoge Homes اجتمع عدد كبير من الشيوخ المعمرين ، يشتغلون بأمور مختلفة ، أو بالأصح ينتظرون منيتهم ، وهم يتقطعون حسرة وأسى وغما وألما •

انها صورة حية لهذه المستنقعات البشرية ، والأوحال الانسانية التى لا تحيا فيها الا الشهوات الرخيصة ، واللذة الجسدية الفانية ، والنزعات الجنسية الهابطة الساقطة •

هل انها حضارة ؟ هل انها معرفة ؟ هل انها طبيعة قاهرة لا دخل لنا فيها ؟ كلا ! بل انها عذاب فى الدنيا قبل العذاب فى الآخرة •

انها تفسير « نسوا الله فأنساهم أنفسهم »(١) •

انها سآمة وخواء ، وكبت وتذمر ومقت ، سميناها فى الشرق : الحرية ، والعالم الحر ، والمجتمع الحر ، والطبيعة والفن •

انه يأس مرير ، وفراغ هائل ، وتخبط وفوضى ، وانهيار وحيرة وضلال ، سميناها فى الشرق «وجودية وثورة وانطلاقا الى قائمة طويلة من الأسماء والشعارات ألقت بها أمريكا وفرنسا ، وتلهف عليها أدباؤنا الشباب وتساقطوا عليها كأنها « وحى من الله » أو « مائدة من السماء » •

ان الله لا يعذب عباده الذين بغوا فى الأرض بسيول عارمة وعواصف قاصمة فحسب بل انه يعذبهم أحيانا فى راحتهم وهنائهم • ويشقيهم فى أموالهم ، وبين أزواجهم وأبنائهم « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم ان كيدى متين »(٢) •

وانظر الى هذا الجانب المشرق الذى يقوم عليه المجتمع الاسلامى المثالى « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين

---

(١) الحشرة ، الآية ١٩ •

(٢) سورة القلم ، الآية ٤٤ ـ ٤٥ •

احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل لهما قولا كريما ، وقـــل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ، ربكم أعلم بما فى نفوسكم ، ان تكونوا صالحين ، فانه كان للأوابين غفورا »(٢) ٠

صدق الله العظيم

---

(٣) سورة بنى اسرائيل ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥ ٠

الاسلام أوسع من الاصطلاحات

الاصطلاحات ـ فى كل مجتمع وفى كل بلد ـ لها جو خاص وطابع ممتاز ، وهى وليدة تجارب يمر بها شعب أو مجتمع ، وعصارة أفكار وعقول ، ونزعات وميول ، وتقاليد وعادات ومرافق ، فاذا أخذناها برمتها ، واستوردناها مع أجوائها وظلالها وتاريخها ، وسائر مقوماتها الداخلية وعواملها النفسية .

ان معظم هذه المصطلحات تدور حول الأدب والفلسفة والاقتصاد والسياسة ، وتعبر ـ دائما ـ عن وضع خاص ، وتشير الى منهج خاص فى هذه العلوم والآداب ، ومن هذه المصطلحات المشهورة التى استوردناها ، الديمقراطية والرأسمالية ، والشيوعية ، والاشتراكية ، والثيوقراطية ، الخ ..

فما كان الداعى الى قبول هذه الاصطلاحات ؟

اننا رأينا فى هذه المصطلحات بعض ما يلائمنا ، أو يعجبنا ، أو يتفق ـ فى خط من الخطوط ـ مع أهدافنا ، فأحببنا أن نستعين بها فى تعريف الاسلام وعرضه على الجيل المثقف الجديد ، الذى افتتن بهذه المصطلحات وآمن بها كايمانه بالله ورسوله .

وكان المجال الأول والمجال القريب هو الحكم الاسلامى، الذى صار موضوع النقاش والجدال منذ أعوام طوال ، وقد ظهرت هذه المحاولات فى العالم الاسلامى ـ خاصة فى مصر وباكستان ـ فى صورة مؤلفات ودراسات تنظر الى الحكم الاسلامى بهذا المنظار الغربى الجديد ـ منظار المصطلاحات المحدود ـ فاذا رأو فيه حرية شخصية قالوا : انه ديمقراطى ورأسمالى ، واذا رأو فيه مساواة قالوا : انه اشتراكى ، واذا رأو فيه خليفة يأمر وينهى ، قالوا : انه ديكتـــاتورى ، واذا رأو فيه أحكاما الهية لا دخل فيها لبشر ، قالوا : انه ثيوقراطى ، واذا رأو فيه بيعة عامة وخليفة كأبى بكر رضى الله عنه ـ يقول فى أول خطبته حين بايعه الناس « أطيعونى ما أطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم » قالوا : انه شعبى ، الحكم الأخير فيه للشعب !

فما هى طبيعة الحكم الاسلامى ومنهاجـــه الأصيل ، المبتكر المجرد عن الملابســـات والمصطلاحات والشكليات ، أليس للاسلام فكرة مستقلة خاصة، ونظام متكامل، متكافل، متناسق ، غنى عن الأخذ والاقتباس والاستيراد ؟ أليس له دعوة ومنهاج وحكم ؟ ثم أليس له مصطلحات وأسماءوشعائر أو شارات نعرفه بها ، ثم ندعو الناس اليها ؟

لا بل ان له منهجا مستقلا كاملا !

فلنلق نظرة سريعة عابرة عـــلى ما يستقل به الحكم الاسلامى • أو ما يتميز به دون غيره من المناهج السياسية

والاقتصادية المعروفة ، ولنر كيف يسمو عليها بنظامه الرباني العميق الدقيق ، وما هو الفارق بين المصطلحات الجاهلية والمصطلحات الاسلامية، وهل تسعه هذهالمصطلاحات أم لا ؟

الاسلام دين كامل أتم الله به نعمته على البشر ، فقال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »(١) فهو اذا نظام ربانى أنزله الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأتمه فى ثلاث وعشرين سنة ، ولم يدعه عرضة للأوضاع المتغيرة ، والملابسات الخارجية ، والمشكلات المتجددة والعصر المتطور ، شأن المذاهب السياسية الأخرى التى لا تزال فى دور التجربة والتكوين والبناء ، فجاء شاملا لسائر النواحى والوجهات بل الدقائق والخلجات التى لا تدركها الأبصار ، ولا يترقى اليها عقل البشرية القاصر المحدود ٠

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »(٢) ٠

« أفحكم الجاهلية يبغون »(٣) « وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون »(٤) ٠

« هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الأرض واذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتهم ، فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن أتقى »(٥) ٠

---

(١) المائدة ، الآية ٣ ٠

(٢) الملك ، ١٤ ٠

(٣) المائدة ــ ٥٠ ٠

(٤) آل عمران ــ ٨٣

(٥) سورة النجم ٠

والآيات فى هذا الباب كثيرة معلومة ·

هذه هى المبادىء الأولية للحكم الاسلامى وأبعـــاده ، وسوف نتقدم الآن ببعض التفصيل ، ولنتذكر ـ ونحن فى بداية السفر ـ تلك الحقيقة الكبرى أن الاسلام دين سماوى منزل من الله ، وأنه دين كامل لا يؤذيه التطور ، ولا تنال منه الأحداث ، أما المذاهب الأخرى ـ والمذهب أيضا اصطلاح لا يعبر عن النظام الاسلامى مطلقا ـ فناقصة محدودة لا تزال فى دور التجربة أو فى دور الطفولة ، وقفت فى سيرها أو بحثها عن الحق على بعض محاسن ووجوه من الحق والجمال، والبر والمعروف ، فحسبتها نهاية المطاف وآخر الشوط ، وظنت أنها ظفرت بالغـــاية المنشودة ، وسمتها باسم خاص ، ووضعت لها مصطلحات ، مع أنها كانت جانبا ضئيلا لا يصح الوقوف عنده أو التمسك به ، ولا يصح اعتبـــاره كاملا ، يتوقف عليه مستقبل البشرية اذا قيس بالجوانب الضخمة الأخرى ، التى لا تكتمل بدونها الصورة ، ولا يستقر بغيرها الوضع ·

ونقدم الآن بعض جوانب الحكم الاسلامى على سبيل المثال :

« وأمرهم شورى بينهم »(١) ·
« وشاورهم فى الأمر »(٢) ·

---

(١) الشورى الآية ـ ٣٨ ·
(٢) آل عمران الآية ـ ١٥٩ ·

وفى المستدرك « عن أبى هريرة رضى الله عنـــــه : ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم »(١) ٠

انها ناحية مهمة من نواحى الحكم الاسلامى حسبوها ديمقراطية يخضع فيها الرئيس لرأى الأكثرية ، ولو كان هذا الرأى غير صالح أو غير نافع ، وهو تجن على الاسلام ودليل على سوء فهمه ٠

ويأتى مبدأ « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »(٢) ٠

وهو جانب خطير أيضا ، فقد نهى الجمهور عن معارضة الخليفة والأمير والحاكم « ما أقاموا فيكم الصلاة » ونهى عن الخروج عليهم « ما لم يظهروا كفرا بواحا » وهذا اقرار لقيمة الحكم الاسلامى وأهميته ، وسموها على الخلافات الصغيرة ، وفيه تدعيم لأركانه ، وتشييد لبنيانه ، وهنـــالك تلتقى الصورة أحيانا ببعض صور الحكم فى التاريخ القديم والحديث، ولكنها لا تمتزج فيها أبدا ، وقد تجلى ذلك واضحا صريحا فى موقف عمر رضى الله عنه ، حين قال :

« اصابة امرأة وأخطأ عمر » ٠

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ـ ص ٦٤ ٠
(٢) النساء آية ٥٩ ٠

انه وضعت له حدود ومعالم واطار واضح ، وهـــو « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وروى الشيخان « على المرأ المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ، الا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » انه ليس الحـــكم المطلق ولا الطاعة الدائمة ، بل شيء بين هذا وذاك ، هـــو أقرب الى الفطرة وأقرب الى روح الاسلام ، وأما أمر البيعة فهو أشبه بنظام الانتخاب والتصويت فى العصر الحديث ولكنه يفترق عنه كما افترق أولا فى سائر المبادىء والوجهـــات فى عـــد الأصوات ، بل انه بيعة عامة يستقل بها الخليفة وأمـــير المسلمين ، ثم يدير دفة الأمور بمشورة من أصحابه .

هذا هو الاطار العام الوجيز السريع للحكم الاسلامى وهو نظام مستقل بطبيعة الحال . غنى عن الاصطلاحات ، بعيد عن الشكليات ، بل ان الاصطلاحات تجنى عليه وتحول بينه وبين فهمه على حقيقته ونمطه فى الشئون الاقتصادية مثل نمطه فى الشئون السياسية .

وموقفه فى السلطة الشخصية ، وفى مسألة الأحزاب الفردية ، وفى التأميم وعلاقات العمال ورجال الأموال ، وفى المساواة الطوعية والاجبارية ، ونحـــو ذلك من المشكلات الفنية موقف مستقل بذاته ، ذو طابع خاص وسمات واضحة مشرقة ، وحـــدود معلومة ، لا تستطيع هـــذه المصطلحات

السياسية (التى حملها الينا الغرب) أن تعبر عنه بدقة ، أو تصوره تصويرا صحيحا .

انها لا تقدم الا صورة مشوهة ، محدودة ، شاحبة لهذه النواحى الهامة ، ولا تستطيع أن تدرك غايتها أو تمس مستواها ، وتفهم روحها وأسلوبها ومنهاجها المستقل الأصيل ، المتفرد ، المبتكر .

ان جوانب الحكم الاسلامى أعلى من أن نعبر عنها بهذه الاصطلاحات المكدودة المحدودة ، فلنرجع الى المآخذ الأولى والشعائر الأولى ، أو نضع لها اصطلاحات اسلامية خاصة ليس لها صلة بالغرب ونفسيته نقية من شوائبه وعلائقه ، وأكداره .

جان بول سارتر
والأدب الوجودى

(١)

الوجودية (Existentialism) من التيـــارات الفكرية والأدبية المعاصرة التى صادفت هـــوى فى نفس الأدباء ، وتجاوبت مع أفكار كثير من الشباب المثقف الحر المنطلق فى فرنسا وبالتالى فى سائر أوربا ·

وكان نصيب واحد من زعماء هـذه الحركة الأدبيـــة والفلسفية « جان بول سارتر » (Jean Paul Sartre) أكثر من زعيمها الآخـــر « مارســيل » (Marcel) شهرة وقبولا ، مع أن مارسيل يعتبر من أقطاب الوجودية وهـــو مؤسس مدرسة فكرية مستقلة فى المذهب الوجودى ·

ونرجع قليلا الى الوراء فنلتقى « باندرية جيد » الذى نال اعجاب الجمهور المثقف وتخطت شهرته البلاد والأمصار، وبرز على مسرح الأدب القصصى العالمى كقائد وزعيم ·

فماذا كان السبب فى نجاحهمـــا وشيوع أفكارهما فى أوربا ، بينما فشل الآخرون ؟ وما هو السر فى هذه الشهرة السائرة الذائعة الصيت ؟ وما الذى حمل بعض أقطـــاب السياسة فى العالم العربى على تكريم واحد منهم، والترحيب به على الصعيد الرسمى ؟

ذلك ما نحاول عنه الاجابة فى السطور الآتية :

أما السر فى نجاحهما وشيوع أفكارهما فهو نقدهما اللاذع على التقاليد والأخلاق ، والمبادىء « المزعومة » ، فهو نفس الشىء الذى نجده فى « داروين » و « فرويد » و « أدلر » وأمثالهم .

وقد يلتقى « سارتر » مع « فرويد » فى كثـــير من الخطوط ، وربما استقى منه جزءا كبيرا من نظريته الشاذة عن الحياة ، والوجود ، والعدم ، كما يلتقى أحيانا مع « أندرية جيد » الذى سبقه فى دعوته الى الانطلاق العام عن المبادىء الخلقية التى يفرضها المجتمع ، فجمع بين سوآتهما ، وأضاف اليها ما أملى عليه فكره ونفسه من نظريات وآراء أكثرها غامضة مبهمة تنم عن ذهن مائع لا يستقر فى مكان ، ولا يطمئن الى نتيجة وفكرة ، انه يؤمن ـ كـ « فرويد » ـ أن Mature sex impulse هو نتيجة تطورات طويلة ، وأنه أصل عميق فى الكيان البشرى منذ طفولته ، ويسرى فى العلاقات الانسانية كلها ، ولكنه يضيف اليه أن الدافع الى الجنس ليس القوة الجنسية وأسبابها فحسب . بل ان نزعة الوجودية الكامنة فى الانسان تدفعه على ذلك(١) .

أما « أندرية جيد » فقد اعترف الأدباء أن « سارتر »

---

(١) اقرا : Beingand Nothingness (introduction).
By "J. P. SARTRE"

شديد التأثر بهذا الكاتب الفرنسى ، وقد أخذ منه مفهومه عن الخير والشر والأقدار الخلفية · وأكمل منه ما نقص وزاد فيه زيادات ، وهو يؤمن كأندرية جيد أن هذه الأقدار كلها نسبية لا مطلقة ، وأن الانسان هو صانع هذه الأقدار أو خالقها بلا استثناء(٢) كما أنه تأثر الى حد كبير بالفلسفى ······ الوجودى الألمانى «هيدجر» (Heidegger) الذى مزج الباطنية بالالحاد وعرف به ، ولكن يبدو من دراسته أنه تلمذ علـــى « فرويد » ـ فكريا ـ أكثر من أى شخص آخر ، وقد شهد بذلك (Hazelebarnes) الذى نقل كتابه الهام ـ أو المبهم فى عبارة أصح ـ الى اللغة الانجليزية، وهو شديد الاعجاب به ، كثير الاستيحاء منه ·

فالسر الوحيد فى بروزه وشهرته أنه برر للشباب طريق الهوى ، وزينه بالعلم والفلسفة والأدب والرواية ، بالعكس من « مارسيل » مؤسس مدرسة فكرية خاصة فى المذهب الوجودى الذى نتحدث عنه قريبا ·

ونستعرض الآن بعض نظراته الأساسية التى قامت عليها الوجودية :

ان الايمان بالله هو العائق الوحيد عنـــد الوجوديين ، لأن الانسان اذا آمن بقـــدرة تسيره ، وحكمة تدبر أمره ،

---

(٢) « الأدب الفرنسى » للدكتور « يوسف حسين » ص : ٤٥ ـ ٥٠ ·

وقوة تسيطر عليه ، ورقابة لا تنفك عنه ، فهو لا يستطيع أبدا أن يستقل بوجوده ولا أن يتحمل المسئولية دون غيره ، أو دون الله ، فوجود الانسان نفسه وحبه للحرية والانطلاق وتحمل المسئوليات على حسابه وعدم التقيد فى تقاليده وأوضاعه ، ينفى وجود الخالق المدبر ، وقد أشار اليه الأستاذ "Hazelebarnes" فى مقدمته لكتاب سارتر "Being and nothingness" بشىء من التفصيل .

وقد رد « سارتر » على تصور Leibniz للحرية ، الذى يقول : بأن الله أودع فى كل انسان جوهرا خاصا Essense ، ثم تركه وأعطاه الحرية الكاملة أن يتصرف فى حياته وفق ما يقتضى منها هذا الجوهر ـ وهى نظرية تشبه نظرية القدرية التى كانت تؤمن بالتعطل وتجرد الخالق عن قدرته وصفاته ، وكان جوابه عليه أن هذه الحرية ليست حرية فى أى حال من الأحوال ، لأننا اذا فرضنا أن الله خلق فينا جوهرا خاصا فمعنى ذلك أنه يكيف الحياة تكييفا خاصاوتتسم حياة الانسان اذا ـ بطابع محدود خاص(١) .

وذلك يشير بصراحة ويؤيد قولنا بأنه يعتبر الايمان بالله عائقا كبيرا فى حرية الانسان ، ولا يجب أن يرى فى

---

(١) Being and nothingness (introduction) by Translator

الانسان أثرا ما للتعاليم الالهية وأوامرها ، لأنها ــ عنده ــ تفسد عليه حريته أو بالأصح ــ تضيع فرصته ــ فرصة التمتع بالأهواء والتمرغ فى الشهوات •

الوجودى لا يؤمن بوجود الله ولا يؤمن بنظام خلقى يسود على الانسانية ، الانسان عنده حر ومسئول فى ذات الوقت ، لكنه مسئول أمام نفسه ، لا أمام الله(٢) ، انه لا يعتمد على عقله ولا يعتمد على الروح ولا يؤمن بالله ولا بنفسه ، هو يقول : ان الانسان مجموعة أعماله ، وهذه الأعمال ظل ما يملى عليه وجوده •••••• انه يعارض أى نظام وتنسيق للحياة البشرية ــ لأنه ينافى الحرية المطلقة عند القوم ــ ويقضى حياته بتوجيه من عمله ووجدانه فحسب ، أيا كان نوعه ، ومهما جر من ويلات على البشرية(٣) •

وننتقل الى ناحية أخرى لها أهمية كبرى فى تكييف حياة الوجوديين ، وهى تلقى الضوء على نظرة « سارتر » الى الاقدار الخلقية والخير والشر ، وعلاقة الانسان بالانسان •

ونستطيع أن نلخص فكرته فى جملة واحدة ، وهى أن هبوطنا وسقوطنا وأخطاءنا لا وجود لها بنفسها ، بل ان لها مبررا من وجود الأخرين الذين نعيش فيهم ، فلولا « هؤلاء » او لولا « الخارج » ما كان لهذه الأخطاء معنى ، ويشرح هذه النظرية بقوله : "Itısbefore the others that Iam Guilty' ويقول فى صدد الكلام : « اننى مجرم اذا

(٢) نفس المصدر ونفس الصفحة •

(٣) الأدب الفرنسى ، ص : ٤١٤ •

رأيت الى الآخرين(١) ٠

ويقول : اننا تعساء مساكين فى هذا العـــالم ، لأن وجود كل واحد منا هو يتداخل في وجود الآخر بطبيعة الحال من غير أن نحب أو لا نحب، فاحترام بعضنا لبعض واستيحاء بعضنا من بعض ومفاهيمنا الأخرى لا حاجة اليها ، لأنه انتهـاك مكشوف Voilatior لهــــذه الحـــرية التى نحترمها(٢) ٠

ويضرب لذلك مثلا في التعليم ، فيقول : ان هنــاك منهاجا للتربية يرغم الأولاد على اعتنــــاق ما ينبغى من قيم وأقدار ، ويسوقهم الى أهدافه الخاصة التى يريدها ، وهناك منهج آخر أكثر توسعا ومرونة ، فهو لا يستخدم هـــذه الخشونة أو الضغط ، ولكنه يريد أن يوجه الأولاد الى أغراض معينة ، مع أن ترغيب الأولاد (اذا فرضت عليهم قيم معينة) ليس أقل خطرا من الترحيب، وهكذا الاحترام لحرية الآخرين فهو أيضا كلام فارغ ، لأنه تجريح لحريتنا التى ننشدها(٣) ٠

هذه خلاصـــة لبعض أفكار هـــذا الوجـــود ومقوماته الأساسية التى تدل عـــلى فلسفته الحـــائرة التى يسميها L'Etretneant أو ٠٠٠٠ Being and nothingness بالانجليزية ، وقد تدور معظم أبحـــاثه بين الوجود بنفسه Being for itself والوجود لغيره Being For Others

---

(١) Being and nothingness P. 409-410

(٢) و (٣) نفس المصدر P. 409

ولكن الطابع الذى تتسم به أبحاثه من غير استثناء هو طابع اليـــأس والألم ، والمقت ، والتذمر ، والقــلق ، والتشاؤم ، والشعور بأنه لا يستطيع أن يعبر عن وجوده وذاتيته على الوجه الذى يريده ، فالحرية المطلقة مهددة دائما بالآخرين الذين يعيش بينهم حتى يموت ، والشعور بهــذا العبء الثقيل ، عبء المسئولية الكبرى التى حملها عـــلى عاتقه وحده تكميلا لحـــريته المفقودة المنشودة ، والشعور بالخواء الروحى العظيم الذى نشأ من أجل الالحاد ، ونبذ القيم الخلقية ، واعتبار المجتمع والدولة والأسرة والعائلة متداخلة فى شئون الفرد ، منغصا حريته ، ولكنه يحاول أن يكسو هذا الشعور القاتل بالعزلة والوحدة والخيبة واليأس ثوب الفلسفة والأدب ، فيأتى أدب غامض مبهم ، وفلسفة مليئة بالمتناقضات والأضداد والأسئلة الحائرة التى لا تجد جوابا ، وغموض لا يقبله العقــــل السليم ، وشـــذوذ لا تستسيغه الفطرة السليمة ، وتستعصى عليه هذه الأسئلة وتزعجـــه حتى يضطر الى أن يؤخر الرد والبحث فيهــا لعمــــل قادم Future Work وقد أعلن بذلك فى آخر كتابه .

انه يدعو الى الحرية المطلقة الدائمة البريئة عن كـــل قيد ، ثم يقيدها بوجود الآخرين ، فيتركهم ليعيشوا أشقياء أبدا ، تعساء دائما ، يحلمون بها ، فــلا يجدونها ، وينشـــأ بين وجود ووجـــود ، أو بين Being for others وبين Being for itself لون من العداء ، أو نوع من الجفاء .

جون بول سارتر
والأدب الوجودى

(٢)

الاتجاه الفكرى الذى يتزعمه « سارتر » فى المذهب الوجودى هو – فى الواقع – ظل هذه الحروب العالمية التى رزئت بها الانسانية ، ان هذا القلق ، والسآمة ، والفوضى ، والميوعة الفكرية التى طغت وسادت على التفكير الانسانى ونشاطه فى العقود من السنين، هى المسئولة عن هذا المذهب الاباحى الغامض ، ولا عجب فى ذلك فقد اكتوى الرجل بنار هذه الحرب وعاش بين شظاها ، حين قبض عليه فى الحرب العالمية الثانية ، ولبث فى السجن عاما كاملا ، ثم تسلل من هذا السجن ، ولاذ بأذيال الفرار ، وانضم الى حركة معادية لألمانيا وعاد أخيرا بأدب جديد يرخى العنان للانسان ويبرر كل صنيعة أو شنيعة يأتى بها ، ويحاول أن يقضى على همومه ومتاعبه وآلامه عن طريق هذه الحرية التى لا حدود لها ولا قيود ، ولا رقيب لها ولا حارس .

ان « سارتر » يعترف – بنفسه – ان هذا الخواء ، والوحدة والعزلة أصيلة راسخة فى كيان الانسان ولكنه يرجو أن يستولى عليه الانسان ، أو يتناساه – فى تعبير

أصبح ــ بهذا الشذوذ الفكرى والاباحية العقلية ، والتصرف الحر ، ويضع عنه « أغلاله » و « أثقاله » من الايمان والأخلاق، والمثل العليا ، ويحطم كل مقياس أو ميزان للخير والشر ، والخبيث والطيب ، والمنكر والمعروف ، أما اذا تدخــــل فى هذه الحرية وجود انسان آخر ، فذلك قسر طبيعى ، لا نملك الا أن نواجهه بضغط نفسى شديد وكبت ، أو ننتصر عليه باستعمال حريتنا فى نطاق أوسع أو باللامبالاة الى آخـــر الحدود .

وقد تجلى ذلك فى روايات «سبل الحرية Les Chemins Laiberte » وموتة الروح Lamortdans i'ame و « عصر العقل » L'agederasion . التى صور فيها تلك الأوضاع الاجتماعية والظروف التى تحيط بالانســـان المتمثل فى شخص « بطـــل القصــــة » الأوضاع التى تتدخل فى حريته الفردية وانطلاقاتهالواسعة فيواجهها بعنف أحيانا ، وبلا مبالاة بعض الحين .

وهو فى هذه الناحية ــ ناحية اليأس والتشاؤم ــ لا يقل فى أى حال من شهوبنهور (Schopenhauer) ــ زعيم المتشائمين ــ الذى قال :

Life swings like a penduaum from Pain to ennui from ennui to pain. أى ان الحياة تتدلى كالبندول من الألم الى السآمة ، ومن السآمة الى

الألم »(١) هذه السآمة والقلق هى الطابع العام البـــارز ، لجميع هؤلاء الكتاب والفلاسفة والأدباء ، السآمة والشعور بالفراغ ، ثم ملء هذا الفراغ بالتدهور الى درجة الوحوش والسباع ، وممارسة ألـــوان مضحكة للتسلية والترفيه ، وارواء هذا الظمأ النفسي الشـــديد بسخافات لا يصـــدقها العقل السليم ولا تقبلها الكرامة البشرية(٢) .

فالسبب الرئيسى لانتصار هذا المذهب وانتشاره فى الشباب والأدباء والكتاب أنه هيأ سندا كبيرا وركنا شديدا للمستهترين والعابثين وفتح لهم الأبـــواب على مصراعيهـا لتحقق نزوات الجسد ، وشهوات النفس ، بمرأى من العالم ومسمع ، وذلك تحت ستار « الفلسفة » و « الأدب » والأدب كما قال « اندرية جيـــد » : لا ينبغى أن يصبوا الى غاية ويفضى الى نتيجة حتى يبقى هذا الحد الفاصل ، أى النتيجة والغاية بينه وبين الدين دائما(١) .

ونعود الآن الى « مارسيل » (Marcel) الذى يعتبر من أقطاب المفكرين فى فرنسا « ١٨٨٩) وهو زعيم مدرسة

Islam and Modernsim by Maryam Jumeela. P. 13.

(٢) وما هذه الرقصات المجنونة الثائرة أمثال الجاز والروك أندرول أو رقصة الحمير والبغال ، وهى آخر الموضات ، أو ظهور عصـــابات للمغنيين والمغنيات أمثال Elwis presley' bingcras by, Franksintara أو Beatles الا محاولات يائسة للتخلص من هذا القلق النفسى والحرمان واليأس الذى يئن الغرب كله تحت وطأته الشديدة .

(١) الأدب الفرنسى ، ص : ٥٥١ .

خاصة فى المذهب الوجودى ونرجع منه بصورة نقابلهـا بصورة « سارتر » فاذا هى تختلف عنها اختـلافا هائلا ، سواء فى الأبعاد والحجم ، أو فى القسمات والملامح ، أو فى الطابع واللون ، مع أنهما زميلان فى المذهب الوجودى رغم احتلاف المنهج الفكرى School of thought والاتجـاه الأدبى .

الفرق الرئيسى والفرق الأصيل بين الأدبين أن الأول يمثل الجناح الملحد الاباحى ، الكافر بسائر القيم الخلقية فى هذا المذهب أو هذه الحركة الفلسفية الأدبية ، والثانى يمثل الجناح المؤمن بالله المعترف بالقيم الخلقية ، الداعى الى التفاهم مع المسيحية .

ان « مارسيل » يؤمن بالروح ، ويعتقد أن الانسان لا يحظى بالحرية الصحيحة والحرية الكاملة الا اذا اتصـل بقوة أكبر منها ، وهى الذات الالهية ، وكل اعتباره وقيمته أنه اختار الله ورضى به غاية وهدفا ، انه يرى أن الاستقرار فى النشاط الفردى والكفاح الاجتماعى لا يتأتى بدون هـذا الايمان ، وهنالك يلتقى « مارسيل » بالمسيحية فى أوسع نطاق وأفسح مجال(١) .

---

(١) الأدب الفرنسى ص ٥٤٨ .

انه يقول : ان الحس الخلقى والارادة الشخصية همـا يفيضان على الحياة معنى وغاية ، انه لا يعتبر الحياة ضائعة مهملة لا معنى لها ولا قيمة شـــأن « سارتر » و « كامو » (Camus) بل انه يؤمن ـ بالعكس ـ بأن الأمل والرجاء أصيل متسرب فى الروح البشرى متغلغل فى كيانه ، ونحن لا نستطيع أن نفوز بذواتنا الا فى حالة الأمل والرجاء ، لا فى حالة اليأس والشقاء ، فان الأمل للحياة الروحية ، بمثابة النفس ، للحالة الطبيعية(٢) ٠

انه يؤمن بالحب والوفاء والرجاء وسائر المعانى النبيلة الكريمة التى أودعها الله فى الانسان ليستعين بها فى مشاق سفره ، ويتزود بهـــا فى رحلته الطويلة فتخفف ما به من آلام ومتاعب وصعوبات ، ومشكلات وعقبـــات ، ولكنه لا يستطيع أن يضع لها تصميما وضحا ، أو يشير الى منهج خاص يضىء له الطريق ، فاذا كان الأول كمثـــل « الـــذين طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم »(٣) كان الثانى كمثل الذين وصفهم الله بهذا الوصف المعجز البليغ « كلما أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شىء قدير »(٤) ٠

---

(٢) نفس المصدر ص ٥٤٩ ٠

(٣) سورة النحل ، آية ١٠٨ ٠

(٤) سورة البقرة ، آية ٢٠ ٠

وأما روايته وتمثيلاته فمجرد عناوينها وأسمائها تدل على منهج تفكيره وعاطفته ووجدانه ، فهنا تمثيلية مشهورة له سماها « ولى من أولياء الله » Unhomme de dien ورواية تحت عنوان « قلوب الآخرين Lacoeurdes autres بخلاف روايات « سارتر » .

وثالثة اسمها « التوفيق الالهى » Lagrace

ونقدم هنا نموذجا واحد من رواية « ولى من أوليـاء الله » فهو يلقى الضوء على أسلوب تفكيره وعلى ضميره العلمى، وعقله المشبوب بالوجدان والعاطفة .

انه يصور في هـــذه الرواية قسا من البروتستانت (وهو بطل الروية) غفر لزوجته بعض جفوتها وعفا عما أتت به من جناية أو خيانة ، ولكنه تحول منذ ذلك الوقت شخصا آخر ، وحدثت في نفسه ثورة عجيبة ، فبينما كان يثق بكل واحد أصبح لا يعتمد الآن على أى شخص مطلقا ويرى الناس حوله بنظرة الشبهة ، ويسىء بهم الظن ، ثم راح يشك فى نفسه فتعبد فى الخلوات ، ومضى فى العبادات لعله يبرأ من علته ، ولكنه لم يتخلص منها ، وابتلى بها مدة من الزمان ، وتوجه أخيرا الى خدمة الرهبـــان فى الكنيسة ، وانصرف اليها كليا ، وحـــاول أن ينسى نفسه فى زحمـة الأشغال والوظائف اليومية المعتادة ، ونجحت هذه الفكرة وهذه المحاولة ، فلم تذهب عنه الظنون والشبهات فحسب ،

بل انه عثر بذلك على ضالته المنشودة · فبـــدأ يلمس فى حياته معنى خاصا ·

انه نموذج لكاتب كبـــير له مكانة مرموقة فى الأدب الفرنسى وطابع ممتاز بين المنــاهج الأدبية وأساليبها ، وزعيم من كبار زعماء المذهب الوجودى ، فما هى اذا جنايته اذ تخونه الأعين وتفوته الأبصار ، فى مصر وسوريا ولبنان ، ولا ينال هذا الأديب المؤمن بالذات الالهية وبالقيم الأخلاقية ـ وأنا لا أدافع عنه ففى أدبه مؤاخذات وفى فلسفته فجوات وثغرات يضيق عنها المكان ـ بعشر ذلك الترحيب الحار أو بهذه الورود والأزهار التى نالها ذلك الكاتب الملحد المعروف بذهنه المائع وفلسفته الفاجرة الهدامة لسائر القيم والمبادىء والأخلاق ، والدعوات والرسالات التى قامت بهـــا الأرض وتشرفت بها الانسانية ، وامتاز بها الجنس البشرى عـــلى حشرات الأرض وفقاقيع البحر ·

هل هى « مؤامرة أدبية » للكتاب الاشتراكيين والأدباء الثوريين لتحقيق ما تصبو اليه نفوسهم من هدم للـــدين واشاعة الفاحشة فى المسلمين أم انه انسياق مع التيار من غير هدى ، وتخبط فى ضلالة وعمى ·

لقد أحاطوه بهالات التقديس والاجلال وفرشوا له المحاجر والقلوب ، كأنه نبى أرســـله الله الى الاشتراكيـــين

العرب ، أو قديس جـادت به أرض فرنسا ـ كعبة هؤلاء الادباء المزعومين ـ ليمسح دموع هذه الأمة المنكوبة ويبـارك على أحزابها المتنافرة وهيئاتها المتنافسة ودويلاتها المتفرقة وحكامها المتناحرين المتكالبين على مقاعد الحكم والقيـادة ، ومناصب الامارة والرئاسة ، أم أنه مسيح يحيى المـوتى ويبرىء الأكمة والأبرص باذن الله •

لقد وقع بصرى عـلى تصريح وتعليق لبعض رجـال السلك الدبلوماسى ، فآلمنى هذا المستوى المنخفض الساقط الذليل من التفكير وهذه العقلية الصغيرة القاصرة ، عقليـة العصافير أو عقلية القرود والببغاوات التى تحسن التقاليـد وتجيد فن المحاكاة •

ياعباد « سارتر » ! يا أيها الأقزام المقلدون ، المتآمرون على الشعب العربى المسلم ، ويا أيها المتنكرون لمبـادئكم ، المنحرفون عن جادتكم ، السـادرون فى غيكم ، ان تحمسكم لهؤلاء الكتاب الملحدين واحتفالكم بهؤلاء الأدباء الأشقياء فى الدنيا والدين ، وتصفيقكم لهذه الشرذمة القليلة من الطغاة والمجرمين ـ الذين سودوا وجه الانسانية وانحطوا بها الى درجة الكلاب والذئاب ـ تسوقكم فى نهاية المطاف الى مزبلة التاريخ التى تكدس فيها كلما أبته النفوس الطاهرة المؤمنة، ومجته العقول النظيفة والأرواح الشـفافة ، وعافة القلب السليم والفكر المستقيم •

انها ترمى بكم فى النهاية ومن غير احتفال فى أوساخ التاريخ أو فى مهوى سحيق ، فهـــل أصبركم « سارتر » و « ماركس » و » تيتو » و « هيلا سلاسى » على هذا المصير؟؟

« وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا »(١) وصدق الله العظيم ٠

(١) سورة الاعراف ، الآية : ١٤٦ ٠

بناء الانسان أفضل
أم بناء العمارات ؟!

من المحن والأزمات التى ابتلى بها الشرق الاسلامى شغفه الزائد بالبنايات الحديثة والمعاهد العلمية الفخمة التى التى تشبه الفنادق والبنوك فى ضخامتها وارتفاعها ، وأناقتها وتأثيثها ، وشاع أمثال هذه الجمل : ان هذه البناية أكبر بناية حديثة فى الشرق الأوسط ، وان هذا الصالون أو هذا المدرج أو هذا المتحف ، الأول من نوعه فى المنطقة بأسرها ، وقد سموا هذا البناء الحجرى ، أو البناء الظاهرى بناء الوطن ، بناء الجيل ، بناء الحضارة ، بناء الثقافة ، الى آخر هذه التعبيرات البراقة التى كثر استعمالها فى الوقت الحاضر ٠

وقد طغى « آخر موضة » و « آخر طراز » على جميع الحقائق وأصبح « الأحدث » و « الآخر » و « الأكبر » المثل الوحيد للنهضة والرقى ، والبراعة والنبوغ ، وقد عمت هذه الظاهرة فى أكثر البلاد الاسلامية ، فهذا أكبر مسجد فى العالم فى أندونيسيا ، وآخر فى « كوالالمبور » وثالث فى « اسلام اباد » ، وقوى هذا الاتجاه المعمارى على حساب الأصالة فى العلوم والتعمق فى الدراسة ، والرسوخ فى

العقيدة ، والاضطلاع بالدعوة ، وأصبحت البنايات تستهلك قوى الأمة ، وتستنفد مجهودها وطاقتها ، ومكاسبها ، وأموالها وعقولها ، لا تستطيع عنها حولا ، ولا تبغى بها بدلا، لأنها آخر طراز وآخر ما قدمه الفن المعماري الحديث ، والأولى من نوعها فى آسيا و « ذلك مبلغهم من العلم » ٠

هذا فى محيط البنايات ، أما فى محيط الانسان فلم نسمع ـ فى عرض العالم الاسلامى كله ـ من يقول فى نفس التعبير ، وفى نفس القوة والاعتزاز ، هذا أكبر عالم فى الشرق ، وهذا أكبر طبيب فى « آسيا » ٠ وهذا أكبر مهندس فى العالم الاسلامى ، وهذا أكبر كيمائى فى المنطقة بأسرها ، وهذا أكبر ضابط وأعلمهم بفنون الحرب فى البلاد العربية كلها ٠

ان كثرة البنايات والفنادق ـ ياقادة العالم الاسلامى ـ لا تنجب الرجال ولا تنجب الكفاءة والمقدرة ، والنبوغ والبراعة ، والعلم والتقوى ، انها ـ بالعكس ـ تلهى الأمة عن المكرمات والبطولات ، انها تستنفد قواها وتشغل بالها ، وتصرفها عن غايتها السامية ، وأهدافها العالية ، وتجعلها فى قفص ذهبى تجد فيه كل ما يحتاج اليه جسدها من عيش رغيد ، وتفقد كل ما يحن اليه طائر الروح من حرية للخروج وأجواء فسيحة للطيران تزكى جوهرها الأصيل وترخى لها العنان ٠

ان بناء الانسان لا يحتاج الى بناية ولا يحتاج الى

دعاية ، بل انه يحتاج ـ فقط ـ الى تصحيح الاتجاه ، وتنوير الوعى ، وتنمية الشعور والعناية بالأولى والأهم ، والتركيز على النواحى المهمة الحساسة ، وتقوية الجانب الذى تضاءل واضمحل وضعف ، بدلا من تغذية الجانب الذى تسمن وتضخم ، وطغى وبغى على الجانب الضعيف •

ان مثلنا فى ذلك كمثل رجل نزل عنده ضيف اشتد به الجوع فاعتنى بغرفته كل العناية ، وأثثها تأثيثا جميلا ، وحشد له كل ما لا يحتاج اليه من كماليات ، ومع ذلك فلم يقدم اليه وجبة طعام ، أو كأسا من ماء •

أو كمثل رجل أتاه مريض يشكو ألما فى القلب ، أو وجعا فى الصدر فهداه الى مساحيق التجميل ، أو استعمال الملابس الفاخرة •

لقد عنينا ـ كثيرا ـ بالبنيان ، فلنتجه الآن الى الانسان •

همسات الى
جزيرة العرب ..

ان نظرة المسلمين اليك ياجزيرة العرب ـ يا مهبط الرسالة الأخيرة ومأوى النبوة الخالدة ـ تختلف عن نظرتهم الى شقيقاتك من البلاد العربية والبلاد الاسلامية القريبة والبعيدة كل الاختلاف ، فأنت فى نظرهم مأزر الاسلام والايمان ، ومركز الحسن والاحسان ، ومنبع الصدق والوفاء ، ومعدن الحب والولاء ، وملتقى الأرض والسماء .

وأنت فى نظرهم ـ بجانب ذلك ـ محط الآمال وموئل الأمة الشاردة الحائرة ، المفتتة الموزعة ، المتخاصمة المتناحرة وسهمها الأخير الوحيد الذى يتوقف عليه مصيرها ومستقبلها ، وعزتها وكرامتها .

أنت فى نظر المسلم العجمى أحب اليه من الوطنى الذى عاش فيه منذ نعومة أظافره ، والأرض التى قضى عليها أحلى أيامه وأسعد أوقاته ، والبيت الذى حمل أطيب ذكرياته .

فهل تعرفين سبب حبه لك وغرامة بك ، وتهافته عليك تهافت الصادى على الماء الزلال ، وتساقطه عليك تساقط الفراش على النور ؟

وهل تعرفين سبب ايمانه بك كالمعقل الأخير والحصن الأخير للاسلام فى هذا الزمان ؟

انه نداء ابراهيم ودعوة محمد صلوات الله عليهما وسلامه ، ان هذا الاسم العظيم الكريم ، الحبيب الأثير ، اسم محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الذى أضفى عليك كل هذا الطهر والقداسة ، ومنحك تلك المكانة الفريدة المحسودة التى لا يمسها بلد من بلاد العالم ، ولا تحلم بها بقعة من بقاع الأرض .

لقد كانت مروج « كشمير » وجبال المغرب وضفاف النيل وغوطة دمشق أجمل بقعة من بقاع العالم وأغناها بالمواهب الطبيعية ، ولكن شاءت حكمة الله أن تبقى هذه البلاد كلها ـ وما سواها ـ عالة عليك فى دعوتك ورسالتك، متطفلة على فتات مائدتك ، تنظر اليك بنظرة السائل والمحروم ، ولا ننكر فضلك ياجزيرة العرب فقد آتيتها سؤلها ، ومننت عليها بما هو أغلى من الوجود وأثمن من الحياة ، وهو الايمان .

لقد شاءت حكمة الله البالغة أن ينزل أول وحى على محمد صلى الله عليه وسلم فى غار حراء ، بين رمال وعساء وجبال جرداء ، وتنطلق الشرارة الأولى للدعوة بواد غير ذى زرع ، وتدور المعركة الفاصلة فى تاريخ الاسلام ، معركة بدر الكبرى فى الصحارى القاحلة والأرض الجرداء المجدبة التى لا زرع فيها ولا نبات ، فكأنها بذلك أرادت أن تقطع

صلتك بالمظاهر المادية قطعا باتا ، وتعلن أن قيمة هـــذه الجزيرة فى دعوتها ورسالتها وفى الأهداف التى جاهدت فى سبيلها ، لا فى مظاهرها وثرواتها ، ووسائلها وأدواتها ٠

ان هذا الاسم العظيم الكريم الحبيب الأثير اسم ســـيد ولد آدم وسيد الأنبياء : محمد صلى الله عليه وسلم ، هــو الذى منحك هذا المكان النادر ، الفريد الأصيل ، الجميل ، الكريم ، النبيل ، فى مصاف الشعوب وأسرة الأمم ، مكان الوصايا العادلة الرحيمة ، على الانسانية الحائرة والقيـادة المحنكة الرشيدة للشعوب الضالة ، مكانة الجهاد المتواصل المرير مع القوى الباغية ، والرباط الدائم على ثغور الاسلام، مكان النجدة والغوث للمسلمين المعذبين ، فى مختلف أرجاء الأرض ، وأقصى بلاد العالم ٠

ان قيمتك أيتها الجزيرة الحبيبة ليس فى هذا الذهب الأسود الفائض الـذى تتدفق به الصحراء ، وفى هـــذه المباريات للريح والناطحات فى السماء ، ان قيمتك واعتبارك وثمنك فى سوق العالم ـ مهما تغيرت الدنيا وتطورت ـ هو ايمانك بهذا النبى صلى الله عليه وسلم ، وحبك له ، واتباع النور الذى أنزل معه ٠

ان قيمتك هى الحفـــاظ على سمعة هذا الاسم الحبيب والانتصار له والتمسك به ، والتفـــانى فى ســبيل عزته وكرامته فى وقت عم فيه الضلال وانتشر فيه الغوغاء ، وقل فيه الوفاء ، وكثر فيه النكران والجحود ٠

اننى أراك أيتها الجزيرة تنظرين الى الغرب الذى داس كرامته الثوار فى « فيتنام » بالأقدام ، نظرة فيهـــا بعض الاجلال ، وفيها بعض الطمع ، وفيها بعض الشعور بالهوان، وفيها شىء كأنه « الندم » مالى أراك مسرعة متحضرة تريدين استدراك ما فاتك فى هـــذه العقود من السـنين من رواسب الحضارة الغربية وأثاثها البالى القديم ·

اننى أراك ياجزيرة العرب تستوردين من الغرب كل شىء ولا تصدرين اليه ما خصك الله به من عقيـــدة نقيـة صافية ، وايمان عمق ، وغـايات نبيلة ، ودوافع صـــالحة ، وجمعك بين الأخلاق والوسائل ، والغـــايات والوسائط ، وما خصك الله به من نور النبوة الذى انطفأت مصابيحه وانطمست معالمه فى الغرب ·

انك ياجزيرة العرب تواجهين عدوا يضمر لك الحقد والكيد منذ زمن طويل ، عدوا يعلن مطامعه التوسعية ويهدد الأماكن المقدسة ، ويطمع فى المدينة المنورة وخيبر ، فليكن ردك عليه رد الرجال الأبطال ، لا رد بنات الخدور وربات الحجال ، وذلك لا يمكن الا اذا حولت بلادك وفلذات أكبادك، ومحلاتك التجارية وأسواقك العامرة ، وأبينتك الشامخة ، ومدنك وبواديك الى معسكر ، والى قاعدة حربية ، ومركز تدريب ، فاذا نزل ضيف وورد زائر رأى أمة متهيأة للوثوب منتظرة ساعة الصفر ، متعطشة الى المعركة ، متلهفة عـــلى الشهادة، ورأى شبابا يسرعون الى نوادى الرماية، ومخيمات

التدريب ، ومراكز الدفاع والحرس الوطنى ، كما يسرعون الى الملاعب ، ومراكز الرياضة ، البدنية ومباريات كـــرة القدم » •

انك لو كنت يا جزيرة العرب مثل البلاد الاســـلامية الأخرى كتركيا أو اندونيسيا أو أفغانستان لخففنا عليك الثقل ، وأقلنا عنك الحمل ، والتمسنا لك الأعذار ، ولكنك فى مكان دقيق وموقف دقيق ، ومسئوليتك أكبر وأضخم من مسئولية أى بلد اسلامى فى العالم ، فاذا طلبنا من غيرك تضحية طلبنا منك تضحيتين ، واذا رجونا من غيرك مـــرة رجونا منك مرتين ، ولا عجب فهى ضريبة الشرف ، بل هو عين الشرف •

ان مسئوليتك بحكم هذا الشرف ـ أضخم وأكبر من مسئولية مصر ، ومسئولية ســـوريا ، ومسئولية الأردن ، ومسئولية العراق ، ومسئولية الجزائر ، وتركيا وباكستان•

ان أمل العالم الاسلامى قد ضعف فىشقيقاتك الأخرى التى انساقت مع التيـــارات الغربية كل الانســـياق ـ وأنا آسف على هذه الصراحة ـ وهو لم يعد يرجو منها خيرا ما دامت على نكرانها بنعمة الاسلام ، وجحودها بفضل محمد صلى الله عليه وسلم ، وما دامت تلهج بالثناء على الحضارات السائدة والمدنيات الجاهلية ، وما دام فيها من البعثيـــين الملحدين الذين يسخرون من الله فى الصحف الرسمية علنا وجهارا ، ومرارا وتكرارا •

انك ياجزيرة العرب السهم الأخير الوحيد فى كنانة العالم الاسلامى ــ والله أعلم بأسراره وخفايا أموره ــ فلا تخيبى أمله ورجاءه ، ولا تنظرى الى هؤلاء « الأقزام » باكبار واعجاب الذين أساءوا الى العالم العربى اســـاءة لن ينساها التاريخ ٠

انك أيتها الجزيرة قد جهرت بالاسلام فى كل مناسبة من المناسبات ، محلية كانت أم دولية ، سياسية كانت أم دينية ، بينما استحى منـــه الآخـــرون ، واستنكف منـــه « البعض » وحاربه « البعض الآخر » وأشدت بذكره بــكل صراحة وقوة واعتزاز ، وهى مأثرة سوف يسجلها لـــك التاريخ بكل تقدير واعجاب ، وذلك ما حمـــل المسلمين فى جميع أنحاء الأرض على أن يعتبروك المعقل الأخير فى هـــذا الصراع الطويل المرير بين الدين واللادينية ، والاســـلام والجاهلية ٠ الذى تدور رحاه فى البلاد العربية فى أقسى صوره وأفظع مظاهره ، فاعرفى مسئوليتك الضخمة الدقيقة فى هذه المعركة الفاصلة الحاسمة ، والمرحلة الخطيرة الهامة فى تاريخك المشرق الطويل ٠

انك أسعفت الانســـانية ياجزيرة العرب فى القرن السادس المسيحى ، بعد أن كادت تقع فى الهاوية وأخرجتها من جور الأديان الى عدل الاسلام ، ومن ضيق الدنيـــا الى سعتها ، وهى لا تزال تذكر فضلك وتذكر أبطالك الغـــر الميامين ، من الصحابة والتابعين ، ولكنها ترنو اليك مرة

ثانية ، مستعطفة مسترحمة أن تسعفيها مرة أخرى وتتولى زمام قيادتها من جديد .

وأريد أن أهمس فى أذنك يا جزيرة العرب بكلمة وجيزة أخيرة سامحينى فيها ولا تؤاخذينى عليها ، وهى ان الحياة صبر وجهاد ، وجد واجتهاد ، وشوك وقتاد ، ان الحياة الكريمة الحرة ، حياة العز والسعادة ، والشرف والكرامة لا تبنى بالرقة والنعومة ، والبذخ والاسراف ، ولا بوسائل الترفيه وأدوات التسلية ، أو أسباب الزينة والجمال ، انها تحتاج ا دموع ودماء ، وتحتاج الى صبر وتضحية ، وغلظة وخشونة ، وبساطة فى المعيشة ، واقتصاد فى المأكل والملبس ، والمسكن ، فاذا جمعت بين عقيدتك ودعوتك ، وبساطتك وتضحيتك ، أحسنت الى نفسك والى الأمة الاسلامية كلها والى الانسانية بأسرها ، وتفضلى أخيرا بقبول تحيات من عاش فى أحضانك زمنا سعيدا وقضى فى ربوعك وعطفك ورفدك أياما حلوة ، ورأى من واجبه الدينى أن يهمس فى اذنك وينقل الى سمعك وبصرك ما شاهده بدقة وأمانة وصدق ونزاهة ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فيتناميات جديدة

ان الأمم لا تحارب بالأسلحة ولا تحارب بالمال ، ولا تحارب بالأعلام ، أو بالأماني والأحلام ، انما هي تحارب بالروح المعنوية ، بالوعي الحربي ، بالدم الفائر ، بالقلب الثائر ، بالأهداف الواضحة ، بالغيرة والاباء ، بالجروح والآلام ، انها لا تحارب بالصاروخ « الظافر » و « القاهر »(١) والبوارج والبواخر ، بل انها تحارب بتلك الشوكة الصغيرة التي يشاكها قلبها ، فتؤرق نومها ، وتنغص نعيمها ، بتلك الغيرة البشرية ، والحياء الانساني الذي يظلم عليها الحياة ويضيق عليها الأرض ، بتلك الغضبة التي تطيح بالأرباح الرخيصة الحقيرة وتكتسح النباتات السامة والأحراش الخبيثة ، انها تحارب بوقفة الرجل الحر الكريم ، الذي أهين في عرضه ، وجرح في شرفه ، وشتم في مروءته ورجولته ، ولعن في سلالته وأسرته ، وفصيلته وقبيلته ، فيهجر ربات الحجال ، ويركض الى ساحة القتال ، ليغسل عاره ، ويأخذ ثأره ، ويرد اعتباره •

ان الأمم ــ يا أبناء سيد الشعوب والأمم : محمد صلى الله عليه وسلم ــ لا تحارب بصور الممثلين والممثلات ،

---

(١) أسماء الصواريخ التي تبجحت بها الصحافة في العهد الناصرى تم تلاشت وتبخرت •

والمغنين والمغنيات ، والراقصين والراقصات ، انمـــا هى تحارب بالشرارة الملتهبة فى الصدر ، بالدماء المتوثبة الفائرة فى العروق ، ببريق الثأر والنصر فى العيون ، باشراقـــة الغد المأمون المضمون على الجباه ، بترنيمة الفجر الجـــديد والنصر الأكيد على الشفاه ٠

انها تحارب بعاطفة « صلاح الدين » وغـــيرة « بابر » و « شهاب الدين »(٢) التى أبت وعافت كل ما لذ وطاب ، من طعام وشراب وثياب ، ما لم يتم النصر ويتحقق الانتصار، وتقر عيون المسلمين بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم ٠

انها لا تحارب بالعمارات والعقـارات ، والفنـــادق والسيارات ، والصحف والمجلات ، والتلفزيون والاذاعات ، ولا تحارب بالدخـــل والايراد ، وتضخم الميزانية وحركـة التصدير والتوريد ، والمرافق العـــامة والمنشآت الجميلة ، والتجـــارة المزدهرة ، والســـوق العـــامرة النـــافقة ، والمحلات التجاريـة الكبرى ، والبواخر المحملة بالبضائع ، والذهب الاحتياطى فى البنوك ، والأسهم الكبيرة فىالمصارف والشركات ، والرحلات الجوية الى روما وباريس وبيروت ، فحسبك ما كان عليه الفرس والروم فى زمن البعثة المحمدية من زينة وتفاخر وتكاثر فى الأموال والأولاد ، فلم يغن عنهم

(٢) من غزاة الهند المسلمين وملوكها الفاتحين ٠

شيئا ، وما كانت عليه فرنسا ـ فى الزمن الأخـــير ـ من حضارة زاهية مزخرفة رقيقة ، وأســـواق عامرة ، وسمعة طيبة ، فلم تغن حضارتها وأسواقها وسمعتها من جحـــافل ألمانيا شيئا ، وما عليه الآن أمريكا من قوة وسيطرة وتجارة ونفوذ ، وحياة ارتفع مستواها وتنوعت مطالبها ، ورقت حواشيها ، وكثرت ملاهيها ، فلم يغن عنها مستواها الرفيع، وقوتها السياسية والعسكرية ، وتجارتها العالمية ، ونفوذها الكبير ، وأساطيلها البحرية المشهورة ، وغاراتها الجوية ، وقنابلها المحرقة ، وغازاتها السامة ، وحمـــلاتها الوحشية الانتقامية من الثوار الفيتناميين شيئا ٠

انها سنة الله فى الخلـــق ، وهى لا تفرق بين مســـلم وكافر ، ولا تميز بين عربى وعجمى « من يعمل سوءا يجزيه، ولا يجد له من دو الله وليا ولا نصيرا »(١) ٠

لقد كانت جيوش ألمانيا تحارب بنشوة غريبـــة ، وعاطفة قوية ، وروح معنوية عالية ، حينما كانت فرنسا غارقة فى لهوها ، عابثة بأموالها ، معجبة بآدابها وحضارتها ، مزهوة بقوتها ووزنها السياسى ، لا تملك عاطفة ، ولا تحمل روحا قوية تهون عليها الشدائد ، وتكهرب طاقتها الكامنة ، وتأخذ بيدها فى البأساء والضراء ، وحين البأس ٠

---

(١) النساء ، الآية ١٢٣ ٠

وهذه هى قصة الفيتناميين ، فانهم يحملون من الروح المعنوية والوعى الحربى ، وعاطفة الأخذ بالثأر ، ما لا تملكه أمريكا ـ رغم كل ما فيها ـ والنتيجة معلومة ظاهرة لا تحتاج الى بيان ٠

اننا نستحى كثيرا بسرد هذه الأسماء ، وضرب المثل بالشعب الفيتنامى أو الألمانى ، لأحفاد محمد الفاتح ، وصلاح الدين ، ولكنه حضيض وقعنا فيه ورضينا به ، ووضع قبلناه وعشنا فيه ، وصورة مشوهة أحببناها ناسين وجهنا الحقيقى وسيرتنا الأولى ٠

ان عنصر الحياء هو العنصرالوحيد الذى ينعش الرفات، ويحيى الأموات ، ويجعل الرجل الخامل المتكاسل يثـــور كالليث ، وينقض على عدوه كالصقر ، فليعن العالم الاسلامى والشعوب المسلمة بهذا العنصر الـــذى تضاءل واضمحل ، وتقلص وانكمش ، أكثر من أى عنصر آخر ،

ان هذا العنصر ، عنصر هام أســـاسى فى الحروب ، وركن شديد تأوى اليه الشعوب ، انه يمسح هذا الغبار ، الذى يتراكم على الأمم الضعيفة الصغيرة بعض الأحيان ، فتأتى بالعجائب ،وتصنع المعجزات ، وترضى بمـــوت الشرف أو حياة الأسد الغيور ، والليث الهصور ، مقـــابل لقمة العيش وتمديد أجل الحياة ، حياة الـــذل والخضوع ، والاستسلام والخنوع ٠

ان العالم الاســـلامى أصيب بنقصـــان فى هـــذه الفيتامينات الروحية ، والقلبية والعصبية ـ اذا لم نقل انه فقدها ـ منذ زمن طويل ، فأصبح مشلول القوى ، عاطـل الارادة والتفكير ، وفاقد الهمة والطموح ، لا تثيره محنة ، ولا يهزه « تأديب » ولا تجرحه اهانة ، ولا يستفزه عدوان ٠

فليكن تركيزنا على هذه الناحية ، وضغطنا على هذه النقطة ، والضرب على ذلك الوتر الحســـاس ، من أوليـــات الأمور التى نتدارسها ، ونعالجها حـول نكبة ٥ حزيران ، والله المستعان ٠

دولة
لا تغرب عنها الشمس

اننا فى حياتنا الشخصية والاجتماعية والسياسية ـ نعالج الأغراض بالأغراض ، ونعـــالج الأنانية بالأنانية ، والطمع بالطمع ، والخيانة بالخيانة ، والظلم بالظلم ، والاثم بالاثم ، فتصبح الحياة كلها غابة موحشة مظلمة لا توجد فيها غير الذئاب والكلاب ، والأسد والدباب ، وغـــير الأحراش والآجام ، والأوحال والمستنقعات ، وتصبح الدنيا كلهـــا مسرحا تتصارع فيه الأغراض ، وتتشابك فيه المنافع ، اننا نقول : منينا بهذه الخسارة لخيـــانة فلان ، ومؤامرة فلان ، واهمان فلان ، وجناية فلان ، ولكننا لا نعلم أننا منينا بهذه الخسائر لمجرد تلك الأغراض الشخصية والفردية ، والحزبية والقيادية ، التى تتحكم فى جميع مصالحنـــا ، ومرافقنـــا العسكرية والمدنية ، وتتحكم فى مخابراتنا وفى قيادتنـــا العربية « الموحدة » وتتحكم فى ولاة الأمور وحكام البلاد ، ورؤساء الجمهوريات ، بمثل ما تتحكم فى أوساط النـــاس وعامة الشعب ، أو تتحكم فى رب البيت ورجل الشارع ٠

ان هذه الأغراض تتحكم فى مدرس كلية وأســـتاذ جامعة ، فيروق له أن يتخطى جميع الحدود ، ويهضم جميع

الحقوق ، ويغض النظر عن كل شيء ، ويستغل كـــل شيء ، حتى يصل الى مقامه اللائق ، في الكلية والجامعة ، حيث يتقلب في أعطاف النعيم ، ويعيش عيشة الأمراء وكبار الوزراء ٠

وتتحكم هذه الأغراض في ضابط صـــغير بدأ يحلم « بالرئاسة » رئاسة جمهورية اشتراكية تقدمية مثلا ، أو بدأ يسعى للوصول الى درجة ضابط كبير ، صاحب الأوسمة الرفيعة والبطولة الفذة من غير حق ، فيستغل جميع الفرص ، ويتآمر على سلامة البلاد ، ويستعين بالأعداء ، ويقف بوطنه وبلده وشعبه على فوهة بركان لمجرد الفوز بالمرتبة الأولى أو الثانية ٠

وتتحكم هذه الأغراض في حارس مركـــز استراتيجي كبير ، فتتراءى له الدنيا حلوة راقصة ، وينساق مع أوهامه وأحلامه ، فيرى أن اللذة القادمة والمتعة الرخيصة طـــوع أمره ، ورهن اشارته ، فيبيع الأسرار بثمن بخس ٠

وتتحكم هذه الأغراض في حارس مركـــز استراتيجي جمهورية ، فيطمع في البلاد المجاورة ، ويسيل لعابه عـلى خيرات الآخرين وتشتد فيه شهوة الحكم وشهوة المدح والاطراء فلا يبالي بالملايين من الضحايا ، ولا يبالي بالرؤوس المهشمة ، والأجساد المحرقة ، ويقامر بكرامة بلاده ٠

ان ٩٩ في المـــائة من الحروب والمعـــارك والتعذيب والاضطهاد والشر والفســـاد ، يرجـــع الى الأغراض ، أما

« الضمير » و « المبدأ » و « حقوق الانسان » و « من أجل الشعب » و « فى سبيل الشعب » و « باسم الشعب » فهى ألفاظ فارغة ، وكلمات معسولة ، لا يراد بها وجه الحق ، بل انها ستائر تلقى على هذا الوجـــه القبيح من الأغراض ، لئلا يفتضح الأمر ، وينكشف السر •

ان هذا الحرص الشديد على زعامة الشعوب العربية المؤمنة لا يتصل ـ من قريب أو بعيد ـ بالايمـــان العميق بالمبادىء ، والاخلاص الكامل فى الجهود والأهداف ، انها زعامة فى سبيل توزيع المنافع والأرباح ، والمناصب والجاه ، انه تسابق الى الأوسمة والشارات ، والأسماء والشعارات ، وكسب الجماهير « الثائرة » للتصفيق والهتاف على الوعود المعسولة ، والتهديدات المجلجلة ، والخطب الرنانة الطنانة ، والأحاديث الرخيصة الرصينة ، عـــلى أمواج الأثير وشاشة التلفزيون •

ان « الأغراض » هى التى أضاعت المســجد الأقصى ، وأراقت الدماء فى غزة وسيناء ، وذلت رقاب المسلمين فى العالم ، وأنشأت الفوضى السياسية والخلقية فى البلاد العربية « الاشتراكية » وتركت القوى العربية تقاوم وحدها العدو المشترك •

فهل هناك طريق للتخلص من هذا الداء ؟

ان طريق الخلاص قريب وبعيد ، وسهل وعسير فى

نفس الوقت ، انه قريب منا ومن أرضنا ومن تاريخنا ، ومن دمائنا وعروقنا ، بعيد عن واقع حياتنا ، وأوضاعنا السائدة التى نعيش فيها ، بعيد عن القيادات، التى لا تعرف غير«شكوى فى مجلس الأمن » بعيد عن هذا الأسلوب الرخو النـــاعم ، الرقيق من الحيـــاة ، التى لا تستطيع أن تواجه الشـــدائد وتركب المخاطر وتخوض المعارك ٠

انه سهل لا نحتاج الى أن نبحث عنه فى تركستان والقفقاز والهند والسند ، فهو فى متناول اليـــد والسبب الوحيد اننا لم نسر على هذا الطريق منذ زمن بعيد ، فأصبح غريبا علينا ، وأصبحنا غرباء عليه ٠

انه طريق التضحية والايثار ونكران الذات ، والكفاح الشاق المضنى على درب الحياة ، انه طريق الاحتمال والصبر، وكبح جماح النفس ، وايثار الآجل على العاجل ، والالتحاق بركب الصحابة والتابعين على صعيد الدعوة الى الله ورسوله٠

ان هذا الطريق لا مكان فيه للأغراض ، فان الاخلاص لله يعارض الأغراض المادية عـلى طول الخط ، فاذا دخـــل الاخلاص من باب واحد خرجت الأغراض من باب آخر ٠

وقد روى المؤرخون من العجائب والنوادر فى الاخلاص والتجرد عن الأغراض ما يكشف سر هذه القوة والنصر ، والعزة والكرامة ، والهداية والقيادة ، ويحجز التـــاريخ البشرى عن نظائره على طوله وامتداده ٠

فقد يغنم جندى فى المدائن تاج كسرى وبساطة ، وهو يساوى مآت الألوف من الدنانير فلا تعبث به يد ، ولا تشح عيه نفس ، ثم يسلمه الى الأمير ، ويرسله الأمير الى خليفة المسلمين فيتعجب ويقول : ان الذين أدوا هذا لأمناء ٠

ويعزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : خالد بن الوليد ، وهو فى غمار المعركة عن منصبه العسكرى الكبير ، وهو منصب « القائد الأعلى للقوات المسلحة » فى التعبير الحديث ، فيقبل أمر العزل عن طيب خاطر وينقاد للحق ، ولا يعبث به الهوى شأن القادة والزعماء ، ولا يضعف ولا يخور فى القتال ، بل ظل يجاهد بنفس القوة والعاطفة والنشاط كأنه لم يعزل عن هذا المنصب ، ولا أتاه أمر جديد ٠

فلو سمح للأغراض ــ لا قدر الله ــ أن تعمل عملها فى ذلك الزمان ، وأرخى لها العنان ، لما كان الاسلام وما كانت مصر والشام ، وثارت العصبيات القبلية ، والوطنية والجنسية ، واستبد كل امرىء برأيه وحكمه وهواه ، واحتدم التنافس والتباغض والتحاسد بين مختلف الطبقات والفئات ، وضاعت هذه البلاد كما ضاعت الأندلس وفلسطين ٠

ان الاخلاص أنقذ هذه الأمة دائما من الهبوط والتردى وأسعفها فى أيام المحنة ، وأبان لها معالم الطريق ، أما الأغراض فقد حالت ــ دائما وأبدا ــ دون رؤية الحقائق ، وأعمت القلوب والبصائر ، وأرغمت أبناءها على سخافات لا

يتصورها العقل ، وتصرفات صبيانية وألعاب بهلوانية تذر الرماد فى العيون ، وتلقى الغشاوة على الأبصار ، كما حدث عند اغلاق خليج العقبة ، ومضايق تيران وحرب ٥ حزيران ٠

ان الاخلاص والتجرد عن الأنانية والأغراض ، حاجة الأمة الأولى فى كل عصر ومصر ، وكل زمان ومكان ، فان تغيير اللافتات والواجهات ، وتبديل الشعارات والهتافات ، واختراع التعبيرات وضخامة الحروف والكليشات ، لا يقـــدم ولا يؤخر فى القضية ما دامت الأغرض تتحكم فى النفوس والقلوب ، وما دامت الأنانية وتعبـد الــذات ، وتقديس الأصنام البشرية والهياكل الانسانية متغلغلة فى الأحشاء، جارية مع الدماء ، غارقة فى الأنفس والأرواح ، وما دامت المصلحة الشخصية ، والمتعة المادية ، والحيـــاة الرخيصة التافهة ، وتقليد الغرب « التعس الشقى » عن فهم ومن غير فهم ، والغرام بفنون اللهو وألوان الطرب أقصى ما تهفو اليه القلوب وتشرئب اليه الأعنـاق ، وغاية ما يحلم به أبنـــاء الفاتحين العرب ، وأشـــبال الأمـة الاســـلامية فى الشرق والغرب ٠

كيف نؤدى دورنا
في بناء العالم المعاصر ...؟

ان الحياة تغيرت فيجب أن نتغير معها ، ونسايرها الى آخر الشوط ، ونهاية المطاف ؟ تلك هى خلاصة ما يقوله دعاة التجدد والتغريب فى هذا الزمان ، وعلينا أن ننظر فى صحة هذه النظرية قبل أن نحكم عليها «بنعم» أو «لا» .

اننا نجيل البصر فى العالم المعاصر ، ونجول فى عواصم العالم الكبيرة المشهورة ، فنؤمن بصدق هذه النظرية ، ونرى أن الدنيا تقدمت تقدما كبيرا فى جميع نواحيها ومرافقها ، وأصبحت غير ما كانت عليه قبل عقود من السنين فضلا عن الاجيال والقرون ، اذا كيف يجوز لنا أن نقف جامدين ،متزمتين نحو هذا التقدم المشاهد الملموس ؟

ان المنطق والعقل ، والبداهة والتجربة كلها تقتضى أن نغير موقفنا ونغير نفوسنا وأفكارنا حتى ننسجم مع هذا التطور المدهش السريع ، ولا نتخلف عن الركب ، ولا نحرم المتع واللذات ، والوسائل والتسهيلات التى توفرت وانتشرت فى جميع البلاد والأقطار ، ان معنى هذا ان الحالة الاقتصادية والأوضاع المادية ، هى التى تولد الأفكار ، وتنتج النظريات ، وتصنع الاتجاهات ؟ ومعنى هذا أن الصناعة هى التى تنشىء

الحضارة وتنشىء المفاهيم ، وتحدد الاتجاه ، وتقرر الأهداف .

هذه فلسفة آمن بها الغرب والشرق ، وأجمع عليها الطبقة المثقفة الذكية فى العالم أجمع، حتى أصبحت « حقيقة مسلمة » لا تحتاج الى جدل ونقاش ، حتى ان جميع الدراسات العلمية ، والحركات الفكرية فى الغرب قامت على أساسها ...

وهذه فى نفس الوقت نقطة لا يقبلها الحق والحقيقة فى أى حال من الاحوال ، والاسلام يعارض هذه النظرية على طـــول الخط .

الصناعة فى الاسلام لا تكيف الحياة ، ولا تصنع النظريات، والافكار ، بل ان النظريات والافكار هى التى تسخر الصناعة وتكيفها كيف تشاء .

«الأهداف» ـ فى الاسلام ـ هى التى تتمتع بالحكم الأخير والقول الفصل ، والكلمة المسموعة ، فى جميع مرافق الحياة ونواحيها أياكان نوعها ، ومهما كانت ضخامتها ، ومهما كان نفوذها وفعاليتها .

ان قيمة الصناعة عنده نسبية (RELATIVE) انهـــا مقبولة ومرحب بها مادامت تخدم مصالحه ، لا تطغى على مثـــله وأهدافه ، ونظرته وأفكاره ، ولا تمسها بسوء ، أما اذا هـــى طغت عليها ، وتعدت حدودها فهى مرفوضة مردودة ، وقـــد تجلت هذه النظرية فى الآية التالية «ولأمة مؤمنة خـــير من مشركة ، ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ،

ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه(١) ٠

وبذلك تنتهى خرافة (الصناعة الخلاقة) للنهاية ٠

وظهرت هذه النظرية القرآنية أكثر صراحة فى آية أخرى٠ « ويسئلونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ٠ واثمهما أكبر من نفعهما(٢) ٠

ان القيم والاقدار لا تتغير بالوسائل والعمران ،والنهضة الصناعية ٠

فالذى يريد أن يغيث ملهوفا أو ينصر مظلوما أو يطعم جائعا مسكينا يستوى عنده العربة والطائرة ، الا أن الطائرة تعجل هدفه وتيسر مهمته ، أما اذا لم يرد شيئا ، ولم يحمل عاطفه ، فان الطائرة والعربة حتى الصاروخ وما فوقه لن يقدر على أن يثير فى نفسه ذرة من شعور ودبيبا من ألم ٠

والذى يريد أن يكتب شيئا يستوى عنده قلم الرصاص، والقلم الناشف ، وباركر من أعلى الانواع ، ان « باركر » لا يدفعه على أن يكتب فى موضوع نافع فاضل ، كما أن قلم الرصاص لا يرغمه على أن يكتب فى موضوع رخيص سافل ،

---

(١) البقرة : ٢٢١ ٠

(٢) البقرة : ٢١٨ ٠

الاعتبار هنالك بالفكرة التى آمن بها صاحب القلم ـ أيا كان نوعها ، وأياكانلونها ـ والعاطفة التى حملها فى صدره ٠

وقد تجتمع الوسائل عند أناس يختلفون فى المبادىء والعقائد فلا توحدهم هذه الوسائل ولا توحدهم الصناعة على مبدأ واحد ، وذلك ما أبان عنه القرآن قائلا ٠

« كلا نمد هؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا (١) » ٠

انه يقول ان هذه الوسائل عامة مباحة للمؤمن والكافر، هذا يستعملها فى خير ، وذاك يستعملها فى شر ٠

« قل ، من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة (٢) »٠

ان الصناعة ـ من صناعة الاقلام الى صناعة الصواريخ والاقمار ـ لا تملك قدرة على انشاء نهضة وتقديم مثل ، وتوجيه أذهان ، انها آلة صماء فى يد من يحملها ويستعملها ٠

فالقول بأن الحياة تغيرت ، فيجب أن نغير نظرتنا الى الحياة حتى ننسجم مع هذا التطور ، ولا نتخلف عن الركب ،

---

(١) سورة بنى اسرائيل : ٢٠ ٠
(٢) سورة الأعراف ٣٢ ٠

قول لا أساس له فى عالم الواقع ، انه سحر هذه الحياة الزاهية المتحررة الخلابة • التى عبر عنها القرآن بكلمة بليغة وجيزة « ولو أعجبتكم» •

ان الاعجاب بهذه الحضارة التى نشاهدها فى الغرب هو الذى يدفعنا على التقليد الاعمى ، ويخيل الينا من ضجيج الماكينات وهدير الالات أن الصناعة هي التى انتجت هـــذه الحضارة مع ان الأمر بالعكس •

ان الدنيا لا تتغير فى الخارج أبدا ، انها تتغير فى داخل نفوسنا أولا ثم تبدو نتائج هذا التغير النفسى العميق عـــلى السطح المادى الظاهر ، يقول الله تبارك وتعالى :

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (٢) »

ان الحياة لم تتغير حتى نحتاج الى تغيير ، اننا نحتـــاج فقط الى تصحيح مفاهيمنا وأفكارنا واتجاهاتنا ، حتى نستعمل هذه الوسائل فى صالحنا كما يستعملها غيرنا فى صالحه •

نستعملها فى بناء مجتمع نظيف كريم ، وأسرة صالحة ، وحكومة رشيدة ، كمـــا يستعملها عـــداؤنا فى الضـــلال والاضلال ، والفساد والدمار ، واثارة الغرائز والشهوات ، واشاعة المنكر والفحشاء •

---

(١) سورة الرعد : ١١ •

المصيبة أننا ـ فى الشرق ـ نهتم بالوسائل والمظاهر أكثر مما نهتم بالروح والحقيقة ، والهدف والغاية ، والدعوة والرسالة ، فكانت النتيجة أن هذه الوسائل بدأت تتحكم فينا ، وتملى ارادتها علينا بدلا من أن نتحكم فيها ، ونملك زمامها ونسيطر عليها ونوجهها الى حيث نشاء ·

ان كثيرا من الشباب المثقفين ، وكثيرا من الموجهين والمفكرين، والزعماء السياسيين ، يظنون أن هذه الوسائل المريحة هى الحضارة ، وأصبحت المقاييس تتغير حسب الاذواق، فالحضارة عند البعض رفع مستوى المعيشة ـ أو بتعبير أصح ـ فندق كبير مزود بأحدث الأجهزة ، متوفر بكافة التسهيلات ، والحضارة عند البعض رحلات الى رومة ، وباريس ، وعند الآخرين تقليعات وموضات ،مع أن كل هذه الاشياء لا صلة لها بالحضارة ، انها أدوات فى أيدى المتحضرين ، خلقها الله سبحانه للبشر لينظر كيف يعملون ، قائلا فى كتابة المجيد « هو الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا(١)» وقال على لسان قوم موسى عليه السلام « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا (٢)» ·

وقد ثبت من هذا أن « الدعوة » الى التغير مع تغير الزمن دعوة غير علمية ، وغير مبنية على الاصالة والتعمق ، انها

---

(١) سورة الملك : ٣ ·
(٢) سورة القصص : ٧٧ ·

تبدو بريئة فى أول أمرها ، ولكن سرعان ما ينكشف أمرها ويفتضح سرها ، انها تدل على أننا استوردنا هذه الفكرة من الغرب ضمن مشحوناتنا الاخرى من غير أن نفكر فيها .

فاذا كان السيارة تحمل المرء فى لندن أو شكاغو الـــى صالة رقص أو حانة خمر .. ظننا من شعور أو من غير شعور أن كل من يشترى هذه السيارة لا بد له أن يتوجه حيث ماتوجه اليه الانجليزى والامريكى .

واذا كان التلفزيون فى الغرب أداة للعبث الحرام ظننا أنه على كل من يصنع هذا التلفزيون أو يستورده أن يقـــدم نفس البرامج ، كأن السيارة لم تخلقالا ليتوجه الى البار ، وكأن التلفزيون لم يصنع الا للخلاعة والمجون ، وهـــذا ينطبق على سائر مرافق الحياة ، اننا لم نستورد الوسائـــل فحسب ، بل اننا استوردنا معها الغايات والمناهج ، والفكرة والروح ، والذوق ، وتلك هى الطاقة الكبرى ، والبليـــة العظمى .

وهكذا حدث فى التربية .

التربية فى جميع الأقطار أداة لتوجيه الشعب الى غايات معلومة ، واضحة المعالم ، ظاهرة الملامح ، فالتربية فى الدول الاشتراكية غير التربية فى الدول الغربية ، بل ان التربية فى أمريكا ، غير التربية فى انجلترا والتربية فى الصـــين الشيوعية غير التربية فى الاتحاد السوفيتى ، وذلك لأن لكل

دولة أغراضا ومصالح وأهدافا يسخر لها جميع أجهزة البلاد بما فيها التربية والرياضة ، والمسرح والسينما والاذاعة ، أما نحن فى الشرق فقد نستورد هـــذه المنـــاهج التربوية والكتب التربوية (بنقلها الى العربية) بجملتها ، مع أنهـــا تعارض أهدافنا الاسلامية الواضحة ومثلنا العليا ومصالحنـــا الدينية كل المعارضة ، وتثير صراعا فكريا واضطرابا عقائديا بطبيعة الحال .

وكل هذا ناتج من هذا الوهم الخاطىء بأن الصـــناعة والنهضة المادية هى التى تغير ملامح المجتمع ، وتفتح آفـاق الفكر ، وتمنح الافكار والنظريات الفاضلة ، واننا نحتاج الى أن نتغير ونتطور مع الزمن حتى لا نتخلف عن ركب«المتحضرين» ونتقى تهمة « الرجعيين » .

اننا مهما جمعنا من وسائل وأسباب ـ نحتاج الى أننكون أكثر أصالة وتعمقا ، وأكثر ذكاءا وفراسة ، وأكبر صبرا وهدوءا ، فى مواجهة هذا السيل المتدفق الفوار ، الذىينهمر علينا من الغرب ، فنأخذ منه وندع ، ونترك ونختار ، نأخـذ الآلات المجردة ، وندع الافكار اللاصقة ، نختار العلــــوم التطبيقية ونسخرها للرسالة العظيمة التى آمنا بها ، والدعوة التى حملناها .

اننا بذلك نقدم شيئا مهما خطيرا ، فى مضمار العـــلم والثقافة للعالم المعاصر ، شيئا جديدا يسموا على هذه الأفكار والدعوات العصرية كلها ، ونصحح اتجاه الانسانية من جديد لتسير على درب مستقيم لزمن آخر طويل لا يعلمه الا الله .

المنهج الاسلامى للحكم

المنهج الاسلامى للحكم أو للسياسة والاجتماع لا يحتاج الى بحث وتدقيق، بمثل ما يحتاج الى تنفيذ وتطبيق ،ولا يحتاج الى تصريحات واعلانات ، ومؤتمرات واجتماعات ، ودراسات ومناقشات ، أكثر مما يحتاج الى اخلاص فى القول والعمل ، وايمان راسخ عميق بالمبدأ، واقتناع واف كامل بسمو الهدف، ودافع قوى على الاقدام ، وولاء صادق عملى بالاسلام وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

المنهج الاسلامى ، منهج مستقل ، منهج مختلف ، منهج أصيل ليس بينه وبين المناهج الوضعية وجه شبه أو نسب ، فبينما المناهج الاخرى أو الديانات السائدة الاخرى ، تختلط مع الشعوب البشرية العامة فى سوق المادة والمعدة ، وتجتمع معها على مائدة واحدة ، وتتمتع معها بملذات الحياة المحــرمة بحرية تامة ، نرى الاسلام ينفصل عن هذه الشعوب المادية من أول الطريق ، احتفاظا بسماته وخصائصه ، وغيره على دين الله واستمساكا بالعروة الوثقى ، وكراهيــة للمناهج البـاطلة والدعوات المزورة الكاذبة ، وذلك هو المراد بما جاء فى الحديث الشريف من مخالفة اليهود والنصارى والتشديد على النهى عن متابعتهم ولو فى الأمور العادية البسيطة « وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم (١) » .

---

(١) سورة النور ، الآية ١٥ .

ان هذه الأحكام الدقيقة التي نجدها في كتب الفقه الاسلامي عن الطهارة وآداب الأكل والشرب والدخول والاستئذان ، والكلام ، والحلق والقص والقصر ، ونحو ذلك من أمور قد تبدو أنها لا تتصل بالعقيدة والمبادىء هي نفسها أبلغ دليل على اتجاه الشريعة الاسلامية ونظرة الاسلام الشاملة المتكاملة الى الحياة ، فاذا لم يكن المراد أن يختلف المسلمون عن غيرهم على مسيرة التاريخ ودرب الحياة ، وينفصلوا عنهم لا في العقائد والمبادىء والنظريات العلمية والافكار الثقافية فحسب ، بل يختلفوا عنهم في كل شيء ، ما كانت الحاجة الى كل هذا « اليسار واليمين » في الاكل والشرب والقيام والقعود وما كانت الدعوة الى « الوتر » في مثل هذه الامور ، وما كان الاقتضاء الى طريقة خاصة للطهارة والاقتصار عليها ، والاهتمام بالقبلة واحترامها حتى في غير العبادة .

ان أمثال هذه الأحكام والآداب والأمور ، ـ وهناك كثير غيرها ـ ليست بدافع الفضول ، أو بدافع التعصب والتزمت ، أو بدافع الحقد والمقت ، انها شرعت للامة الاسلامية بحكمة بليغة وحجة بالغة وهي الحفاظ على هذا المنهج الكريم ،المستقل الفريد ، الاخير الذي تتوقف عليه سعادة البشرية ، ليعيش المسلمون بين مواطنيهم من أبناء الديانات الاخرى أوالمناهج السياسية والاجتماعية الاخرى ، كدعاة تتضح ملامحهم بالصدق وتشرق جباههم بنور الايمان وتمتلىء قلوبهم بالسكينة والتقوى «حنفاء لله غير مشركين به (١) » .

---

(١) سورة الحج ، ٣١ .

وهذا هو السر فى الاعادة والتكرار ، والشرح والتفصيل فى وصف المؤمنين فى القرآن الكريم ، وعد خصائصهم وحسناتهم وفضائلهم ، والغرض من هذا كله أن لا يقع بصر أحد على مسلم حتى يعرفه بأنه مسلم ، يعرف ذلك عن وجهه وعن شمائله وعن طريقته وآدابه ، ولا يحتاج الى النظر فى « هويته » أو «بطاقته» والاستفسار عن دينه وعقيدته ·

هذه الغاية العظيمة الكريمة هى التى جعلت المنهج الاسلامى للحكم كمنهجه فى سائر شئون الحياة والامور العامة منهجا مستقلا ، أصيلا يمشي على قدميه ، ويزاحم بمنكبيه ، وينظر بعينيه ، لافتا للانظار من غير تصريح واعلان ، ناطقا على جدارة الاسلام وخلود الاسلام من غير منطق وكلام ، ودعاية واعلام ·

هذا المنهج لا يترك الحبل على غاربه ، ولا يسمح لاى ناحية من نواحى الحياة بأن تكون حرة لا قيد عليها ، بل انه يهيمن ـ وفق الغاية التى ذكرناها ـ على جهاز الحكم بأسره ، فاذا أردنا أن نختار المنهج الاسلامى للحكم ، وجب علينا أن نأخذه كله ، نأخذه جملة واحدة ، فلا يجوز لنا أن نأخذ منه ما ساغه الهوى ، أو اقتضته المصلحة ودعت اليه الحاجة بل نأخذه يحذا فيره وبرمته ، ونطبقه على نظام التربية ونظام الاقتصاد ونظام الصناعة ·

أما فى ناحية التربية فالمطلوب منا أن نضع من الثانوية

الى الجامعة جهازا جديدا لتربية النشىء على الطراز الاسلامى ، وأن نكفر بكل هذه المبادىء والنظريات التربوية والافكار الجاهلية التى استوردناها من أعداء الاسلام ، كما نستورد أقلام الحبر ، وهذا الصوغ الجديد ، لا أعنى به التغيير الشكلى فى المواد المدرسية ـ رغم أهميتها ـ بل أريد به تطبيق المنهج الاسلامى على كل جزء من أجزائه ، ولو كان عاديا بسيطا، الى أن يكون جهازنا التربوى كفيلا بتخريج شباب أكفاء يبيضون وجه الاسلام ، ويعيدون مجد الاسلام ، وحتى يعترف الاعداء بأن جهازنا التربوى فريد مستقل ، لا يستورد ولا يقلد ٠

أما نظام الاقتصاد فهو بدوره يحتاج الى سبك آخر جديد يخلصه من شرور الربا والقمار ، والعقود والمعاملات التجارية التى لا يسمح بها الاسلام ، ثم انشاء حياة مثالية ومجتمع مثالى لا يطغى عليه الاقتصاد ، ولا تطغى عليه المعدة والمائدة ، والتكاثر والتنافس ، والسباق المذهل نحو أهداف خيالية ، مثل « رفع مستوى المعيشة » ٠

ان نظامنا الاقتصادى له دخل كبير فى بث الوهن والضعف ،فى جسم العالم الاسلامى ، فاذا قوم هذا النظام بمقياس المنهج الاسلامى الصحيح زال هذا الضعف الطارىء الدخيل ، وعاد كما كان سليما قويا بعيدا عن الشبع المفرط، والسمنة الزائدة ، وتحررت البلاد من هذا التفاوت المالى بين فئاتها المختلفة وأصبحت فى مأمن من عواقبه السيئة فى المجتمع ومصير الدولة ٠

ويأتى دور الصناعة وهى ناحية مهمة فى حياتنا اليوم ، وأقل ما يقال عنها فى هذه السطور هو أن نفرق فيها بين صناعة لازمة ، وصناعة زائدة عن الحاجة ، وبين صناعة نقيمها فى بلادنا وصناعة نستوردها من الخارج ، وأن نركز أكثر قوتنا على ما يسمى APPLIED SCIENCE صناعة تطبيقية مجردة ، هذا النوع من الصناعة هو أنفع للعالم الاسلامى اليوم ، وفى كل هذا التمييز والتطور والتقدم والتأخر نحتاج الى مقياسنا العادل الصحيح ، المقياس الالهى الذى لا يخطىء ولا يتغير .

ذلك هو « المفتاح المفقود » أو ذلك هو المصباح الضائع مصباح علاء الدين ، الذى قرأنا قصته فى ألف ليلة وليلة ، المصباح الذى لا يغنى عنه ألف كتاب وخطاب ، وألف جامعة ومؤتمر .

ان هذا الباب المغلق بيننا وبين التاريخ لا يفتح أبدا ، ولو قدمنا اليه ألف دليل وعرضنا عليه ألف مذكرة ، وألف احتجاج ، انه لا يفتح الا بالاخلاص الكامل ، والتنفيذ الدقيق، والتغيير العام الشامل فى جميع مرافق الحياة ، ومناهج الحكم ونواحى الاجتماع .

النظام الاسلامى
فى معركة الافكار

اذا أردنا أن نواجه الانظمة السياسية المعاصرة بفاعلية أكثر ، وأن نكسب لذلك شبابا لا يميع ولا يذوب ، ولا يسالم الأعداء ، ولا يفتر فى النضال والكفاح ، والجهاد والفداء ، وجب علينا أن نستعمل قوة الاسلام الذاتية فى هذه المعركة ، فان الاسلام لم يأت الا ليسود ، ويحكم ، اويوجه ، وينتصر على الدعوات الاجتماعية والانظمة السياسية التى تزاحمه ، ثم يشق طريقه الى الامام معتمدا على قوته الذاتية ومنهجه الخاص فى السياسة ٠

هذه القوة الذاتية فى النظام الاسلامىتأوى الى ركنين٠٠ شديدين : أولهما : الثقة بالاسلام كمنهج الهى تتوقف عليه سعادة الانسان ، وثانيهما : كراهية الانظمة الباطلة (غربية كانت أم شرقية ، رأسمالية أو اشتراكية ، قومية أو علمانية ، شيوعية أو ماركسية) كراهية عقائديةطبيعية ، تمتزج بالنفسية والروح ، والعقل والعاطفة ، واللحم والدم ، وذلك على أساس أن هذه الانظمة تحول دون اقامة النظام الاسلامى ، وتطبيق منهجه ، وتنفيذ شريعته ٠

فالركن الاول (يعنى الثقة بالنفس ، والاعتماد على

ما جاءت به الشريعة) يمنعنا من الانسياق مع التيـــارات الجاهلية ، ويحافظ على ايماننا وعقائدنا ، ولكنه لا يتقدم الى أكثر من ذلك ، والمعلوم أن الجمود لا يؤدى الا الى الزوال ، والمرء الذى يدافع عن نفسه فحسب تخور قواه وتنهار أعصابه فى النهاية حتى يستسلم للعدو ، ولذلك أردفه الاسلام بركن آخر يقوى أوله ويشد عضده ، وهو كراهية الانظمة الجاهلية، بجميع ألوانها وأشكالها ، وفى جميع عصورها وأدوارها ، ومقت الذين تولوا كبرها ، وحملوا لواءها مقتا شديدا ، وبذل كل الجهد والوقت لاقصائهم عن مسرح القيادة حتى لا يستطير شرهم ، ولا ينتشر مذهبهم المـــادى ومنهجهم الحيـــوانى فى النوع الانسانى الذى أكرمه الله بالامانة والخلافة ، والنبوءة والرسالة ، وشرفه بالايمان والعرفان والحب والحنان .

ان هذا المنهج الاسلامى لا تقتضى به استراتيجية المعركة والعقل العملى فحسب ، بل انه من غايات الاسلام العظيمـه التى نص عليها القرآن ، ولا يتكمل بغيرها الايمان ــ يقــول الله تبارك وتعالى يصف المؤمنين : « **والذين معه أشداء عــلى الكفار رحماء بينهم** » الآية (١)

ويقول :

« **أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فـــى**

---

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »(١) •

ويقــــول :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان ، وأيدهم بروح منه » الآية(٢) •

ويقــــول :

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لايالونكم خبالا ، ودوا ماعنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر »(٣) •

ويقــــول :

« كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده »(٤) •

وذلك لأن القرآن يريد أن يغرس هذه المعانى فى قلوب

---

(١) المائدة : ٥٤ •

(٢) المجادلة : ٢٢ •

(٣) آل عمران : ١١٨ •

(٤) الممتحنة : ٤ •

المؤمنين ويرسخها فى أذهانهم حتى لا ينسوا دورهم العظيم فى هذه المعركة ، ولا يؤخذوا على غرة •

أما فى الحديث الشريف فقد جاء صراحة :

من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الايمان ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، وأوجب على كل مسلم أن يجدد هذه المعانى في كل عشاء ، فيقول فى دعاء القنوت فى صلاة الوتر (وهو واجب لا يصح بدونه الصلاة) : « نخلع ونترك من يفجرك » وهو أبلغ وأوضح فى تنبيه الفكر وايقاظ الشعور واثارة العاطفة •

وجاء في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم علىلسان سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه « ما رأيت صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ، مالم ينتهك من محارم الله تعالى شيء ، فاذا انتهك من محارم الله تعالى ، كان من أشدهم غضبا »(١) •

وقد بات الامر بالعكس فى هذا الزمان ، وظل المسلمون لا يغارون على أنفسهم ، أو لا يغارون على شيء كما حدث أخيرا وأصبح الاعتبار عندهم أكثر الاحيان بالاراضى والاوطان لها بالكفر والايمان •

---

(١) عن الحسن بن على بن الحسين بن على رضى الله عنهم (الشمائل للترمذى) ◙

وورد فى آثار أخرى :

« ومن مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه ، مات على شعبه من نفاق » (١) .

« وثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار (٢) »

و « من جاء مع المشرك وسكن معه فهو مثله » (٣) .

الى غير ذلك من آثار كثيرة فى النهى عن التشبه بالكفار والأمر بمخالفتهم ، لا فى الافكار والمعتقدات فحسب ، بل فى الآداب الاجتماعية أيضا ، وليس الغرض منها الا أن يتميز المعسكر الاسلامى عن المعسكر الجاهلى فى كل شىء ، ويعرف موقفه وخطه فى معترك الأفكار أو فى ميدان النضال .

وفى ذلك حكمة بالغة ورحمة شاملة ، فان هذه المخالفة لا تمنع الكيان الاسلامى من التميع والذوبان فحسب ، بل تثير فى المسلمين كراهية شديدة لنظام الكفر ، والتمرد والعصيان ، ورغبة ملحة فى تغيير هذا النظام الفاسد ، اقتداءا بسنة النبى الكريم صلى الله عليه وسلم .

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد .

(٢) متفق عليه .

(٣) زاد المعاد ج ١ ص ٢ .

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » (١) وتدلنا على تلك البذور التى تبذرها فى قلوب المؤمنين نحو الجاهلية بأوسع معانيها ، وجميع أبطالها وممثليها ٠

«كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار »(٢) ٠

فما دمنا لا نؤمن بقراره نفوسنا أن هذه الانظمةالسياسية والاجتماعية تعارض اسلامنا على طول الخط ، وتتربص بنا الدوائر ، وتدبر لنا المؤامرات والدسائس ، وتنتهز كل فرصة للنيل من الاسلام ، والضرب على المسلمين ، سواءا بالهجمات والغارات ، أو بالارساليات والبعثات ، والمعاهدات والاتفاقات ٠

ومادمنا لا نؤمن أن هذه الانظمة تعادى ـ أصلا ـ رسالة الله وشريعته الكاملة ، وتريد القضاء على من يدعو اليها ، وتعتبر الدعاة الى الله ألد أعدائها وأكبر عائق فى سبيلها لا تحدث فينا قوة المقاومة وقوة الهجوم ، ورد فعل حاسم عنيف ينزل بنا حالا فى الصفوف الامامية وخط النار ٠

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٦ ٠
(٢) سورة الفتح ، الآية ٢٩ ٠

ان هذين الركنين بمثابة جناحين للصقر ، فاذا كسر منها جناح ، لم يقدر على الطيران ، وهذان الجناحان هما الحب فى الله والبغض فى الله ، فاذا استويا عند المؤمن طار بهما ولم يبال ·

أما نظرية التقارب والتعايش والمسالمة التى يؤمن بها أو يتظاهر بها ـ فى تعبير أصح ـ المتغربون والتقدميون ، فهى لا تستطيع أبدا أن تحل مشكلة التخلف والضعف والانحطاط ، وتنتصر فى معركة الافكار ، وصراع الانظمة والحركات ، لانها لا تقدر ـ أساسا ـ على منع الموجات ، وصد التيارات ، ومواجهة العدو فى أرضه ، وعقر داره ، واخزائه وتعريته ، وكشف القناع عن أخطاره ومكائده ·

فاذا دخل هذا النوع من الشباب الأعزل فى معركة الحياة لم يجد ما يدافع به عن نفسه ، فليس عنده ثقة بذاتية الاسلام ، يحافظ بها على دينه وثقافته ،وليس لديه كراهية ومقت لاعداء الله وأعداء الانسانية ينتصر بها على الباطل ، فيذوب فى نظامهم بطبيعة الحال ، كما يذوب الملح فى الماء ، وذلك بخلاف أهل ذلك النظام ، فانهم يؤمنون بذاتيتهم ويتعصبون لنظرياتهم ويتفجرون بغضا وعداءا للدعوة الاسلامية والمنهج الاسلامى فى السياسة والتربية والحكم «قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدروهم أكبر (١)»

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٨ ·

فلابد أن نوسع اطار كراهيتنا لهذا النظام الى حد يمنع ناشئتنا وشبابنا من تقليد هؤلاء « الببغاوات » و « الاقزام فى كل صغير وكبير ، وسواء فى قطاع الأفكار والمعتقدات ، أو فى قطاع المسليات والكماليات ، ونضع حدا على توريد البرامج الفنية ووسائل التربية ، وأسباب الترفيه والتسلية ، فكيف يسعنا أن نتكفف أعداءنا لاسباب تافهة زائدة عن حاجاتنا كالكماليات ، وأمور دقيقة حساسة كالتربية والاعلام ، وهم يترقبون للفتك بنا فى أى فرصة ، ويرقصون فرحا على هزيمتنا فى كل معركة .

ان نظام الاسلام السياسى لا يقوم على مجرد الدعوة ، ولا يقنع بالسلبية بل انه يبث فى أتباعه روح الكراهية والبغض نحو أئمة النفاق ، والضلال والكفر والالحاد ، ودعاة الاباحية والحيوانية ، والشذوذ والجنون « أم تحسب أن أكثرهم » يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالانعام ، بل هم أضل سبيلا »(١) .

ولذلك نجد القرآن العظيم يكثر من ذكر لعن المؤمنين على أمثال هؤلاء بجانب لعنه ولعن الملائكة والانبياء .

والفرق الاساسى بين نظام الاسلام السياسى والأنظمة الأخرى أنه لا يقتنع بالقوة السياسية ولا يحسبها أكبر همه

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٤ .

ومبلغ علمه ، ولا يريد مجرد الفوز فى الانتخاب والوصول الى مقاعد البرلمان شأن الحركات السياسيةوأحزاب اليمين واليسار ، « وأعداء الاستعمار » ، فان هؤلاء لا يمقتون الاستعمار أبدا ، انهم يطلبون وكالة الاستعمار ويطلبون حق التوزيع وحق التمثيل فحسب ، ولذلك تراهم يفرقون بين استعمار واستعمار ، فتارة يساومون هذا وتارة يساومون ذاك ، فالاعتبار عندهم بشروط العقد أو الوكالة ، وحاشا أن يفكروا فى مقته وكراهته ، وكيف يمقتونه وقد استعمرت أرواحهم وعقولهم وأفكارهم ، وكيف يكرهونه أو يخاصمونه وقد أخذ منهم ميثاقا غليظا ٠

أما النظام السياسى فى الاسلام ، فانه لا يعادى هذه الأنظمة ولا يصارع المذاهب السياسية والدعوات الجاهلية ليستمتع أهله بالقيادة ومنافعها ، كما استمع بها الذين من قبلهم ، ويخوضوا كالذين خاضوا ، ويسيروا على المسلك الذى سلكوه ، ولو دخلوا جحر ضب لدخلوه ، بل يعادى هذه الانظمة ويقاوم هذه الحركات فى سائر المجالات والجبهات، ويخالف أهلها من أول الطريق الى نهاية الشوط ٠ ويمقت احتلالهم الأراضى الاسلامية كما يمقت احتلالهم العقول الاسلامية ويمقت احتلالهم أرواح الشباب وطاقاته قبل أن يمقت نهبهم ثروات البلد وخيراته ٠

فالذى يؤمن بهذه النظرية ، وبهذا المبدأ ، ويسير على هذا الخط يعتبر مرابطا على الثغر ، يقظا واعيا لكل خطر ، يصبر

على أذاه ، ويصبر على حرمانه من المنافع المادية ، ولكنه لا يصبر على انتهاك حرمات الله ، وتعدى حدوده ونقصان دينه ، وينطق بلسان حاله قبل أن ينطق بلسان مقاله «أينقص الدين وأنا حي» (١) .

ويخرج من هذا النظام أكثر قوة وأقوى صمودا ، وأعمق ايمانا ، وأشد غيرة وحماسا ، فلا تجد هذه الانظمة فيه منفذا تدخل به ، وثغرة تتسرب منها ، وضعفا تستغله ، بل تنعكس الآية ويقف النظام الجاهلي (بشقيه الغربي الشرقي) في موقف الدفاع ويرى في هذا المؤمن ونظامه الجديد حظرا على مكاسبه وانتصاراته وصولاته في أرض الاسلام .

ان هذا التحول، تحول المعسكرالاسلامي من خط الدفاع الى خط الهجوم ، واندحار المعسكر الجاهلي الحديث من خط الهجوم الى خط الدفاع ، تحول عظيم ، وهو لا يمكن الابتحقيق تلك المعاني والمبادىء وارساء نظامنا السياسي على هذين الركنين العظيمين والاستعانة بهذين الجناحين الكبيرين .

انه منهاج لا تقتضي به ـ كما قلت ـ استراتيجية المعركة والعقل العملي ، والتحول النفسي فحسب ، به انه في ذات الوقت من غايات الاسلام العظيمة الكريمة ، التي نص عليها القرآن ، ولا يكمل بغيرها الايمان .

---

(١) كلمة خالدة باقية ، قالها سيدنا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ في فتنة الردة المشهورة ، فقضى بها على هذه الفتنة .

عاهـــة الشيوعية

ان عداء الشيوعية للدين وحقدها الشديد الدفين للاسلام قضية معروفة لدى الجميع ، أما ذهابها بأمن الحياة ورخائها وسعادتها ونحسها على موارد البلاد وغناها، وزرعها وثمارها وعلى تجارة البلاد وانتاجها ، وكبتها حرية العمل ، وحرية الكفاح ، وحرية التصدير والتوريد ، وحرية الحياة العائلية والمنزلية وحياة المجتمع ، وانكارهم للمعانى النبيلة مثـــل حب الاطفال وصلة الرحم ومعاشرة الاخوان ، وفى اختصار العيش على هذه الكرة الارضية كانسان ، فان هذه القضية أو هذا الفصل الاسود الحالك من قصة التنازع الطبقى ، والصراع الحيوانى ، والاستبداد الحزبى ، فصـــل لم تعرفه البلاد « الغرة » ... « الساذجة » « الآمنة المطمئنة » التى لم تكتو بنارها، ولم تجرب حظها فى هذا «اليانصيب» ، ولا أسرد هذا اللفظ عفوا وجزافا ، فان كثيرا من الناس فى هـــــذه البلاد يتسابقون ويتزاحمون على شراء هذه الآفة والعاهة ، كأنه خير كثير حرموا منه بينما سعد به الآخرون .

فهل هو خير كثير ، أم شر مستطير !؟

ان لنا جارة فى شرق البلاد يقال لها « بورما » وهو اسم معروف ، وعندكم جارات تبنت الشيوعية وافتخرت بهـــا ،

ولا أسميها ، أما « بورما » المسكينة المنكوبة بالماركسيين هؤلاء - الذين يستعملون أحيانا تعبير التقدمية والثورية والتحررية والعلمانية تقنعا وتسترا ، وتفاديا للصدام المكشوف ، وتغريرا بالشباب الفج - فأحكى لكم قصتها ، ومعذرة الى الثوريين الماركسيين فى درة الخليج التى يحلمون بها ويسيل عليها لعابهم ، والى الشيوعيين المتسترين فى مراكز الاسلام وحصونه ومعاقله (وهم فيها أكثر تسترا وتحفظا وممراوغة ونفاقا بحكم الوضع والمنطق والطبيعة) فانها تفضحهم قليلا فى قارعة الطريق . لقد كانت هناك تجارة زاهرة للمسلمين فى « بورما » ، واسهام كبير فى صناعة البلاد وبناء الوطن الى جانب خدمتهم للدين ، فتلاشى كل هذا مع انهيار اقتصاد البلاد كنتيجة طبيعية دائمة للثورة الشيوعية وأصبح البلد سجنا كبيرا يعيش فيه الجمهور ، الذى كان يهتف لهؤلاء عالة على فتات الحكم العسكرى الشيوعى وصدقاته ، واليكم اقتباسا مما نقلته « الديلى التلغراف اللندنية » .

كانت « رنجون » عاصمة «بورما» تعتبر من أجمل المدن الاسيوية فى يوم من الايام ، ولكنها فقدت اليوم كل جمالها وبهائها ، وكل أناقتها وروائها ، وأصبحت البنايات الشامخة نموذجا للقدامة والبلى ، أما النظافة فهى كلمة لا مدلول لها ، الأسواق والمحلات التجارية تغلق وتقفر من المساء الباكر وتخلو الشوارع من الناس الا الشرذمة القليلة

التى تراها مصطفة أمام دور السينما لمشاهدة الافلام الاجنبية، كما يوجد بعض المشاة فى الطرقات عابسين وجوههم وقد كانت هذه الوجوه يرتسم عليها الابتسام فى ماضى الايام ، انهـا صورة « بورما » اليوم بعد انتهاء عهد الجمهورية واحتلال عهد الاشتراكية محله .

ويصف المعلق السياسى الحالة الاقتصادية فى البـلاد فيقـول :

قد انتجت هذه السياسة قلة المواد الاستهلاكية بشكل فظيع ،وتوزع الحوائج الهامة فى محلات تجارية شعبية عـن طريق شركة تجارية حكومية والاسعار مرتفعة جدا ، كمايحتاج فى شراء حوائج عادية الى انجاز اجراءات رسمية والـذين يضطرون الى شراء هذه الحوائج من غير هذا الطريق ، توفيرا للوقت ، وتخلصا من المآزق الرسمية ، ويلجأون الى السـوق السوداء .

وبما أن الشيوعية فى « بورما » قد قضت على الاحـزاب المعارضة، وأممت الصحافة التى تملكتها الحكومة الآن، لا يمكن رفع صوت الاحتجاج على جميع هذه الويلات التى يعيش فيها الشعب البورمي، وقد واجه تصدير الرز تأثيرا سيئا للغاية من قبل الاشتراكية الحديثة فى « بورما » اليوم ، وذلك ما تتركز عليه جل اقتصادية هذه البلاد . وقد كانت « بورما » قبـل الحرب العالمية الاخيرة فى رأس قائمة البلدان التى تقـوم

بتصدير الرز ، ولكن نسبة التصدير نقصت فيها حتى بلغت اليوم الى نصف ما كان عليه من قبل »(١) .

هذا ما حدث بجارتنا ، أما ما حدث بجاراتكم في هذه الناحية بالذات فأرجو أن تتولوا الرد عنها ، وأخاف أن يكون نصيبها أكثر في الحرمان والحريات المقيدة ، والحرمات المنتهكة ، والدم المهراق ،فضلاعن الانهيار الاقتصادىوالتدهور الخلقى .

انظروا الى بعض البلاد العربية الجميلة المؤمنة الآمنة ، ثم تأملوا ماذا كانت وماذا صارت ، اسألوا مروجها الخضراء وحدائقها الغناء ، اسألوا أمطارها وأنهارها ، وثمراتها وغلاتها ، ونخيلها وأعنابها ، لا تسألوا سوق العلم الذى كسد، ودنيا القلبالذى خمد ، لا تسألوا حلقات الدرس ،وحلقات الذكر لا تسألوا الوجوه المشرقة بنور الايمان ، والشباب المؤمن ، الغض الطرىء فى الميدان ، فقد شوهتم هذا الوجه الحقيقى الجميل لبلادكم باسم البطون الخاوية والأجسام الضامرة ، باسم الفلاحين والعمال والطبقة الكادحة ، ولكن اسألوا التاجر ، والمعلم والطالب ، والموظف ، والفلاح والحارث

(١) ان مسلمى الهند متصلون ثقافيا ودينيا بمسلمى بورما ، وبينهم صلات وأواصر ، ولهم معلومات عنها بمصادرهم الخاصة فجاء هذا التقرير الأجنبى مطابقا تمام المطابقة بما كانوا يعرفونه ، بل انه لم يصور فظاعة الموقف، واخفاق الاشتراكية فى هذه البلاد كل التصوير .

هل هو يعرف لذة الحياة ؟ ومعنى الكرامة ؟ ويذوق طعم الحرية والامن العاطفى ؟ هل لا تزال الثمار والحبوب ، والغلات والمحصولات ، تزخر ، وتفيض ، وتتوفر ، كما كانت تتوفر قبل اعصار الشيوعية ولفحاتها ، « فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت »(١) وهل هذه النار شيء آخر غير الجحود والكفران ، والكفر بعد الايمان ، وهل ينعم ابن البلد بخيرات بلده وثمرات سعيه وجهده ، وبركات أرضه وسمائه ، كما كان ينعم بها قبل دخول الشيوعية ، أو قبل ذاك بكثير فى عصور العلم والايمان ، والدعوة والجهاد ، والصدق والاخلاص ويقر بها عينا ؟؟

هل هو يأوى الى فراشه ناعم البال قرير العين ، راضيا مرتاحا ، آمنا مطمئنا ، بين زوجته الوفية وأولاده البارين ، لا يخاف على نفسه من طارق يطلب بطاقة الجنسية والهوية ، أو شبح يطارده فى المنام فى صورة مخابرات وبوليس وحكام، أو رايات حمراء ترفرف ــ لاقدر الله ــ على بلاد الاسلام .

ان وطأة الشيوعية أشد وأنكى وأثقل على الذين يطلبون الرخاء والامن والاستقرار لبلادهم ، وهم فيه مخلصون ، من الذين يحرصون على دينهم وايمانهم ، وهم به راضون مرتاحون

---

(١) سورة البقرة ، ٢٦٦ .

فان نار الشيوعية لا تمس هذه القلوب المؤمنة السليـــمة الصادقة ، ولكنها تحرق ظاهر الارض ، انها تحرق فقـــط أموالا يكسبونها ومساكن يرضونها وتجارة يخشون كسادها، فاحذروا منها بدافع الاقتصاد ومصلحة المعيشة والرزق اذا لم يرق فى عيونكم دافع الدين ، ولم يهمكم أمر الاسلام والمسلمين

العالم الاسلامى

يبحث عن شخصيته

للمعسكر الغربى الرأسمالى شخصية دينية وسياسية واجتماعية يعرفها الجميع ، وللمعسكر الروسى شخصية أخرى مميزة واضحة الاهداف والمعالم ، وللمعسكر الصينى الشعبى شخصية ثالثة يخاف منها المعسكران ، فهل للمعسكر الاسلامى أو للعالم الاسلامى شخصية دينية وسياسية واجتماعية ، يعرفها الجميع ؟ شخصية واضحة الاهداف والمعالم ، بارزة الشعارات والشارات ؟ كلا ! فالامر عندنا يختلف عن هذه المعسكرات المتنافسة ، والكتلات المعاصرة كل الاختلاف ؟ فان شخصيتنا فى الوقت الحاضر شخصية موزعة مبعثرة فيها شركاء متشاكسون ، شخصية مائعة تميل تارة الى هذا وتارة الى ذاك ، لا تتمسك بدينها فتنتصر ، ولا تنساق مع الغرب المادى كل الانسياق فتطمئن ، لا تقتنع بما عندها من عقيدة وايمان ، ومنهج وسلوك كل الاقتناع ، ولا ترضى بما عند المعسكرات الأخرى من كفر والحاد ، وعبث وفساد وكل الرضا ، وتحاول التوفيق بين تراثها القديم وبين العالم الجديد، من غير أن تثق بالاول كبير ثقة ، أو تعرف الآخر عميق معرفة، فتجمع بذلك بين جهلين ، جهل بتراثها ، وجهل بعالمها ،

ولو قدرت دينها ، وعقيدتها وتراثها حق القدر ، وعرفت عالمها المعاصر بمشكلاته وأزماته ، وفقرة وافلاسه ، وبؤسه وحرمانه كل المعرفة ، لفازت بالحسنيين ، فالحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها .

وأصبح مبلغ هذه الشخصية الاسلامية من رسالتها السامية وعلمها النافع للانسانية ، الهادى للبشرية ، كلمات فى كتابأو هتافات فى خطاب ، أو تسبيحات بين المنبر والمحراب ، أما خارج هذه النواحى الثلاث فلا تجد هناك الا شخصية فرنسية أو ايطالية أو صينية .

شخصية واعظ دينى ، ومصلح اجتماعى اذ رأيتها على المنبر ، وشخصية تاجر ايطالى أو خبير هولندى اذ رأيتها فى البيت أو المكتب أو الديوان .

لا تؤخذونى أيها السادة فهى قصة المسلمين جميعا ،سواء كانوا فى باكستان ، أو تركيا أو المغرب الاسلامى ، فالعلماء ــ رحمهم الله ــ لهم شخصية مزدوجة ، شخصية الخطيب حين يصعد المنبر ، وشخصية الموظف حين يقبض الراتب ،والساسة لهم شخصية مزدوجة شخصية ابن البلد والمواطن الاول والمناضل البطل حين يواجه الجماهير بكلام فارغ ، وشخصية السياسى الشاطر حين يساوم فى عرض البلد وكرامة الوطن، بل يبيع بلاده أحيانا فى المزاد العلنى ، والتجار لهم شخصية مزدوجة شخصية الرجل الوادع الرقيق القلب ، وطنىالنزعة،

اسلامى العاطفة ، حين يمد يده باكياس الجنيهات لبناءالمساجد والرباطات ، وشخصية التاجر القاسى الذى لا يبالى بشيوع الخمر بين الفتيات • أو ازدياد عدد المدمنين والمدمنات ، وتخبط الشباب فى حيرة البطالة والسآمة والضياع ، اذا كان ذلك باعثا على تضخم ميزانيته ، وازدياد وارده وصادره •

ان شخصيتنا شخصية مستعارة ، استوردناها من الغرب كما استوردنا الغسالات والادوات المنزلية ، وهى شخصية ملونة تجمع بين المزاج الفرنسى ، والطابع الامريكى ، والسمة الانجليزية ، والسلوك الروسى ، وطغت هذه الانواع والالوان على لونه الاسلامى ، وقضت عليه فى بعض الأحيان •

فما هى هذه الشخصية الاسلامية ؟ لندع الحكم فى هذا الأمر للقرآن حتى لا يكون هذا الأمر مثار شبهة أو موضوع مناقشة وجدال •

« وضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » (سورة الزمر)

أنظر كيف يبت القرآن فى هذه المشكلة بالقول الفصل والحق الواضح المبين «رجلا سلما لرجل »

اذا فتلك هى سمة الشخصية الاسلامية ، وطابعها البارز الشاخص الحى، الذى تكاد تلمسه بالبنان قبلأن تحسه

بالوجدان ، وما أروع البيان وأبلغ التشبيه حين تبدو حقيقة نابضة يراها كل واحد ، ولو لم يبلغ رتبة العلماء .

ويشرح القرآن هذه الناحية فى موضع آخر ، فكأنه يفسر الآية المذكورة تفسيرا ، ويزيد الاجمال ايضاحا وبيانا .
« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين » (سورة البقرة) .

والآن انحلت العقدة ، وتذللت العقبة ، وظهرت المعجزة تملى ارادتها على من يؤمن ومن لا يؤمن !

الشخصية الاسلامية اذا شخصية أصيلة ، مستقلة الخيال والوجدان والعمل والتنفيذ ، تؤثر ولا تتأثر ، تغلب ولا تغلب تعلو ولا يعلى عليها .

اذا تقلدها أحد تقلدها لآخر أيام حياته ، بل لآخر ساعاته وأنفاسه ، اذا قسنا باعتبار الزمان ، وتقلدها فى بيته ،ومنزله وديوانه ومتجره ، وعرشه وتاجه ، ورئاسته وفخامته اذا قسنا باعتبار المكان .

فهى شخصية واحدة متميزة تجدها متحمسة نشيطة فى السوق أو النادي كما تجدها قائمة راكعة فى زاوية من زوايا المسجد ، أو ساجدة خاشعة تحت جناح الليل ، وأنظر ما كان جواب القوم حين سألهم هرقل ، وقد دهش بانتصارات المسلمين المتتابعة عن سيرتهم وأخلاقهم ، فقد قالوا : انهم رهبان بالليل وفرسان بالنهار .

شخصية اختلفت ميادينها وصورها وأشكالها ، واتحدت نيتها ، وحقيقتها وغاياتها وأهدافها ، فالعاطفة التى تحثها على النضال والقتال في أطراف النهار هى نفس العاطفة التىتحثها على الدعاء والمناجاة ، والتضرع والابتهال ، آناء الليل •

والعاطفة التى تحثها على الاعـــداد الصناعى والتنظيم الحربى والاستعانة بالتكنية والعلم هى نفس العـــاطفة التى تحثها على اصلاح ما بينه وبين ربه ، فهى غاية الغايات ، وسر الوجود ، وأصل الحياة •

انها ليست شخصية المعتكف في المسجد ، القانع بمـــا عنده وعند غيره من متاع الـــدين والعلم والتقوى ، الجـــاهل بتيار الحياة وسيلها العنيف وأمواجها الزاخرة الهادرة ، انها شخصية العالم والمجاهد ، والعابد الزاهد ، والبطل والفارس، والحاكم والمسئول ، والقائد والمعلم ، الزاهد فيما عند الناس من متاع ، والحريص على الهداية والتقوى ، فاذا توجـــه الى أسباب التجارة ووسائل الحيـــاة النـــافعة ـ لا الاستقراطية الضارة ـ لم يتوجه اليها الا بدافع الدين ، ومصلحة الاسلام والمسلمين ، كما توجه اليها عدد من أغنياء الصحابة ، فكانوا سبب قوة الاسلام وشوكته •

اننا لا ندعوا الى هجر مرافق الحياة أو ترك استعمالها فلا تزال الحاجة ماسة الى العناية الزائدة ببعض نواحيهـــا الهامة ، ولا نعارض الأخذ بالأسباب ، فنصيبنا فيه ضئيل

حقير لا يفى لحاجات الزمن المتطورة ووسائله المتغيرة ، وانما ندعو الى تكوين شخصية الاسلامية قوية بارزة تتجلى فى دوائر الحكم كما تتجلى فى دور العبادة ، تتجلى فى البرلمان ، كمـــا تتجلى فى المسجد ، وتتجلى فى أوساط التربية وأجهزة الاعلام كما تتجلى فى كلام الواعظين ، وجهاد المصلحين وجهود الدعاة والعاملين ٠

وحينئذ يكون العالم الاسلامى كله كتلة واحـــدة ذات شخصية اسلامية مستقلة ، لا يصـــنع مؤسسة ، ولا يقيم ادارة ، ولا يقف موقفا الا وهو وفى بمبدئه ، حريص عـــلى شخصيته ، محافظ على سماته وملامحه ، متمسك بأهدافه وغاياته ، مسلم فى السلم والحرب ، مسلم فى الغنى والفقر ، مسلم فى الحكم والادارة ، مسلم فى الاعلام والتربية ، مسلم فى الصناعة والعلم ، مسلم فى السياحة والفن ٠

مراجعة الحساب

لا ينقصنا المال فعندنا منه سيول داخل الصحراء ، ولا ينقصنا الدم فعندنا شباب غض الاهاب يكاد يتفجر دما ، ولا ينقصنا السلاح ، فالأسـواق مفتوحة ما دامت الأيدى طويلة والجيوب مليئة، ولا ينقصنا الحضارة والمدنية والثقافة ما دامت أسبابها متوفرة بل فائضة عن حاجتنا .

ولا ينقصنا العروش والتيجان وأنواع الحـكم وألوان الجاه والسلطان .

ولا ينقصنا الفنيون والمهندسون والمدرسون والمبعوثون، والدعاة والمرشدون ، ففى مصر وحدها من تلك الأنواع جنود مجندة تصدر كل عام الى البلاد العربية والافريقية المجاورة .

فما هذا الشيء الذى ينقصنا دائما ؟

انما ينقصنا فقط الشعور بفداحة الخسارة وعظم الكارثة والتألم الحقيقى على ضعف المسلمين فى هذا الحـين ، وقلة حيلتهم وهوانهم على الناس .

فهو العامل الوحيد الذى لا يعوض بشيء ، لا بالمال ولا بالعلم ، ولا بالسلاح ، ولا بالذكاء والدهاء ، ان هذه المؤهلات

العلمية والفنية قد تعوض بعضها البعض ، وقد تسد احداهما فراغ الأخرى لحين من الدهر ، أما اذا لم نشعر بالخسارة مطلقا ولم نتألم لها بتاتا ، أما اذا لم تتوجع قلوبنا على مصيبة العالم الاسلامى كتوجع المرء الذى أهين فى قارعة الطريق ، أما اذا لم تستحى ضمائرنا وأحاسيسنا رغم شماتة الأعداء ، ونكاتهم اللاذعة ، وسخرية الأجانب في الصحف العالمية وهـوان أبنائنا وشبابنا فى العواصم الغربية ، فان هـذا الذهب الفائض في داخل الأرض ، وان هذه الألوان الزاهية البراقة من الحضارة ، وان هذه الأسلحة الحديثة المستوردة من الغرب والشرق ، لا تنفعنا شيئا ، ولو جمعنا بين معونات الكتـل السياسية كلها !

اذا قمت بجولة قصيرة بين العواصم العربية الاسلامية اليوم وتجولت فى أسواقها العامرة ، وشوارعها المزدحمة ، ورأيت صورتها في الليل ، وجدتها كاملة العدة والعتـاد ، كاملة الزينات والمباهج والملذات ، فيها العلم ، فيها الشباب ، وفيها المال ، وفيها الفن ، وعندها المقدسات ، والمشـاعر ، والشعائر ، بل عندها الحرم ، وعندها زمزم ، ولكن ينقصها مع كل هذا الذى ذكرناه ـ ولا مؤاخذة ـ ذلك الشعور المفقود المطلوب بجراحها وآلامهـا ، جراحات القلب والـروح وآلام الوجدان والضمير .

فما هو الحل ، وأين الطريق ؟

الحل أن « نكهرب هذه الطاقات الخامدة ، الجامدة التى لا روح فيها ولا حياة ، ان هذه القوى والطـاقات ، والمواهب والمؤهلات والوسائل والأدوات ، كأسلاك الكهرباء ، فكيف ترى اذا عنينا بالأسلاك ونسينا الكهرباء ·

اننا بوسائلنا الحـاضرة نستطيع أن نحقق ما لم يكن بالحسبان اننا بوسائلنا القصيرة التى نزدريهـا ونستزيدها نستطيع أن نصنع المعجزات ونأتى بمـا يدهش له العقول وتتحير فيه الألباب ، ولكن بالوسائل الحية، الوسائل النابضة المتحركة ، الوسائل « المكهربة » ·

ان مواردنا ووسائلنا كثيرة متوفرة يفيض بها العـالم الاسلامى كله ، فهنا مال ، وهنا أيد عاملة ، وهنـا قرائح ، وهناك علوم ، وهنا عدد ، وهناك ذكاء ، ولكنها مع ذلك لا تؤدى وظيفتها ولا تلعب دورها ، ولا تنفع بلادها وأهلها ، وقد يبدو للرائى أن سببه التفرقة والانقسـام ، والوحـدة تستطيع ـ اذا تحققت ـ أن تحل هذه المشكلة !

وذلك خطأ كبير ، أضلنا أعواما طوالا فى متاهة الحيرة والفوضى الفكرية ·

فالوحدة هى أيضا لا تتحقق ، ولا تخرج الى حيز الوجود من غير هذا الكهرباء ، من غير هذا العامل الأساسى الوحيـد

الذى ذكرنا ، وهو الشعور بفداحة الخطب ، ووخز الضمير ، وتألم القلب :

والوحدة التى تقوم على أسس صناعية أو خيالية أو على أغراض سياسية ، ولا يكون وراءها رصيد من تلك الطاقة المكهربة أو الطاقة المولدة لن تدوم طويلا وتذهب حيث ذهبت الوحدات السابقة ، لأنها وحدات ساقطة أو وحدات ميتة ، أو وحدات عرجاء أو وحدات ذات أرجل خشبية لا تستطيع أن تقوم ، واذا قامت حينا ، فلن تستطيع أن تدوم .

فانشروا هذا الشعور بالألم فى بلادكم كما تنشرون فيها العلم ، ولقنوا أولادكم هذا القلق والتوجع ، والوعى بالمصيبة العامة والخسارة الكبرى ، كما تلقنونهم مبادىء الدراسة الأولية فى الروضة والثانوية .

لا ترفهوا عنهم بالبرامج الراقصة المضحكة ، المسلية السارة ، بل دعوا قلوبهم يعتصرها الألم ، ويخزها الضمير الجريح ، لقنوهم أنهم أصيبوا فى دينهم ، وشرفهم ، وشبابهم، ورجولتهم ، وعليهم أن يغسلوا عن جيلهم هذا العار ، ويعدوا نفوسهم الأبية للثأر ، والانتصار !

ازرعوا هذه الحبوب الكريمة ، حبوب الغيرة والحياء فى ترابكم ، واعكفوا على سقيها وريها ، كما تعكفون على حدائق النخيل والأعناب ، واحفظوا غراسها من كل طارىء ودخيل

وغاصب وناهب ، حتى يستوى على سوقه ، يعجب به الزراع ليغيظ بهم الكفار !

ان الأفلام ، والصور . والغراميات ، والأغنيات ، سموم تحرق هذه الرياض والبراعم والزهـور ، ولفحـات نارية ستأكلها وتأتى عليها ، وتحيط كل ما صنعناه بعرق الجبين وكد اليمين فى لمحات وساعات ، قولوا لهم أن يصبروا عن بعض متعتهم ـ رغم قدرتهم عليها ـ لحين من الزمن ليجنوا ثماره الحلوة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، زمنا طـويلا وعمرا مديدا ٠

دعوهم يتألموا من غير نياحة أو بكاء ، ومن غـير يأس وتواكل ، دعوهم يذوقوا مرارة الخسارة ، ويطلعوا على عمقها ومساحتها ليعرفوا عظم المسئولية ، ودقة الموقف ، وخطورة الأوضاع ، ويطلعوا على ما هم مقبلون عليه من ثغرات وفجوات يملأونها وفساد شامل كبير يصلحونه ، وزجاج منكسر يلمون شعثه ، وعصبيات جاهلية يقضون عليهـا ، ووحمات عـار يغسلونها ، ووجه شاحب كئيب للمسلمين يبيضونه ، ومجد سليب للاسلام يستردونه ٠

ان مثل هذه المسئولية لا يمكن أداؤها بالعيشة التى يعيشها أبناؤنا فى عواصم العالم الاسلامى ، ومعاقل العالم العربى ٠

ان هذا لا يمكـن بتزيين الشـهوات أمامهم بمختلف صورها وأساليبها ، وأقسامها وفنونها ٠

انها لا يمكن باللهو البرىء واللهو المباح ، فكيف باللهو الحرام ؟

انها لا يمكن مع الدعابة والفكاهة والهزل ، وحـــوار المخرجين الفكاهيين الكوميديين ، فكيف يمكن مع خلع العذار والخروج على آداب الحشمة والوقار ؟

فالجد لا يقتضى الا الجد ، وما رأيك فى رجل يداعب أهله أو يشتغل بالشعر والأدب ، ويحكى الملح والنوادر ، وهو فى غمار الحرب ، أو على رأسه سوط الجلاد ، لا بل انه لا يشتغل بمثل هذه الأمور ، اذا تألم أو توجع على شىء خيالى قد لا يعود عليه بضرر أو نفع ، تلك هى سنة الحياة وطبيعة الأحياء .

فلنقف عندها ، ولنراجع حساباتنا ، ولنكشف أوراقنا حتى نعلم ما صنعناه أمس بجيلنا ، وبلادنا ، وأمتنا ، وديننا ، وتاريخنا ، وما نحن به غدا فاعلون ؟

الدرس الأول
من حرب رمضان

الفارق بين حرب حزيران وحرب رمضان كبير !

انه فارق بارز تراه بالعيان بل تكاد تلمسه بالبنان ، انه لا يخفى على الحاقد الأعمى فضلا عن البصير الواعي ٠

هذا الفارق يتخلص فى ثلاثة جوانب :

١ ـ تصحيح الشعارات والأهداف أو تصحيح المسيرة ٠

٢ ـ الروح المعنوية العالية فى الشعب والقوات المسلحة ٠

٣ ـ لذة الثأر والحرص على غسل العار ٠

ولنقارن ـ مليا بين معركتين حتى نتوصل الى نتائج صحيحة بعيدة عن الخطأ والانحراف ٠

كانت الشعارات فى حرب حزيران « شعارات جاهلية » اذا توخينا الايجاز ، أو « فرعونية » اذا وضعنا النقط على الحروف ووضعنا أصابعنا وبصماتنا على موضع التهمة ونقطة الداء ٠

والقصة معلومة لا تحتاج الى اعادة وتكرار ، وقد بدأ حتى بعض الكتاب الثوريين والتقدميين والاشتراكيين يعترفون بذلك بمرأى من العالم ومسمع ٠

أما فى الحرب الأخيرة فقد تغيرت تلك الشعارات والأهداف والهتافات الى حد كبير ، أو تخففت حدتها ، وزالت هيبتها وسلطانها من نفوس الشباب والزعماء والقادة ، والعمال والفلاحين ، وقل استعمال المصطلحات الثورية ، بل هجرها بعض الكتاب واشمأزوا منها ، وحلت الذخيرة الحية محل ذخيرة الكلام ، وغلبت الرزانة ، والتفكير ، والايجابية على الارتجالية ، والتهور ، والطيش ، الذى اتسم به العهد البائد المظلم ٠

وكان الفرق بارزا هائلا فى الروح المعنوية ٠

فبينما كان الجندى يحارب فى حزيران بروح باردة من غير عاطفة أو حماس ، وكانت القيادة الحربية غارقة الى آذانها فى اللهو والترف ، ومناورات العزل والنصب ، والقتل والاعدام ، أو نائمة تغط فى نوم عميق لم تدرك أمرها ، ولم تتبين رشدها الا فى « ضحى الغد »(١) حين سطعت الشمس على خيانة سافرة ، وأمة مهزولة ، ورؤوس منكسة ، وعيون تستحى من مواجهة أجنبى وضحكة فى وجه مائة مليون عربى

---

(١) قالها دريد بن الصمة :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

تقابل دولة صغير مساحتها أقل من مساحة مصر بنسبة واحد في الأربعين(١) وعدد سكانها أقل من سكان القاهرة ، أما في جهاد رمضان فقد أثبت الجندى العربى والجندى المصرى والسورى بوجه أخص بطولته الفذة وتجرده عن الهيبة والرعب ، وصموده أمام العدو ، وثقته بالله ، وحنينه الى النصر ، أو الى الشهادة ، قد غمرت قلبه لذة الثأر ، ودفعته روح الانتقام الى بذل المهج والأرواح ، وكانت النتيجة أنه استرد شرفه المفقود ، وكرامته الضائعة ، ولو لم يسترد أراضيه المغصوبة وحقوقه المهضومة كاملة ٠

والسؤال الضخم البارز الذى يحمل ألف استفهام :

لماذا وقف هذا الانتصار الرائع الذى أحرزته القوات العربية المؤمنة فى « سيناء » و « الجولان » عند هذا الحد ، وكيف تدخلت فيه أبعاد أخرى عكرت نشوة الانتصار بعد ما طابت ولذت ، وأفسدت ساعة النصر بعد ما حلت وصفت ، والجواب بسيط :

« على قدر أهل العزم تأتى العزائم » ٠

ان هذا النصر العسكرى جاء بحساب المد الايمانى ، ان الرواسب التى ورثناها من زعمائنا « الذين أغرقونا فى

---

(١) مساحة اسرائيل نحو ثمانية آلاف ميل مربع ، أما مساحة مصر فهى أكثر من ثلث مليون ميل مربع ٠

الخزى ظلما وعـدوانا »(١) رواسب القوميـــة العلمانيـــة والاشتراكية والثورية هى التى أفسدت علينا هذا الفتح المبين والنصر الرائع القريب ، اننا لم نتطهر بعد (رغم كل ما نادينا به من تصحيح المسيرة ، والمتغيرات النفسية ، والحوار المفتوح) من علائق هذا « التراث المشئوم » ـ ولا مؤاخذة ـ وشوائبه وأكداره وأقذاره ، اننا حررنا أنفسنا من بعض ضغوطه أو سمومه ولا شك ، ولكن لم نحرر نفوسنا كليا من سيطرته ، ونفوذه ، وفتنته ٠

وصوت القرآن يهتف بنا منذ زمان :

« يا أيها الذين آمنوا أدخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين »(٢) ٠

ان وحدة العرب الرائعة التى كسبت اعجاب العـــالم كله فى هذ الوقت العصيب ، وسلاح البترول الذى كان أقوى وأمضى أكثر من المأمول (وقد كان للدول المصدرة للبترول والسعودية بوجه خاص فى هذا المضمار موقف شجاع حكيم يشكر ويذكر) حقائق مكشوفة قد تراها رأى العين ، وقد تنوه بها عن حق ، ولكن هناك ـ رغم كل ذلك ـ حقيقة غيبية أخرى فوق سائر هذه الحقائق والاعتبارات ، والقوى والطاقات وتقلبات الهزيمة والنصر ، والمد والجزر ، وتقديرات الخبراء

---

(١) من تعبير أنيس منصور فى جريدة « الشباب العربى » بالقاهرة ٠

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٠٨ ٠

والعسكريين ، ودسائس المتـــآمرين الحـــاقدين ، وصلف المتكبرين والمغرورين •

انها ارداة الله ، وهي مع المؤمنين الصادقين الصابرين الذين آمنوا بالله وحده ، وكفروا بالجاهلية القديمة والحديثة بجميع أنواعها ، وألوانها ، وضروبها ، توكلوا على الله فقطعوا رجاءهم عن أعداء الله رغم ما تربطهم بهم من صلات وحاجات ومصالح ، (والدنيـــا كلها حاجة وسؤال وعليها أســـاس العمران) •

ونحن نرجو أن هذا النصر ستليه ـ ان شـــاء الله ـ انتصارات أخرى في سائر المجالات العسكرية والاقتصادية اذا استقمنا على طريقة الايمان ، والرجوع الى الله ، والاقلاع عن المعاصي ، والبراءة من كل حول وطول ، والابتعاد عن الشعارات القديمة التي كانت سبب نكبتنا وذلتنا في حزيران عام ١٩٦٧ م •

لقد رجعنا الى الله شبرا ، وأعرضنا عما يسخطه ويجلب غضبه قليلا ، وأقبلنا اليه نستمد منه العون في الشـــدة والضراء وحين البأس ، وحاربنا بغيرة الايمان وعاطفة الايمان، وحب الموت ، وكراهية الحياة، فمنحنا الله ذلك النصر، وأكرمنا بالعزة ورفع درجتنا بالشهادة ورفع ذكرنا في العالم بعد ما أسأنا الى سمعتنا ولوثنا كرامتنا بأيدينا ، وجلبنا سخط الله بأفواهنا ، وبذيء كلامنا ، وغرورنا وتبجحنا وسفاهتنا •

فالدرس الأول من حرب رمضان أن نحـــرر أنفسنا بصورة قاطعة وجملة واحدة من أسباب الخذلان وشعاراته ، وعلائقه وشوائبه ورواسبه ومخلفات فكره ، ونطهر نفوس أبنائنا وبناتنا منها كما يطهر أحدنا ثيـــابه من الوســـخ والدنس .

لماذا هذا الاستحياء ولماذا هذا الاحجام يا قوم والى متى ! ان الله معكم ، والشعب العربى المسلم من ورائكم ، والمسلمون كله جنودكم ، فسيروا على بركة الله وعلى هـــدى من القرآن « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى ســـبيل الله يوف اليـــكم ، وأنتم لا تظلمون »(١) .

نعم ، ان مجرد الايمان السلبى لا يكفى أبدا .

فلابد معه من رفض للأوثان الظاهرة والباطنة ، أوثان الشخصيات والشعارات والضـــلالات ، ولو راقت الأسماء وحسنت الواجهات !

ان الاسلام الخليط مع الجاهلية أو الخليط مع الظلم أو الخليط مع النفاق والشقاق لا يستطيع أن يغير فى الوضع قيد

---

(١) سورة الأنفال . آية ٦١ .

أنملة ، فقد قال الله تبارك وتعالى يصف هذا الطراز الرفيع من المؤمنين ، الذين أخلصوا دينهم لله ، ويضمن لهم الأمن والايمان والسلامة والاسلام .

« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »(١) .

وبعد هذا الاسلام الخالص ، الاسلام الكامل ، الاسلام القوى ، الاسلام النقى ، الاسلام الحى ، الذى يمشى على قدميه، ويدفع براحتيه سوف نحتاج الى « تصنيع » تصنيع كامل عام فى سائر المجالات الحربية ، « الممكنة » وقد يقول قائل : هذا محال ، فالحرب حرب العلم ، والغرب متفوق علينا فى هـــذا المضمار قرونا طويلة ، فكيف نستطيع أن نلاحقه فى سنين وأعوام .

والقرآن قد سهل لنا هذه المهمة الصعبة أيضا بقوله « ما استطعتم « فلم يبق عندنا مجال للعذر ، وموضع للشك والتأويل ، والمكابرة والجدال .

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » الآية .

ان مثلنا فى هذا كمثل طفل صغير بدأ يحبو ، ويحثو

---

(١) سورة الأنعام . آية ٨٢ .

على ركبتيه ، فيحمله الأب أو تحمله الأم على المشى على رجليه وهو غير قادر عليه ، فيحاول الطفل أن يمشي وتتعثر خطاه ، فيدركه الأب ويمسك بيده بل يضمه الى صدره حبا وحنانا ، ويباركه على أنه فاز فى الامتحان ، ومشى كما يمشى الرجال ، فيظن الوالد انه فاز فى الامتحان ، ومشى كما يمشى الرجال ، فيظن الولد أنه بدأ يمشي فعلا ، وهكذا أمر هذه الأمة بالنسبة الى ربها ، فلا يكلف الله نفسا الا وسعها ، انه يريد منها فقط أن لا تقصر في الواجب ، ولا تتهاون فى العمل ، ولا تدخر وسعا فيما قدرت عليه ، نعم ، انها لا تستطيع الآن أن تصنع المعدات الحربية المعقدة والألكترونية ولكن من منعهـــا من أن تصنع البندقية ، والقنبلة ، والمدفع ، والطائرة ، والدبابة ، وهى ليست فى تلك الدرجة من التعقيد ، انما هى تحتاج الى وضع خطة حكيمة مدروسة وسهر وصبر لمدة أيام عن بعض ما لذ وطاب من الطعام والشراب ، أو فى تعبير آخر ، هـــذا المستوى الرفيع من الحياة ، وأعتقد أن ذلك ليس فوق طاقة بشر ، ولا يخرج عن حدود الامكان ، بل ان الأمة المسلمة مكلفة بها أصلا وراسا وأساسا ، فلا تستطيع أن تتهرب من هـــذه المسئولية والايثار والتضحية و« الصناعة الحربية » بأى حال من الأحوال(١) .

---

(١) عن على رضى الله عنه قال : كانت بيدرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوس عربية ، فرأى رجلا بيده قوس فارسية ، قال : ما هذه ، القها ، وعليكم بهذه وأشباهها ، ورماح القنا فانها يؤيد الله لكم بها فى

ان أبطالنا المغاوير وصناديدنا المشـــاهير فى تاريـــخ الاسلام ، حاربوا أعداءا كانوا أكثر منهم جمعا وسلاحا ، وعدة وعتادا ، فانتصروا ، لماذا ؟

الدين ، ويمكن لكم فى البلاد •

(رواه ابن ماجة)

انظر كيف فضل الرسول – صلى الله عليه وسلم – سلاحا من صنع الأيدى العربية على أيدى العدو مع العلم بأن الفرس كانوا متقـــدمين فى الصناعة الحربية واشارته بأن الله ينصركم بما تصنعون بأيديكم من آلات الجهاد ومعداته وينزل عليها بركته ، وان تضاءلت بجانب ســلاح العــدو ومعداته ، لأنكم تنتصرون بعون الله وقوته ، لا بقوتكم وقوة أعدادكم •

وعن عقبة بن عامر – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : ان الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفـــر الجنة : صانعة يحتسب فى صنعته الخـــير ، والرامى به ، ومنبله ، وارموا واركبوا ، وان ترموا أحب الى من تركبوا ، كل شىء يلهو به الرجل باطل الا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته امرأته ، فانهن من الحق •

(رواه الترمذى ، وابن ماجة)

وعنه قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو باسهمه •

رواه مسلم (مشكاة المصابيح كتاب الجهاد « باب اعداد الآلة) •

وعنه قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، الا ان القوة الرمى ، الا ان القوة الرمى ، الا ان القوة الرمى (رواه مسلم) وقد فسرها الزمخشرى بكل ما يتقوى به فى الحرب وقال البيضاوى : لعله انما خصه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالرمى لأنه أقواه ، وتأمل فى هذا المعنى من توسع ، وما فيه من شبه بين سهم أو صاروخ فى ضرب الأهداف بسرعة فائقة ودقة متناهية مع العلم بأن الصاروخ أقوى ما وصل اليه التقدم العلمى فى مجال الصناعة الحربية !!

لأنهم حققوا أمر الله ولم يدخروا وسعا فى العدة للحرب فى حدود امكانياتهم ، ان امكانيات العالم الاسلامى اليوم واسعة ضخمة ، فهو يستطيع أن يحقق بها الكثير ، بل يجب عليه أن يأخذ بأسباب القوة أكثر مما أخذوا ، ويصنع أكثر مما صنعوا ، بحكم وسائله وامكانياته ، أما النصر فهو من عند الله « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم »(١) « سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، ومأواهم النار ، وبئس مثوى الظالمين »(٢) •

أما اذا أرقنا الدماء بسخاء وضربنا أروع الأمثلة فى البطولة والفداء ، وما أخذنا للحرب أهبتها ، ولم نصنع « ما نستطيع أن نصنعه من آليات الحرب ومعداتها ،فمعنى ذلك أننا ـ رغم كل بطولة وتضحية ـ ما استوفينا شروط النصر •

ان بلادا شرقية تحررت منذ ربع قرن من الزمان ووصلت الى مستوى الاكتفاء الذاتى فى بعض الصناعات الثقيلة والمعدات الحربية الهامة ، وقد استفادت منها فعلا فى معاركها، فعلينا أن ننفق هذه السيول المتدفقة الفائضة فى جوف

---

(١) سورة آل عمران •

(٢) سورة آل عمران •

الصحراء(١) • والطــاقات البشرية والمؤهلات الانسانية فى عواصمنا الكبرى وحقولنا الخضراء فى هذا المجال الحيوى الحساس ، ونصنع مشروعا دقيقا لصناعة القاذفات والمدرعات والمعدات الاخرى ، وأعتقدأنذلك ميسر ، ان شاء الله في زمن غير بعيد ، اذا أخذنا الأمر بطــابع الجدية والعمل الصــامت الدؤوب •

ان التضحية التى قدمها الجندى العربى فى هذه الجولة كبيرة وبسالته في الحرب عظيمة تستحق كل تحية وتقدير ، واكبار واجلال ، وان التناسق الفنى الذى ظهر فى العمليات الحربية يبعث على التفــاؤل ، وان دور النفط فى الصفوف الخلفية كان رائعا كبسالة الجندى فى الصفوف الاماميةفياليت

---

(١) نشرت صحيفة « الأوبزرفر » اللندنية بقلم متخصص فى الشئون النفطية فى عددها الصادر فى ٤ تشرين الثاني مقالا خطيرا جاء فيه « أقــل التقديرات تدل على أنه سيكون لــدى العرب عام ١٩٨٠ ضعف الــذهب واحتياطات أرصدة العملة الأجنبية التى تمتلكها الولايات المتحدة ، وهذا التقدير البسيط ، يدل على أن زيادة الفائض العربى سيساوى ربع مجموع الاستثمارات العالمية كلها ، كيف سيوزع هذا الفائض العربى فى أوربا أو أمريكا أو دول أخرى ، وكيف سيستعمل العرب القدرة المالية المتاحة لهم ، هو الأمر الذى يشغل بال أوربا ، ويجعلها فى تنافس مع الولايات المتحدة •

ترى اليس عندنا مجال لاستثمار هذا الفائض العربى والقدرة المالية الهائلة ؟؟

أضفنا الى ذلك كله جانب « التصنيع» الذى لابقاء لأمة بدونه (١) .

وأن تكون الى جانب حقنا فى الأمن والحياة وتلهفنا الى الجهاد والنضال ، والى جانب ايماننا وعقيدتنا ، ودعوتنا وتراثنا ، وقيمنا وأقدارنا ، قوة حربية ضاربة فى حدود امكانياتنا وطاقاتنا ، ووسائلنا ومواردنا ، وهى بالطبع واسعة كبيرة ، وهنالك يتغير لنا الموقف ، ويتم لنا النصر ، ونستغنى عن العدو ، ونتحرر عن ضغوط الكتل السياسية ونفوذها ومصالح الدول الكبرى ومؤامراتها « ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله » وهنالك يأتى نصر السماء يكمل ما نقص فينا من عدة وعتاد ، ومافاتنا من آلات ومعدات ، ومالم نستطع انجازه

---

(١) كتب صحفى عربى الأستاذ عبد الله الجابرى يصف دور البترول فى هذه المعركة : « كان سلاح البترول هو الذى حال بيننا وبين الهزيمة ، وكان هذا السلاح هو الذى حمل « كيسنجر » الى الرياض والقاهرة .. وغدا عندما نصبح أكثر قوة وعندما يتحول بترولنا الى مصانع ومزارع ومعاهد للأبحاث ، ومراكز للدراسات ، ستقتضى المصلحة الأمريكية بأن تنال كل حقوقنا . ويتنافس الأمريكيون والصينيون واليابانيون والأوربيون على استقطابنا كشركاء وليس كعملاء ، فى هذه المرحلة لن تكون سيادتنا على أرضنا محل شك ، ولن نطلب ضمانات أمريكية أو سوفيتية بعدم المساس لهذه السيادة كما فعل امبراطور اليابان عام ١٩٤٥ ، فى هذه المرحلة سيعترف بنا كأمة ذات سيادة ، ويطلب منا الاسهام بدور فعال فى حمل عبء القيادة العالمية » .

لضيق الوقت أو لضيق المورد ، أو لضآلة المعونة الخارجية ، والمساعدة الفنية ولكن الله قادر على جعل الضعف قـــوة والذل عزة ، والهزيمة نصرا وتمكينا وفتحا مبينا ، كما فعل بأجدادنا الأولين وأبطالنا الغر الميامين من الصحابة والتابعين الى محمد الفاتح وصلاح ا لدين « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »(١) ·

---

(١) سورة الروم ·

من وحى الزمان والمكان

المكان : بيت الله الحرام ، ومسجد النبى عليه وعلى آله وأصحابه الصلاة والسلام !

والزمان : زمن التشريق ، والتهليل والتحميد والتكبير « ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » .

فليكن حديث اليوم حديث المجالس والمحافل ، والنوادى والمجامع ، وليكن ذلك الشغل الحلو الجميل ، الشغل الشاغل للمسلمين أجمعين ، لأنه حديث الحبيب والقريب ، حديث الحب ، والوفاء ، والصدق والولاء ، حديث يشحن القلوب الفارغة ببطارية الايمان ، ويشعل المجامر الخامدة الباردة بشعلة الحب والحنان ، ويزكى مشاعل النور للمتخبطين فى ظلام المذاهب والشعارات ، والعصبيات والجاهليات ، مهما حسنت أسماؤها وراقت ألقابها ، وتنوعت مظاهرها وأشكالها .

فهذى الليالى كلها أخوات

« ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم »

ولئن رضى الجاحدون، والمنكرون، أو المفتخرون بلقيمات

لفظتها موائد الغرب فان الله لا يرضى لعباده الكفر ، انـــه لا يرضى بأن يرى حملة دينه ، والأمناء على رسالته يتطفلون على فتات الطعام ويقفون كالأيتام على مأدبة اللئام !

ويتكرر الحج كل عام ليجدد ما طرأ على المسلم من بلى ، ويصلح ما أصابه من زيغ ، وما اعتراه من خلل ، وما لحقه من نقصان ، وما لصقه من عار ، وما جف فيه من منابع الايمان واليقين .

انه يقف بنا كل عام أمام بيت الله العتيق ، وفى عتبات الحرم وفسحات المشاعر ، لنتذكر ما ينساه العبد المذنب ، القاصر ، العاثر ، المكدود ، فى زحمة الحوادث والاشغال ، وخضم المحيط الهادر من أضواء الحياة وضوضاءها ، وضجيج الحياة وعويلها ، ولمعان المادة وبريقها ، لتنكشف الغشـــاوة عن بصره ، ولتتبين معالمه ومقاصده ومراميه البعيدة فى ذلك الجو المكفهر الملبد بالغيوم ، فيعرفها حق المعرفة ، ويثق بهـا كل الثقة ، ثم يعود منها، ـ وقد قضى مناسكه وأوفى نذوره ـ بايمان جديد قوى غالب لا يعرف الهزيمة والانكسار ، ويواجه الحقائق المرة و التحديات السافرة ليقضى عليها ويرد كيدها الى نحرها ، لا ليحنى لها هامتها استصغارا لنفسه ، أو يأسا من روح الله ونصره ، «فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

ان الحج لا يحارب تلك الرذائل التى تلاصقت بالنفس

البشرية رذيلة رذيلة ولا يجهد نفسه في القضاء على علاقتها منفصلة ، بل يقضي عليها ــ اذا صحت نية المؤمن وسلمت طويته ــ جملة واحدة ، انه يكتسح سائر الاحراش والنباتات السامة في النفس البشرية كسيل جارف قوى لا يمنعه شيء ، ثم يجعلها صالحة للغرس ، والري والنمو ، والازدهار .

ان الانسان الذى يخمد ، ويتوانى ، ويتقاعس عن العمل لأجل بيئته الفاسدة ، وشرورها ، أو ينحرف عن طريقةالسوى بشعارات ضالة تأخذ بلبه ، أو يتبع هواه لترفه وتنعمه
بشعارات ضالة تأخذ بلبه ، أو يتبع هواه لترفه وتنعمه يجد في هذا المكان ما يجدد نشاطه ويقوى همته ، ويصحح مسيرته ويقضي على طغيانه وغفلته، ويذكر أن عباد الله ليسوا بالمتنعمين، بل انهم من المجاهدين الصابرين ، الصامدين ، والحج بما فيه من وقوف وقيام ، وغرام وهيام ، وتنقلات متتابعة ، ورحلات مضينة وتمثيل لنوادر التضحية والبطولة والفداء ، واستجابة لهاتف الغيب ، وتلبية لرب البيت ، وخضوع للامر ، لا يدع له فرصة للراحة والاستجمام ، والقيام في غيرمقام ، شأن المحب المتيم الذى كابد الهجر والفراق ،وبرح به الشوق ، وكاد الحب يأخذ بلبلة ويتركه يهيم على وجهه ، دواؤه أن يلمح حبيبه ولو من بعيد ، ويسمع حديثه ولو من وراء حجاب ، ويسمح له بالاطراح على عتبته والابتهال على بابه ، والنياحة على نفسه والتلويح بلوعة قلبه وكبده ولو لساعات وأيام من جملة العام .

ان المسلم اليوم لم يفقد العلم ، ولم يفقد المال ، ولم يفقد

القيادة ولم يفقد النظام ـ رغم أهمية كل من هذه النواحي ـ بمثل ما فقد القلب الولوع الحنون ، القلب المشرق العامر بالايمان ، القلب النابض الحي ، القلب الذى يتحرق على خسارة الروح والضمير أكثر مما يتحرق على خسارة التصدير والتوريد ٠

ان هذه المناسك التي يؤديها المؤمن فى الحج ، والوقفات التي يقفها فى حرمة وفى مشاعره ليست أشكالا وطقوسا مجردة من كل روح ، خالية عن كل معنى ، انها بطبيعتهاتبعث المؤمن بعثا جديدا ، وتمنحه قسطا جديدا من الحياة ، وتنقذه من أوزار المجتمع المادى الضيق المرسوم الذى عاش فيه زمنا طويلا ، فألفه ولم يرض عنه بديلا ، كالحشرات التى تألف الآجام والأحراش والأوحال والجداول والأنهار فلا تريد أن تخرج من عالمها الصغير المألوف ، فاذا بالحج يحطم سائر هذه الأغلال والأثقال ، ويهدم سائر الحدود والسدود والقيود ، واذا هو يقف به ـ من غير درس طويل وتربية طويلة ـ فى عالم جديد يختلف عن عالمه القديم الشاحب الكئيب كل الاختلاف كما يختلف عالم الجنين الصغير عن هذا العالم المادى الكبير ٠

ان البيت العتيق هو ـ فى الواقع ـ محور المسلم الذى تدور حوله رحى الحياة « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا» فلهم أن يسيحوا فى الأرض ، ويبتغوا من فضل الله ولهم أن

يشتغلوا بما طاب لهم من أشغال ووظائف وأعمال وخـدمات ونشاطات وجهود فى الحدود التى رسمها الاسـلام ، ولكن عليهم أن يلجأوا أخيرا و فى نهاية الشوط الى هذا البيت ، كالطفل الصغير الشريد الذى يرتمى الى أحضان أمه وكنف أبيه أو كالعبد الآبق على عتبة سيده ضارعا الى رب البيـت، نائحا تمرده وعصيانه ، وجحوده وكفرانه ، وغفلتـه ونسيانه ٠

ان التحديات السافرة التى يواجهها المسلمون فى هـذه الأيام تتطلب أن يجددوا صلتهم بالبيت ، لا على صورةتقاليد جامدة ، وأشكال فارغة ومظاهر جوفاء بل على صورة مصدر حياة ، ومنبع قوة ، ومعين لا ينضب من تجديد الصلة بالله والرجوع اليه فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء ٠

ان جميع النشاطات التى نزاولها ، والجهود التى نبذلها، والمؤسسات التى نقيمها ، والنباتات التى نشيدها ، والجمعيات التى نؤسسها ، والمخططات التى نصممها ، خطيرة وهامـة ، ونافعة ومباركة ، لا ينكر فضلها ، ولا يستهان بقيمتها مادامت متصلة ببيت الله الحرام ، ما دامت ترى فيه بقاء حياتهـا ، وايمانها ونجاتها ، وما دامت تقوم أساليبها ومناهجها عـلى هدية ونوره وما دامت تعظم شعائر الله « ومن يعظم شعائـر الله فانها من تقوى القلوب » ٠

أما اذا غرتنا مظاهر الحياة الخلابة التى تولدت مـن استعمال الآلة والأداة ، أما اذا بهرت أبصارنا تقلب الذيـن

كفروا فى البلاد ، وبدأنا نطمع فيما آتاهم الله من زخارف ومباهج وملذات ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ٠

أما اذا استصغرنا شأن البيت العتيق – لا سمح الله – وازدريناه ، وفضلنا عليه ما أحدثناه من طوابق وشقق وفنادق فاخرة ، مجهزة ، مزودة بأحدث التسهيلات ، ووسائل الترف والنعيم ٠ أما اذا احتقرنا رسالة الحج مقابل نظريات باطلة، وأفكار سامة ، وآداب فاسقة ، وحياة ماجنة جاءت الينا من الغرب ، أما اذا أصبحنا نحاكي موضاتهم وتقاليدهم وآدابهم، وسخافاتهم ونتساقط عليها كما يتساقط الجائع والمحروم على المائدة ، فمعنى هذا أن صلتنا بهذا البيت العتيق قد ضعفت ، وأننا بحاجة قبل كل شيء الى أن نجددها ، ونغذيها، ونحدب عليها ، ونحرسها من كل سوء ، ونتخذ لذلك ما يلزم من تدابير حكيمة ، واجراءات حازمة ومعالجة دقيقة للقضايا ، ومراعاة لائقة بالطبائع والحاجات ، والأذواق والمعارف ٠

فذلك وحده هو الطريق الامن المضمون الى المستقبل الزاهر السعيد الذى أصبح حلما لدى الشباب المسلم منذ زمن بعيد ، فهل يتحقق هذا الحلم وهل تكون حجتنا هذا العام افتتاح عهد جديد ، ونواة انقلاب فى التفكير والميول ، والرغبات ، والاشواق ! وهل نحن مستعدون لتصحيح مسيرتنا من الفوضى الى الانسجام ، ومن التخبط فى الظلام الى نور الايمان وعدل الاسلام ؟

حسن البنا فى محراب التاريخ الاسلامى

هذا الاسم الذى دوى فى بلاد العجم وعواصمها ، كمادوى فى القاهرة الزاهرة ودمشق الفيحاء ، واعترف بلمعانـــه الأصدقاء والأعداء على السواء . هذا الاسم الذى كسب حامله ود الشبان والشيوخ والرجال والنساء فى العالم الاسلامى كله من غير استثناء .. هذا الاسم الحبيب لا يزال غرة فـــى جبين التاريخ الحديث .

أجل - أيها الامام الشهيد - قر عينا فى رحاب الخلود فان وراءك جيلا جديدا انشأته على الحب فى الله والبغض فى اللـــه .

جيلا مؤمنا مسلما لا يقف فى أعتاب الرؤساء والوزراء ولائم الملوك والأمراء و لا يبالى بسخط حاكم أو سلطان فى شرع ودين وقضية من قضايا الاسلام والمسلمين ، ولا يخاف فى الله لومة لائم .

«انه فى الصلح والسلم غزال الحمى وفى الحرب والنضال أسد الشرى » .

وهذا الجيل الجديد المثقف الواعى ، القوى الأمين ، الأغر

الأبلج ليس الا مأثرة من مآثرك ، وثمرة من ثمرات جهادك ، ونتيجة من نتائج حبك واخلاصك ·

ونحن نقدمه ـ فى هذه اللحظة الخالدة ـ الى روحـــك الطاهرة التي ترفرف بأجنحتها الشفافة فى عليين فطب عيشا ونم هادئا مطمئنا فان زرعك قد أينع وأثمر رغم الظلم والظلام·

انه قد طال الليل واقترب الفجر وها هى تباشيره قد بدت فى الافق ، ولو أنكر المنكرون ·

انها ضريبة الحب ندفعها اليك ـ أيها الامام الشهيد ـ من وراء البحار راضين مسرورين ، فقد ملأ تالقلوب ايمانا وعرفانا ، وملأت الحركة الاسلامية حيوية ونشاطا وحولت جسمها البارد قلبا ثائرا ، ودما فائرا ، انك أيقظت النائمين ، ونبهت الغافلين والحالمين ، وجعلت من أمة هامدة خامـــدة أمة كلها حركة ونشاط وعمل وجهاد ، فاذا العالم يرى دعوة محدودة تنبعث من الاسماعيلية ـ تلك النقطة الحساسة المباركة فى أرض النيل ـ ثم لا تلبث أن تعطى أشعتها العالم العربى كله والعالم الاسلامى بأسره ·

وذلك كله يعود الى شىء وحيد ·

وهو اتصالك بالله ، وروحك المشرقة ، وقلبك العـــامر الكبير ، وتجاربك الواسعة فى مجال الدعوة ، وصلتك الشخصية بالجماهير ، وجمعك بين الدنيا والدين وبين الشدة واللين ·

ان سر نجاح الامام الشهيد فى مجال الدعوة هو السرالذى كشفه القرآن الكريم حين صور جانبا عظيما من حياة النبى صلى الله عليه وسلم فقال « لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » .

وما أحوجنا اليوم الى هذه الناحية الهامة ، ما أحوجنا اليوم الى الحلم والصفح ، والفغران ، والحب ، والعرفان بالجميل ، والأخوة الندية العذبة ، و أيم الله انها الناحية الوحيدة التى فقدناها وفقدنا معها الخير كله والبركة كلها .

كان العدو اللدود والخصم العنيد يأتى حسن البنا لا يريد به الا الشر ، ولا يضمر له الا الكيد ، ثم يعود محبا مأخوذا بجمال ايمانه ونور وجهه وحسن سريرته .

ولا أبالغ اذا قلت : ان مصر لم تجتمع على رجل مثل ما اجتمعت على حسن البنا ، ولم تحب أحدا مثل ما أحبت حسن البنا ، ولم يدم حبها لأحد مثل ما دام له ، وكان حبها له طواعيا لا دعائيا ، وتلقائيا لا صناعيا ، حب ينبع من قراره النفس ، ولا يفرض عليها من الخارج ، حب تباركه الملائكة ولا تمسه الشياطين ، وتوحيه نوازع الخير لا نوازع الشر .

هذا الحب السماوى العلوى ، الشفاف ، الطاهر ، العذب الندى كان نصيب حسن البنا منذ نعومة أظفاره ، وياله من نصيب !

والسمة الثانية التى امتاز بها الامام هو جمعه بين جوانب مختلفة من الوعي والثقافة كأنه التقت فيه شخصيات مختلفة تمثل وجهات مختلفة وذلك كله فى اطار عام واحد ، اطار الدعوة والجهاد والاخلاص فى القول والعمل ، فكان متضلعا بالروح الدينية عارفا بروح العصر ، خبيرا بمتطلبات الجيل وفراغ النشء الجديد ، واخفاق الحضارة المعاصرة ،وكان عالما راسخ العلم مرشدا روحيا للاخوان يطلع على مكائدالنفس ومزالقها ، خطيبا ساحرا يأخذ بمجامع القلوب ويملك عنان الكلام ، مجاهدا يبذل جهده ووقته وماله ونفسه فى سبيل الله ، مصلحا اجتماعيا يعرف الامراض النفسية والادواء الخلقية والمشكلات الاجتماعية ، سياسيا محنكا لا يساوم على مبدأ ، ولا يؤخذ على غرة ، ويثبت تفوقه على الاقران فى هذا الميدان ، كاتبا بليغا سهل اللفظ ، غزير المعنى ، حسن الديباجة لا يتكلف فيه ولا يتنمق ، وكان أبا وأخا وصديقا فى وقت واحد ، يجد عنده كل حائر شارد اللب حل مشكلته و بلسم جرحه ، وراحة فؤاده ، كأنه أنشط من عقال أو فك من اسار ، اسار الشهوة ، أو اسار الشبهة والوسوسة ·

ان داعية وأماما هذا شأنه لابد له أن يقود أمة ، ويبنى مجدا ، ويصنع تاريخا ، ويبتكر أسلوبا جديدا للدعوة يجمع بين الروحية الغيبية الصافية ، والعقل المؤمن النير ، والنموذج العملى الاخاذ ، والسيرة العطرة المنعشة ·

وهكذا كان ، فقد هيأ الرجل بالتوفيق الالهى الذى حالفه

فى كل وقت وبجهوده المتواصلة ، ورحلاته المتوالية وأعماله الشاقة فى حقل الدعوة واشرافه الشخصى على مكاتب الاخوان وفروعهم ، والاتصال العائلى الوثيق بمشكلاتهم الاقتصادية والروحية معا ، جيلا عرف بنظره العف ويده النظيفة وقلبه السليم ، وثباته على جادة الحق ، وسمعه وطاعته للمرشد .

لقد بنى أمة فأحسن البناء

والسمة الثالثة : اتصاله برجال تأثر بهم واستقى من معينهم الصافى ، وقد قيد فى مذكراته ـ كما هو المعلوم ـ أسماء هؤلاء الرجال وذكر اتصاله العميق بهم وأثنى عليهم اذ وجد عند القوم حلاوة الايمان عندما تدخل بشاشة القلوب، ذلك الاتصال الذى يمنع الانسان من السقوط فى الهاوية ، ويحفظ من فتن الليل والنهار ، ومن وساوس الصدر ،وشتات الأمر ، ومن شياطين الجن والانس ، ومن ظاهر الحياة الدنيا وزينتها ، ويثبت قدميه عند التهديد والاغراء ، وفى مواقف السلطان والجاه ، وفي السراء والضراء وحين البأس.

هذا السياج المنيع من الاتصال الشخصى ـ برجال قويت صلتهم بالله ، وخلت قلوبهم من حب الدنيا ، ووصلوا الى مراتب القبول واليقين ، وكأنهم رأوا الآخرة رأى العين ـ حفظ حسن البنا الولد والشباب والخطيب والكاتب والمصلح الاجتماعى والسياسى ومؤسس الجماعة ورائد الدعوة من أخطاء جوهرية يقع فيها بعض كبار الأذكياء وزعماء الاصلاح

حين يترفعون عن الاتصال الشخصي والتربية الدينية ، تأخذهم العزة بالعلم ــ ولا أقول العزة بالاثم ــ وكأنهم يقولون بلسان « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » بلى ، وهو كذلك « أليس الله بأعلم بالشاكرين » •

هذا الاتصال منح حسن البنا قوة تعلو على الاهواءوالرغبات فى سائر المجالات وفى جميع أدوار حياته ومواقف دعوته وبطولته ، ولكنه لم يقبع فى زاوية أو حجرة خالية أو صومعة هادئة بل خرج بهذا الزاد الايماني ، خرج بهذا الوقود ، وبهذه الشحنة الجديدة من الايمان الى ميدان العمل والكفاح •

وهنا يختلف الداعية الامام عن بعض هؤلاء من غير أن يتجنى عليهم أو يلومهم ، لأنه يعرف فضلهم على نفسه ويرى أثر هذا الفضل فى قلبه ، ويشعر بقوة ولذة غريبتين عندما يقاوم تيار الفساد ، ويصمد أمام الفتنة والاغراء ، فكيف يستهين بشأنهم وقد أخذ منهم ما أخذ وتزود منهم لغدة ما تزود ، وعرف عندهم لذة روحية لا تساويها لذات الدنيا بأكملها ، انها لذة الحب والايمان ، فمزجها بلذة الجهاد وتحمل الشدائد فى سبيل الله وكلمة حق عند سلطان جائر •

وهى ميزة قلما توجد فى رجل واحد فاما مرشد روحى لا يعرف الحياة ، واما اجتماعى عامل فى حقل الدعوة لا يعرف لذة الروح •

أما الامام فقد جمع الناحيتين الهامتين فأحسن الجمع . وكان عاملا فى ذلك بالحكمة القرآنية .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك » .

ان محراب التاريخ الاسلامى محراب واسع كبير .. لا ترى مثله فى الحضارات البائدة ولا فى الحضارات السائدة ، انه محراب لا يقف فيه الا عظماء التاريخ الاسلامى وأفذاذهم وعباقرتهم وكبار أساتذة الدعوة الى الله والجهاد فى سبيل الله بالقلم واللسان والمهج والأرواح .

انه محراب عظيم متنور الأرجاء ، متهلل الوجه ، مشرق السمات والملامح ، محراب يبدأ من خاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الاكرمين ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ...

وانى على يقين أن مقام امامنا الشهيد مقام كبير فى هذا المحراب لأنه حمل هذه الدعوة على اكتافه فى هذا الزمن الاخير حينما ظهر الفساد فى البر والبحر ، وأصبح فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر .

فهنيئا لك أيها الامام هذا المقام الرفيع .

وهنيئا لك هذا الجيل المؤمن الذى لا يزال على عهدك وطريقك ، وان طال الليل وساد الصمت ، وخيم الظلام .